موسوعة

النجف الأشرف

النجف في كتب الرحالة والمراجع الغربية

جمع وعرض
جعفر الدجيلي

بإشراف لجنة
من رجال الفكر والعلم والأدب

الجزء الرابع

دار الأضواء




موسوعة
النجف الأشرف

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع

ص.ب / ٤٠ / ٢٥ غبيري فاكس / ٦٠١٠١٩
تلكس / ٢٣٤٠٧ هادي - بيروت - لبنان

موسوعة

النجف الأشرف

النجف في كتب الرحالة والمراجع الغربية

جمع بحوثها..
جعفر الدجيلي

باشراف
لجنة من رجال الفكر والعلم والأدب

الجزء الرابع



بسم الله الرحمن الرحيم
الاهداء

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الميامين.

سيدي أمير المؤمنين:أقف بين يديك لأقدم لك عربون وفائي وولائي لكم أهل البيت... أقف لأستذكر شريطاً من عمري قضيته بجوارك وعشت فيه تحت نظرك... إنها أطيب أيام عمري وأحسنها تلك التي قضيتها في كنفك وجوارك أتردد فيها على مقامك، أتزود خلالها ما يقوّي عزيمتي في الدنيا ويساعدني لاجتياز الصعاب فيها، وكذلك ما يسعدني في الآخرة والفوز فيها..

إنها ذكريات حلوة كالحلم اللذيذ تمرّ عليّ فأتمنى أن لا تنقضي ولكن ما يخفّف وطأة البُعد عنكم أنني لا أزال - وسأبقى - بخدمتكم أحمل لواءكم وأنشر تراثكم ولا أزال - وسأبقى - على وفائي وولائي لكم فاقبل سيدي هذه البضاعة المزجاة وتصدق علينا إن الله يجزي المحسنين.

(المؤلف)
بيروت في ١٩٩٣/١١/٢٠
٦ جمادى الثاني ١٤١٤هـ

بسم الله الرحمن الرحيم
كلمة المؤسس

نكرر الحمد والشكر لله علىٰ ما أنعم حيث أنعم علينا بما لم يكن في الحسبان، وهو صدور ثلاثة مجلدات من موسوعة النجف الأشرف، حيث أخذت طريقها إلى النشر وطُلِبت منا من مختلف البلاد العربية والإسلامية، هذا وقد ألحقنا بالمجلد الأول طلباً إلىٰ أهل العلم الذين يقرأون الكتاب أن يعطوا ملاحظاتهم وتصحيح الأخطاء التي وردت فيها حيث تفضل عدد منهم مشكورين بملاحظاتهم وتصحيحاتهم وهي محفوظة عندنا نوردها إن شاء الله مذيلة بأسمائهم عند الطبعة الثانية ونحن نشكرهم جميعًا لعنايتهم ورعايتهم وتجاوبهم معنا، وها نحن نقدم إلى القارىء المجلد الخاص بذكر النجف في الرحلات أو أدب الرحلات، علماً بأن المجلد الخامس الخاص بـ «النجف في الشعر» سوف يلي مجلد «الرحلات» كما أن المجلد السادس سيكون خاصاً بجامعة النجف «أي الحوزة العلمية في النجف».

نسأل الله أن يمدّنا بالتوفيق إنه سميع مجيب.

٣ جمادىٰ الأول ١٤١٤هـ

١٨ تشرين أول ١٩٩٣م

جعفر هادي الدجيلي

بسم الله الرحمن الرحيم
مقدمة الكتاب

بقلم الدكتور محمود البستاني*

الرحلة أو «الرحلات» شكل أدبي توفر عليه الأدباء قديماً وحديثاً، سواء أكان الشكل المذكور شعراً أو نثراً، ففي الحالتين يجسّد مادة فنية لها إمتاعها وجماليتها. وإذا كان هذا الشكل قد ضمر حجمه في سنواتنا المعاصرة: نظراً لتطور الأشكال الأدبية الحديثة وتوكؤها علىٰ تقنيات خاصة لا مجال لتفصيل الحديث عنها، إلاّ أن جوهر (الرحلة) قد تسلل إلىٰ خارطة الأدب الحديث وفرض فاعليته في خطاباتنا المعاصرة عبر أنماط شتىٰ من التعبير، متمثلاً في مادة قصصية أو جولات صحفية أو خواطر فنية أو وثائق تتصل بعنصري السيرة والتاريخ. إلخ على نحو ما يكتبه السائحون بعامة عن الأماكن أو البلدان التي يفدون إليها، خصوصاً إذا كانت البيئة التي يرتادونها تتسم بأهمية تاريخية أو اجتماعية، أو ترتبط بشخصية متميزة تسحب أثرها علىٰ البقعة التي تضمّها.

والحق، أن الرحلة أو الخاطرة السياحية تكتسب أهميتها ـ ليس من خلال الشكل الفني الذي يخبره هذا الجيل الأدبي أو ذاك ـ بل من خلال مادتها التي تفرزها طبيعة الرحلات: بما تنطوي عليه من إثارة وجمالية ـ كما

---

* ولد سنة ١٩٣٧م، وحصل على الماجستير سنة ١٩٦٩ وفي سنة ١٩٧٠ عين أستاذاً في كلية الفقه، ثم حصل على دكتوراه في النقد الأدبي عام ١٩٧٣ من جامعة القاهرة.
وهو باحث إسلامي يكتب في علم النفس وعلم الاجتماع والفقه والدراسات القرآنية والنقد الأدبي وتاريخ الأدب والبلاغة وله مؤلفات مبتكرة في هذه الميادين وهو يسعىٰ لأسلمة هذه العلوم وإخضاعها للمناهج الإسلامية.

أشرنا ـ متصلة بما تحققه من أشباعٍ لحاجات الإنسان الجمالية والمعرفية متمثلة في حيوية المشاهد أو الشخصيات أو الحوادث أو الأفكار التي يطرحها السائح أو الرحالة، انها تشبه ـ في الواقع ـ طبيعة العمل القصصي الذي يحفل بعناصر الحيوية التي تتسبب عن عملية القص ذاته.

بيد أن الأهم من ذلك كله، أن الرحلة إذا اقترنت برسم الظواهر المرتبطة بالموقف الفلسفي من الحياة، أي بالموقف العقائدي للإنسان، حينئذٍ تكتسب بُعداً خاصاً من الأهمية لا تضارعها الخطابات الأخرىٰ التي يتكيء عليها فن الرصد لظواهر الحياة.

من هنا، فإنّ الرحالة أو السائح أو الزائر أو الصحفي الذي يتجه إلى النجف الأشرف مثلاً، ورصد ما ينتظم هذه البيئة من ظواهر متنوعة، حينئذ فإن كتابته عن البيئة المذكورة سوف تتميز بإثارة خاصة تستمد فاعليتها أولاً من طبيعة شخصية الإمام علي (ع)، ثم ما يواكب نشوء البيئة المذكورة من نشاط ثقافي (بخاصة الثقافة الإسلامية متمثلة في العلوم الحوزية)، مضافاً إلىٰ ضروب المعرفة الأخرىٰ: كالأدب واللغة والسيرة والتاريخ... إلخ، ثم ما يواكب ذلك أيضاً من ملامح حضارية عامة تفرزها بيئة النجف. كل ذلك يسحب أهميته من خلال البُعد العقائدي المرتبط بشخصية الإمام «ع» كما قلنا.

ويمكننا أن نستشهد بنموذج معروف في هذا الصدد هو الرحلة: التاريخية لابن بطوطة مثلاً عبر تسجيل مشاهداته لأحد مواسم الزيارة في النجف هو (ليلة المبعث النبوي ويومه)، حيث رَصَد سلوك الزائرين: بدءاً من قطعهم مسافات طويلة تمتد شهوراً، للوصول إلى النجف، مروراً بحرصهم علىٰ المبيت فيها تلكم الليلة، وانتهاءً بتطلعاتهم إلىٰ كسب المعطيات الأخروية والدينوية، بخاصة: توقعاتهم الإعجازية للمرضىٰ، فيما يصفهم الرحالة المذكور بأنهم مجموعة من (المقعدين) علىٰ هذا النحو: (إن في ليلة السابع والعشرين من رجب (وتسمىٰ عندهم ليلة المحيا) يؤتىٰ

إلىٰ تلك الروضة بكل مُقعد من العراقيين وخراسان وبلاد فارس والروم، فيجتمع منهم الثلاثون والأربعون ونحو ذلك. فإذا كان بعد العشاء الآخرة، جعلوا فوق الضريح المقدس والناس ينظرون قيامهم، وهم ما بين مصلٍ وذاكرٍ وتالٍ ومشاهد للروضة، فإذا مضىٰ من الليل نصفه أو ثلثاه أو نحو ذلك، قام الجميع أصحّاء من غير سوء، وهم يقولون: «لا إله إلا الله، محمد رسول، عليّ ولي الله»).

إن هذا النص، ليس مجرد مذكرات لرحالة يصف سلوك الزائرين المرضىٰ والأصحاء، بقدر ما يجسّد وثيقة متألقة لها ثقلها العقائدي الضخم، . . . إنها تتصل بشخصية الإمام «ع»، وعلاقة المنتسبين إليه فكرياً، فبالرغم من أن الرحالة المذكور لا ينتسب إلىٰ خط الإمام «ع» (والطريف أنه يشكك بالمرقد ويقول عنه «حيث القبر الذي يزعمون أنه قبر علي»«ع») بالرغم من أولئك جميعاً لا يجد مناصاً من أن يرسم حقائق (قد تزعجه وجدانياً) إلا أنه لا يجحدها عمليًا نظراً لواقعيتها الكاشفة عن حقيقة الإمام «ع» والخط الفكري الذي يصدر عنه. مضافاً إلىٰ حقيقة الطائفة المنتسبة إليه فكرياً فيما يصفهم بأنهم بين مصلٍ وذاكرٍ وتالٍ، حيث إن مثل هذا الرصد لسلوكهم يكشف عن نظافتهم وعمق إيمانهم بالله وبالإسلام والمعصومين عليهم السلام. . . ذلك جميعاً ـ كما قلنا ـ يكسب مثل هذه الرحلة أهميةً عبادية تسهم ـ دون أدنىٰ شك ـ في تعديل السلوك العبادي للإنسان، فيما يشكّل الهدف الرئيس لكل ظاهرة سلوكية يوظفها الإنسان في ممارسة مهمته العبادية في الحياة.

ولا نغفل أن الرحلة ـ أو أي خطاب وثائقي ـ يأخذ أهمية الأشد خطورة عندما يكتبه واحد يحيا بمنأىٰ عن خط الإمام «ع» ـ كما أشرنا ـ بالنسبة إلى الرحالة المذكور. وبالمقابل يكبر حجم الأهمية بقدر ما تكبر مسافة البعد عنه «ع»، وهذا ما نجده متمثلاً في القسم الآخر (من الكتاب الذي بين يديك) وهو (كتابات الأوروبيين عن النجف) حيث توفروا على كتابة انطباعاتهم عن النجف، ونقلوا لنا كثيرًا من الظواهر المرتبطة بشخصية

الإمام «ع» وبمرقده، وبرحلاتهم إلى النجف، وبمعطياتهم العلمية والحضارية.. إلخ، وأولئك جميعاً يُسهمون - كما ذكرنا - في إثراء المتلقي بمزيد من المعلومات التي يفيد منها في تعديل سلوكه العبادي.

محمود البستاني
بيروت ١٥/١٠/١٩٩٣م
٢٩ ربيع ثاني ١٤١٤هـ

النجف في رحلات الشرقيين

رحلة ابن بطوطة*

* هو الرحالة المعروف الذي طاف في أنحاء العالم خلال ثلاثين عاماً وكانت وفاته سنة ١٣٧٧م (انظر المنجد في الأعلام صفحة ٩).

ثم رحلنا (من القادسية) فنزلنا مدينة مشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالنجف. وهي مدينة حسنة في أرض فسيحة صلبة، من أحسن مدن العراق وأكثرها ناساً وأتقنها بناء. ولها أسواق حسنة نظيفة. دخلناها من باب الحضرة فاستقبلنا سوق البقالين والطباخين والخبازين، ثم سوق الفاكهة، ثم سوق الخياطين والقيسارية، ثم سوق العطارين، ثم الحضرة حيث القبر الذي يزعمون أنه قبر علي عليه السلام[1]. وبإزائه المدارس والزوايا والخوانق معمورة أحسن عمارة، وحيطانها بالقاشاني، وهو شبه الزليج عندنا لكن لونه أشرق ونقشه أحسن.

ذكر الروضة والقبور التي بها

ويدخل من باب الحضرة إلى مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة. ولكل وارد عليها ضيافة ثلاثة أيام من الخبز واللحم والتمر، مرتين في اليوم. ومن تلك المدرسة يدخل باب القبة، وعلى بابها الحجاب والنقباء والطواشية. فعندما يصل الزائر يقوم إليه أحدهم أو جميعهم، وذلك على قدر الزائر، فيقفون معه على العتبة ويستأذنون له، ويقولون: «عن أمركم يا أمير المؤمنين، هذا العبد الضعيف يستأذن على دخوله الروضة العلية، فإن أذنتم وإلاَّ رجع، وإن لم يكن أهلاً لذلك فأنتم أهل المكارم والستر!». ثم يأمرونه بتقبيل العتبة، وهي من فضة، وكذلك العضادتان. ثم يدخل القبة، وهي مفروشة بأنواع البسط من الحرير وسواه، وبها

(١) من المؤسف أن يتمسك هؤلاء الناس بتعصباتهم المذهبية في كل مناسبة. إن هذا القبر الذي يتحدث عنه ابن بطوطة هو قبر علي عليه السلام، وإن كره هو وأمثاله هذه الحقيقة الناصعة. ولابن بطوطة أشياء أخرى من هذا القبيل في رحلته هذه (الناشر).

قناديل الذهب والفضة منها الكبار والصغار. وفي وسط القبة مسطبة مربعة مكسوة بالخشب، عليه صفائح الذهب المنقوشة المحكمة العمل، مسمرة بمسامير الفضة. قد غلبت على الخشب بحيث لا يظهر منه شيء، وارتفاعها دون القامة. وفوقها ثلاثة من القبور: يزعمون أن أحدها قبر آدم عليه الصلاة والسلام، والثاني قبر نوح عليه الصلاة والسلام، والثالث قبر علي رضي الله تعالى عنه، وبين القبور طسوت ذهب وفضة فيها ماء الورد والمسك وأنواع الطيب، يغمس الزائر يده في ذلك ويدهن به وجهه تبركاً.

وللقبة باب آخر عتبته أيضاً من الفضة، وعليه ستور من الحرير الملون، يفضي إلى مسجد مفروش بالبسط الحسان، مستورة حيطانه وسقفه بستور الحرير، وله أربعة أبواب عتباتها فضة وعليها ستور الحرير. وأهل هذه المدينة كلهم رافضية.

وهذه الروضة ظهرت لها كرامات ثبت بها عندهم أن بها قبر علي رضي الله عنه.

فمنها أن ليلة السابع والعشرين من رجب ـ وتسمى عندهم ليلة المحيا ـ يؤتى إلى تلك الروضة بكل مقعد من العراقين وخراسان وبلاد فارس والروم، فيجتمع منهم الثلاثون والأربعون ونحو ذلك، فإذا كان بعد العشاء الآخرة جعلوا فوق الضريح المقدس، والناس ينتظرون قيامهم، وهم ما بين مصل وذاكر وتال ومشاهد للروضة، فإذا مضى من الليل نصفه أو ثلثاه أو نحو ذلك قام الجميع أصحاء من غير سوء وهم يقولون: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي ولي الله...

وهذا أمر مستفيض عندهم سمعته من الثقات، ولم أحضر تلك الليلة لكني رأيت بمدرسة الضياف ثلاثة من الرجال، أحدهم من أرض الروم والثاني من أصبهان، والثالث من خراسان، وهم مقعدون... فاستخبرتهم عن شأنهم فأخبروني بأنهم لم يدركوا ليلة المحيا، وأنهم منتظرون أوانها من عام آخر.

وهذه الليلة يجتمع لها الناس من البلاد، ويقيمون سوقاً عظيمة مدة عشرة أيام.

وليس بهذه المدينة مغرم ولا مكاس ولا وال، وإنما يحكم عليهم نقيب الأشراف.

وأهلها تجار يسافرون في الأقطار. وهم أهل شجاعة وكرم، ولا يضام جارهم. صحبتهم في الأسفار فحمدت صحبتهم، لكنهم غلوا في علي رضي الله عنه.

ومن الناس، في بلاد العراق وغيرها، من يصيبه المرض فينذر للروضة نذراً إذا برىء، ومنهم من يمرض رأسه فيصنع رأساً من ذهب أو فضة ويأتي به الروضة فيجعله النقيب في الخزانة، وكذلك اليد والرجل وغيرهما من الأعضاء.

وخزانة الروضة عظيمة، فيها من الأموال ما لا يضبط لكثرته.

ذكر نقيب الأشراف

ونقيب الأشراف مقدم من ملك العراق، ومكانه عنده مكين، ومنزلته رفيعة. وله ترتيب الأمراء الكبار في سفره، وله الأعلام والأطبال، وتضرب «الطبلخانة» عند بابه مساءً وصباحاً، وإليه حكم هذه المدينة ولا والي بها سواه، ولا مغرم فيها للسلطان ولا لغيره.

وكان النقيب في عهد دخولي إليها نظام الدين حسين بن تاج الدين الآوي (نسبة إلى بلدة آوة من عراق العجم أهلها رافضة). وكان قبله جماعة يلي كل واحد منهم بعد صاحبه، منهم جلال الدين بن الفقيه، ومنهم قوام الدين بن طاوس، ومنهم ناصر الدين مطهر ابن الشريف الصالح شمس الدين محمد الأوهري من عراق العجم، وهو الآن بأرض الهند، من ندماء ملكها. ومنهم أبو غرة بن سالم بن مهنا بن جماز بن شيحة الحسيني المدني.

حكاية

كان الشريف أبو غرة قد غلب عليه في أول أمره العبادة، وتعلم العلم واشتهر بذلك، وكان ساكناً بالمدينة الشريفة كرمها الله، في جوار ابن عمه منصور بن جماز أمير المدينة.

ثم إنه خرج عن المدينة واستوطن العراق وسكن منها بالحلة، فمات النقيب قوام الدين بن طاوس، فاتفق أهل العراق على تولية أبي غرة نقابة الأشراف، وكتبوا بذلك إلى السلطان أبي سعيد، فأمضاه ونفذ له اليرليغ ـ وهو الظهير بذلك ـ وبعث له

الخلعة والأعلام والطبول على عادة النقباء ببلاد العراق، فغلبت عليه الدنيا، وترك العبادة والزهد، وتصرف في الأموال تصرفاً قبيحاً، فرفع أمره إلى السلطان، فلما علم بذلك أعلن السفر مظهراً أنه يريد خراسان قاصداً زيارة قبر علي بن موسى الرِّضا بطوس، وكان قصده الفرار.

فلما زار قبر علي بن موسى قدم هراة ـ وهي آخر بلاد خراسان ـ وأعلم أصحابه أنه يريد بلاد الهند، فرجع أكثرهم عنه، وتجاوز هو أرض خراسان إلى السند.

فلما جاز وادي السند المعروف بينج آب ضرب طبوله وأنفاره، فراع ذلك أهل القرى وظنوا أن التتر أتوا للإغارة عليهم، وأجفلوا إلى المدينة المسماة بأوجا، وأعلموا أميرها بما سمعوه، فركب في عساكره، واستعد للحرب، وبعث الطلائع فرأوا نحو عشرة من الفرسان وجماعة من الرجال والتجار ممن صحب الشريف في طريقه معهم الأطبال والأعلام، فسألوهم عن شأنهم فأخبروهم أن الشريف نقيب العراق أتى وافداً على ملك الهند، فرجع الطلائع إلى الأمير وأخبروه بكيفية الحال، فاستضعف عقل الشريف لرفعه العلامات وضربه الطبول في غير بلاده.

ودخل الشريف مدينة أوجا، وأقام بها مدة تضرب الأطبال على باب داره غدوة وعشياً، وكان مولعاً بذلك.

ويذكر أنه كان في أيام نقابته بالعراق تضرب الأطبال على رأسه، فإذا أمسك النقار عن الضرب يقول له: «زد نقرة يا نقار!» حتى لقب بذلك. وكتب صاحب مدينة أوجا إلى ملك الهند بخبر الشريف وضربه الأطبال بالطريق وعلى باب داره غدوة وعشيا ورفعه الأعلام. وعادة أهل الهند أن لا يرفع علماً ولا يضرب طبلاً إلاّ من أعطاه الملك ذلك، ولا يفعله إلاّ في السفر. وأما في حال الإقامة فلا يضرب الطبل إلاّ على باب الملك خاصة، بخلاف مصر والشام والعراق فإن الطبول تضرب على أبواب الأمراء، فلما بلغ خبره ملك الهند كره فعله وأنكره، وفعل في نفسه. وخرج الأمير إلى حضرة الملك، وكان الأمي كشلي خان، والخان عندهم أعظم الأمراء، وهو الساكن بملتان كرسي بلاد الهند، وهو عظيم القدر عند ملك الهند، يدعوه بالعم لأنه ممن أعان أباه السلطان غياث الدين تغلق شاه على قتال

السلطان ناصر الدين خسرو شاه، قد قدم على حضرة ملك الهند. فخرج الملك إلى لقائه، فاتفق أن كان وصول الشريف في ذلك اليوم، وكان الشريف قد سبق الأمير بأميال وهو على حاله من ضرب الأطبال، فلم يرعه إلّا والسلطان في موكبه. فتقدم الشريف إلى السلطان فسلم عليه، وسأله السلطان عن حاله وما الذي جاء به فأخبره ومضى السلطان حتى لقي الأمير كشلي خان، وعاد إلى حضرته، ولم يلتفت إلى الشريف ولا أمر له بإنزال ولا غيره. وكان الملك عازماً على السفر إلى مدينة دولة أباد، وتسمى أيضاً بالكَتكَة، وتسمى أيضاً بالدونجر، وهي على مسيرة أربعين يوماً من مدينة دهلي حضرة الملك. فلما شرع الملك في السفر بعث إلى الشريف بخمسمائة دينار دراهم، وصرفها من ذهب المغرب مائة وخمسة وعشرون ديناراً. وقال لرسول إليه: «قل له إن أراد الرجوع إلى بلاده فهذا زاد، وإن أراد السفر معنا، فهي نفقته في الطريق، وإن أراد الإقامة بالحضرة فهي نفقته حتى نرجع». فاغتمّ الشريف لذلك، وكان قصده أن يجزل له العطاء كما هي عادته مع أمثاله، واختار السفر صحبة السلطان. وتعلق بالوزير أحمد بن إياس المدعو بخواجة جهان، وبذلك سماه الملك وبه يدعوه هو وبه يدعوه سائر الناس. فإن من عادتهم أنه متى سمى الملك أحداً باسم مضاف إلى الملك من عماد أو ثقة أو قطب، أو باسم مضاف إلى الجهان من صدر وغيره، فبذلك يخاطبه الملك وجميع الناس، ومن خاطبه بسوى ذلك لزمته العقوبة. فأكدت المودة بين الوزير والشريف، فأحسن إليه ورفع قدره، ولاطف الملك حتى حسن فيه رأيه وأمر له بقريتين من قرى دولة أباد وأمره أن تكون إقامته بها. وكان هذا الوزير من أهل الفضل والمروءة ومكارم الأخلاق والمحبة في الغرباء والإحسان إليهم وفعل الخير وإطعام الطعام وعمارة الزوايا. فأقام الشريف يستغل القريتين ثمانية أعوام، وحصل من ذلك مالاً عظيماً. ثم أراد الخروج فلم يمكنه، فإنه من خدم السلطان لا يمكنه الخروج إلّا بإذنه، وهو محب في الغرباء فقليلاً ما يأذن لأحدهم في السراح. فأراد الفرار عن طريق الساحل، فرد منه وقدم الحضرة، ورغب من الوزير أن يحاول قضية انصرافه. فتلطف الوزير في ذلك حتى أذن له السلطان في الخروج عن بلاد الهند، وأعطاه عشرة آلاف دينار من دراهمهم، وصرفها من ذهب المغرب ألفان وخمسمائة دينار. فأتى بها في بدرة، فجعلها تحت فراشه ونام عليها لمحبته في الدنانير وفرحه بها وخوفه أن يتصل لأحد من أصحابه شيء منها، فإنه كان بخيلاً.

فأصابه وجع في جنبه بسبب رقاده عليها، ولم يزل يتزايد به وهو آخذ في حركة سفره إلى أن توفي بعد عشرين يوماً من وصول البدرة إليه. وأوصى بذلك المال للشريف حسن الجراني، فتصدق بجملته على جماعة من الشيعة المقيمين بدهلي من أهل الحجاز والعراق. وأهل الهند لا يورثون بيت المال، ولا يتعرضون لمال الغرباء، ولا يسألون عنه ولو بلغ ما عسى أن يبلغ. وكذلك السودان لا يتعرضون لمال الأبيض ولا يأخذونه، إنما يكون عند الكبار من أصحابه حتى يأتي مستحقه. وهذا الشريف أبو غرة له أخ اسمه قاسم سكن غرناطة مدة، وبها تزوج بنت الشريف أبي عبدالله بن إبراهيم الشهير بالمكي، ثم انتقل إلى جبل طارق فسكنه إلى أن استشهد بوادي كرة من نظر الجزيرة الخضراء. وكان بهمة من البهم لا يصطلى بناره، خرق المعتاد في الشجاعة، وله فيها أخبار شهيرة عند الناس. وترك ولدين هما في كفالة الشريف الفاضل أبي عبدالله محمد بن أبي القاسم بن نفيس الحسيني الكربلائي، الشهير ببلاد المغرب بالعراقي. وكان تزوج أمهما بعد موت أبيهما، وهو محسن لهما جزاه الله خيراً.

ولما تحصلت لنا زيارة أمير المؤمنين علي عليه السلام سافر الركب إلى بغداد، وسافرت إلى البصرة صحبة رفقة كبيرة من عرب خفاجة. وهم أهل تلك البلاد، ولهم شوكة عظيمة وبأس شديد، ولا سبيل للسفر في تلك الأقطار إلاّ في صحبتهم. فاكتريت جملاً على يد أمير تلك القافلة شامر بن دراج الخفاجي، وخرجنا من مشهد علي عليه السلام فنزلنا الخورنق.

رحلة ناصر الدين شاه*

* ولد في صفر سنة ١٢٤٧هـ وتولى الملك في ١٨ شوال سنة ١٢٦٤هـ واغتيل يوم الجمعة ١٧ ذي القعدة سنة ١٣١٣هـ حين كان يزور مشهد السيد عبد العظيم قرب طهران.

كان أديباً شاعراً له ديوان شعر بالفارسية. وهو أول من أسس في إيران إدارة حزب التقدم وإدارة البرق والبريد ومعملاً للبنادق ومدرسة و(دار الفنون) التي كانت بمثابة (جامعة) ورتب الوزارة.

لكن الجندية وإدارات الداخلية والخارجية كانت منحطة جداً. وكان الاستبداد والجور في الحكام ضارباً أطنابه.

اليوم الثلاثاء الثاني عشر من رمضان. علينا اليوم أنْ نتحرك نحو النجف الأشرف. والمنزل «خان الحماد»، والمسافة أكثر من ستة فراسخ بقليل. كانت الساعة الثالثة صباحاً، ركبنا، وكنا نسوق إلى جهة الجنوب الشرقيّ، ركبت العربة وكان حسام السلطنة ووزير الخارجية ومشير الدولة ووالي بغداد وآخرون. تحدّثنا، كان الطريق كلّه أرض بِكر وممهّدا، وكانت حركة العربة جيّدة جدّاً.

رأيت اليوم في وسط الصحراء فسيل النخل، وكأنه قد اخضرّ بصورة بريّة، وكان بعيداً عن منازل كربلاء وبدون تنظيم ومناسبة، ولم يتضّح أنه قد غُرِسَ، أو أنّه من الممكن أن ينبت النخلُ في هذه المناطق بصورة طبيعيّة. وعندما قطعنا فرسخين ونصف فرسخ، كان يُشاهَدُ على جهة اليسار نهرٌ وبركةُ ماءٍ وأعشابٌ وزارةُ قصبٍ، ويقطن هنا كثير من العشائر العربيّة مع دَوابّهم وسرحهم، وهم من «بني حِسَن» و «الخزاعِل»، ولم يكن هذا المكان محلّهم الدائميّ، وأغلب عرب اليوم لديهم بنادق ذات فتيل وقَدْح.

وعن يمين الجادة وقعنا في رمال كثيرة. جاء «طولوزون» وقرأ لنا جريدة، وكان الخدم حاضرينَ، ولم يكن حكيم الممالك والحاج ميرزا علي حاضِرَيْنِ، كلاهما عليلان. وبعد تناول وجبة طعام الظهر ركبت العربة، وعبرتُ الجادّة بواسطة العربة نحو اليسار، وذهبت نحو الماء وزارةِ القصب، فجاء تيمور ميرزا، فسُقنا قليلاً إلى جانب

البركة على الأعشاب اليابسة، وأردنا أن نعودَ إلى الجادّة، فابتلينا بزارة قصبٍ وَوَحل رديء، وكان تيمور ميرزا يرمي الحِدَأَةَ، وكان الوضعُ ممتعاً، وأنا أيضاً رميت غراباً في الهواء. كان البطّ والوزّ والخُضَيْرِيُّ بكثرة، تحطّ على الرمال، وقد كان تيمور ميرزا قد صاد خَضَيْريًّا أيضاً. وسُقنا العربة مرةً ثانيةً إلى جهة البركة للصلاة وتناول طعام العصر والشاي.

البركة النمروديّة ممتعة، فيها ماءٌ عذبٌ بين مياه زارة القصب المختلفة، والشواطىء كلّها خضراء لكنّها بامتداد الماء، وكان عرض الأرض المعشوشبة لا يزيد على مائة أو مائة وخمسين قدماً في جميع النقاط. وبعد الصلاة وتناول طعام العصر والشاي قلتُ للسيّد يوسف سقّاباشي أنْ يسوق العربة وسط البركة، لم تكن عميقة، وليس فيها وَحلٌ وطين، فقطع مسافةً راكباً، وهذه المياه من الفرات من مجرى نهر الهنديّة، وقد جعلتْ من هذه المناطق بركةً ومستنقعاً. وأهم مناطق بغداد الزراعية هي سواحل الهنديّة هذه، يُزرَع فيها الرُزّ الجيّد والقمح والشعير وغير ذلك.

وتشاهد في تلك الجهة من البركة قلعة نمرود والتي هي من آثار بابل المهمة. ويسمّيها الفرنجيون: «بيرس نمرود»، وكنت أنظر بواسطة المُجْهِر قلعة عالية متهدّمة في تلٍّ ربما يكون قد حدث من أنقاض البناء. ومن الجهة الأخرى كان قبر ذي الكفل النبيّ والقرية التي حوله، يُشاهد بصورة جزيرة ممتعة جدّاً في هذه البركة الواقعة إلى جانب هذه القلعة ولليهود عقيدة راسخة بزيارة ذي الكفل. وبعض سكّان تلك المنطقة يهود، بل إنّ عمارته من اليهود، فهم يقصدون بالنذور من الأطراف والأكناف. ويوجد بعض الفلاّحين العرب في ضواحي المنطقة. كنتُ أشاهد تلك المناطق بواسطة المُجْهِر مدّةً غير قليلة. وكان ميرزا علي خان مُنشي حضور (الكاتب الخاص) ومحمد حسن خان أمين السلطان حاضِرَيْن، ثمّ ركبنا واقتحمنا الماء بمعيّة الخيّالة، وسُقنا مسافةً وسط الماء، فخرجنا وجئنا على الأعشاب في ضفاف البركة على طول الطريق بواسطة العربة إلى خان الحماد حيث المبيت. وكان محمد علي خان وحبيب الله خان ساعد الدولة ومهدي قُلي خان، والسيّد وجيه في الطليعة، وكانوا يرمون

الطيور التي بجانب الماء ولم يُصيبوا. وكان مهدي قُلي خان وتيمور ميرزا وعلي بيك تشريفاتجي (مدير التشريفات) قد ذهبوا إلى الصحراء للصيد، فاصطادوا أنواعاً من البط وجاءوا بها.

والخلاصة: كان قبل الغروب بنصف ساعة عندما وصلنا، وكانوا قد ضربوا الخيام فوق سطح الخان. وخان الحماد كالقلعة الحصينة له أبراج ومراصد، وقد بنوه بالآجر. قالوا: إنّ المرحوم الشيخ مرتضى بناه بأموال الحاج شهاب الملك. وهناك خان آخر أصغر من هذا متّصل به، وهو من بنايات الحاج محمد حسين خان الصدر الأصفهاني.

والخلاصة: إن طريق اليوم كان ذا بهجة جدّاً. وعند المساء، وبعد تناول العشاء طلبتُ الخدم، كان محمد حسين خان حاضراً قرأ عدداً من الصحف.

يوم الأربعاء الثالث عشر من رمضان، علينا اليومَ أن نذهبَ إلى النجف الأشرف جلستُ في العربة صباحاً، وسُقنا نحو الجنوب في كلّ مكانٍ، الطريق خمسة فراسخ، وكان مِدحت باشا والي بغداد، ومُشير الدولة قد تقدّما، وكان كمال باشا وحسام السلطنة ووزير الخارجيّة حاضرين وجرى الحديث. وقطعتُ مسافةً بالعربة، كان كثيرٌ من البطّ قد حطّ في الصحراء. ركبنا، وكان معيّر وأمين الملك، وأمين خلوت، ومجد الدولة، وتيمور ميرزا وميرشكار (أمير الصيد) وآخرون، وقد هدّف تيمور ميرزا مراراً، فأسقط حِدَأة.

إنّ هذه الصحراء الرمليّة أصبحت بمجاورتها لزارات القصب محلّاً للطيور المائية: البط والوزّ والخُضَيري وغيرها. وكان كلّ خمسمائة أو ستمائة منها تطير دفعة واحدة، فلم أر منطقة للصيد كهذه، وكان عددٌ من البطّ قد حطّ، فنزلتُ من العربة ورميت رصاصةً واحدةً فلم أُصِبْ، وأصبتُ بطةً واحدةً برصاصةٍ أخرى بمسافة ألف قدم تقريباً، فخرج ذئب كبير، فلحقه مهدي قلي خان على فرسه، وكان يلحق به دائماً ولا يرميه، وكان فرسه يجتاز الذئب، ولكنّه لم يتمكنّ من أنْ يهدّف، وأخيراً وصل ابن ابراهيم خان النائب فرمى الذئب.

كانت الصحراء بِكراً مسطّحةً، وفيها من الشوك الذي يخصّ الإبل، قليلةَ العشب، فنزلنا الظهر وتناولنا الطعامَ. الهواء حارٌ، لم يكن للبرد والشتاء أيّة علامةٍ. وبعد الطعام ركبنا العربة: وكان أمير الصيد وتيمور ميرزا ومهدي قُلي خان والسيّد وجيه قد ذهبوا إلى الصحراء لصيد الغزال، وكانوا قد رأوا الغزال، وتابعه أمين الصيد ومهدي قُلي خان على فرسيهما، وضيّقا عليه، ولم يتمكّنا من رميه. وكان السيّد وجيه قد رمى ضَبُعاً، والعميد حبيب الله خان اصطاد غزالاً، وجاء به تيمور ميرزا إلى المنزل. وكانت بساتين النخيل التي تحيط بمسجد الكوفة تبدو من بعيد جدّاً على جهة اليسار، وكانت قبّة ذي الكفل النبيّ ومئذنته والخانات تُشاهَدُ أيضاً. وقبلَ الركوب صباح اليوم حضر لدينا في الصيوان بعض علماء النجف الأشرف الذين كانوا قد جاءوا للإستقبال، واستقبلناهم واقفين، ولم يفسح المجال للمجلس بصورة مفصّلة:

الحاج السيّد محمّد تقي بحر العلوم بكريمة بيضاء، حسن الوجه، بشّاش جدًّا، السيّد علي بحر العلوم من العلماء الأجلّاء، أخو السيّد محمد تقي بحر العلوم، السيّد باقر بن السيّد علي بحر العلوم، والسيّد أبو القاسم الكاشاني، وكان السيد صادق أيضاً، والسيد جواد بحر العلوم، والشيخ محمد حسين حفيد المرحوم الشيد جعفر، والحاج الشيخ جعفر الطهراني، والسيد محمد بن الحاج سيد محمد تقي بحر العلوم.

وخلاصة القول: كانت العرباتُ بعدَ طعام الظهر تُساقُ بسرعة في كلّ مكانٍ، وقبل فرسخين كانت مئذنتا حرم أمير المؤمنين عليه السلام تشاهدان. فبدت عليَّ حالة أن الحمد لله تعالى حيث تحقّق لنا منتهى الأمل والمقصود بالسلامة وفراغ البال، شكرتُ كثيراً وفرحتُ، وقبل فرسخ من المدينة نزلتُ وجدّدتُ الوضوءَ، ثمّ ركبنا ثانيةً، وقربَ المدينة كان الباشا باستقبالنا ومشير الدولة والمستقبلون، واجتزنا محاذين باب وادي السلام، وكان علماء النجف والمشايخ والطلاب الكثيرون قد جاءوا للاستقبال، مثل الشيخ راضي، والذين سوف أكتب أسماءهم إن شاء الله، كانت الحشود كثيرة، كلّهم معمّمون، فوصلنا إلى باب المدينة من جهة الكوفة، وكان سور النجف قويّا جدًّا بُنِيَ بالآجر، وبانيه هو الحاج محمد حسين خان الصدر الأصفهاني، فنزلتُ من العربة قربَ الباب ومشينا على الأقدام جميعاً: البَشَوَات والوزراء، فدخلنا المدينة، وكانت أُذُنُ روحي تسمع: «إنّك بالوادي المقدّسِ طُوىً»، ولِسانُ قلبي

يقول: «ربِ أدخلني مُدْخَلَ صِدقٍ».

يجب أن نعتبر هذه التربة الطاهرة والأرض المقدّسة جزءاً من العرش، وآيةً من الجنّة، والتي هي موطن الروح ومنزل القلب. فأحسست بَرَوْحٍ وراحةٍ أعجز عن وصفها.

يوجد ـ أوّلاً ـ عند مدخل المدينة ساحة واسعة طويلة، وعلى جانبها في رأس السوق دار وعمارة وطابق فوقانيّ مشرف على هذه الساحة (الميدان)، وهو دار الحاكم. ومن الميدان حتّى باب الصحن الشريف سوق واسع مستقيم مسقّف. وقد عُجِنت الطهارة والنظافة بطبيعة هذه الأرض.

والزينة أطهر من كلّ مكان وأجمل. وفي نهاية السوق دخلنا الصحنَ، صحناً روحانياً واسعاً جدًّا، حجراتٌ في أطرافه في طابقين قد بُنِيَ بالقاشاني، ممتاز ومرتفع جدًّا، أصلُ بنائه من السلاطين الصفويّين رضوان الله عليهم، وإن كان قد كتب اسم نادرشاه على واجهة باب الصحن، ربّما كان قد أجرى بعض التعميرات في الصحن، لأنّه قام بتذهيب القبّة، والقبّة والرِّوَاق المطهّر يقع في وسط الصحن، وقد تجرّد من ثلاث جهات، وضُرِبَ طاقٌ من الجانب الشرقيّ بحيث أوصل الرواق والروضة، بحيث كان الذهاب والإياب يتمّ من تحت الطيقان كالمجاز، ومن جهة اليسار وصلنا إلى منزع الأحذية، فذهبت إلى الإيوان، وكان سادن الروضة السيّد جواد بن المرحوم السيّد رضا الذي قتلوا أباه في داره قبل ثلاث سنوات، وهو شاب أنيس جميل الصورة، فقرأ إذنَ الدخول والزيارة، فدخلت الروضة المقدّسة، فقبّلت عتبة الباب، وكانوا قد رصّعوا داخل القبة بالقاشاني البارز كالأقداح المعلّقة، وقلّما شوهد مثل هذا القاشاني بهذه الظرافة، فهو أدقّ وأجلىٰ من الترصيع على صفحات الذهب. وبناء القبّة من الصفويين أيضاً. القناديل الذهبيّة والفضيّة والمسرجات الشمعيّة وسائر المنذورات المعلّقة كثيرة، وقد أُسدلت الستائر الكثيرة. والضريح الفضيّ الطاهر ربّما يكون من تبرّعات الصفويين. وكانوا قد فرشوا الفرش الحريريّ والسجاد المطرّز الحريريّ الموجود في قُم أيضاً هو من تبرعّات المرحوم الشاه عباس الصفويّ، وكان قد كتب عليه: «كلبُ عَتَبَةِ عليٍّ عبّاسٌ»، وقد حافظوا عليه جيّداً، وكأنّه قد خرج من

المَعْمَل تَوًّا وهو فرش ممتاز وثمين.

وعندما دخلنا كان الوقت قبل الغروب بساعتين، فصلّينا في جهة الرأس صلوات الظهر والعصر والزيارة. والحمدلله قد توفّقنا لهذه السعادة، وبعد الزيارة ذهبت إلى قبر الشهيد أغا محمد شاه «صاحب قران ميرزا»، وكان متولّي القبر قد لَفّ عمامةً صغيرةً بيضاءَ على رأسه، وعلى القبورُخامةٌ كبيرة منحوتة. قبر أم المرحوم فتحعلي شاه، وقبر أمّ أمّنا، وقبر سليمان خان قاجار جدّنا، وقبر حسين قُلي خان أخي فتحعلي شاه في غرفة صغيرة أصبحت مجمعاً لأجساد الرجال والنساء لهذه الطائفة ـ رحمة الله عليهم ـ.

ومن هنا تجوّلنا قليلاً في الرواق، وكان الحاج حمزة الخوئيّ التاجر يزيّن الرواق بالمرايا بصورة جيّدة، وكان الحاج حمزة نفسه حاضراً، فأردته، استحسنت ومجدّت، وقلتُ لأمين الملك أن يخلع عليه وساماً وخلعة وحكماً للتشجيع لِكي يتمّ هذا العمل الناقص.

رأيت حكيم الممالك في الروضة المقدّسة لا زال مريضاً، ثمّ رجعت بنفس المراسيم ماشياً حتّى وصلت باب المدينة فركبت، واجتزت وادي السلام، ووادي السلام مدينة الصامتين، فيه من المسقّفات الرباعيّة وآثار القبور ما يزيد على مدينة معتبرة، وفيه بعض البُقَع والقُبَب، منها مقبرة هود وصالح ـ على نبيّنا وعليهما السلام ـ وكانوا قد ضربوا المخيّم في الجهة الغربيّة من المدينة بالقرب من مقبرة وادي السلام، وكانت أغلب خيام الناس على القبور، مكان رديء بعيد عن الماء والعمران، مع العلم بأنّ ساحل البحر كان قريباً، كانوا قد اختاروا هذا المكان للمخيّم، فانزعجتُ كثيراً، وقلت: فليغيّروا المكان غداً. وبغضّ النظر عن كلّ شيء كان مخالفاً لحرمة قبور المسلمين.

الليلة مُقمِرة، وتناولتُ طعام العشاء خارجاً، وكان ميرزا علي خان مُنشي حضور (الكاتب الخاص) حاضراً، وترجم محمد حسن خان صحيفة (پطربورغ) وبعد العشاء بقيت وحدي فنمت.

يوم الخميس الرابع عشر: ركبت صباحاً لاختيار محل المخيّم، فذهبت إلى ساحل البحر، فابتعدت قليلاً عن الخيام، وكانت هناك تِلالٌ صغيرة وسخة أحاطت بالبحر، وباجتياز تلك التلال يصبح ساحل البحر مسطّحاً، وفي بعض الأمكنة تلال مجرّدة مشرفة على البحر. وكان أمين السلطان وهاشم خان بن رئيس الفراشين ونصير بيك نائب الفّراشخانة، ومعتمد الملك، وميرزا علي خان وآخرون حاضرين. فعيّنت مكان السرادق والمخيّم في منطقة قربَ البحر، وكان ماء البحر صافياً وجميلاً وخالياً من الرائحة العفنة، وكانت الطيور الجارحة وغيرها كثيرة تطير فوق البحر. وطول البحر من الشمال إلى الجنوب، وعرضه من المشرق إلى المغرب، ويمكن شرب مائه لأنّه غير أجاج، إلّا أنّه مالِحٌ قليلاً. وهناك جزائر في نهاية هذا البحر لم تشاهد من هنا، وفي النهاية يقلّ عرضه شيئاً فشيئاً حتى يكون كنهرٍ يتصّل ببحيرة أخرىٰ، ومنها يكون على هيئة نهر يتّصل بشطّ الفرات، وماءُ البحر هذا يتكوّن من نهر الهندية وفيض الفرات.

والخلاصة؛ نصبوا ظُلةً عن الشمس. تناولنا طعام الظهر، وبعد قليل من التريّث والتأمّل ركبنا، ودخلت المدينة من باب صغير من جهة الغرب والبحر.

وكان لهذه القلعة بابان: أحدهما نفس باب الكوفة الذي دخلنا منه، والآخر هو هذا. وذهبت من زقاق ضيق جداً، ولكنّه كان جيّداً ونظيفاً، وتشرّفنا بأعتاب المولىٰ وزرنا، وذهبت أيضاً إلى قبر المرحوم «أغا محمد خان» وجلست قليلاً، وقبر قائد قوّات فارس (فرما نفرما) في الرواق أيضاً، وعند الرجوع ذهبت إلى قبر الشيخ مرتضى أعلىٰ الله مقامه، وكان على الطريق أي عند مدخل الصحن من جهة الشرق في غرفة ذات درجات للأعلىٰ، هناك مدفن الشيخ رحمه الله، قرأت الفاتحة. ثمّ جئنا وركبنا، وذهبت من جانب البحر إلى السرادق، وكانوا قد أحدثوا بساتين قرب ساحل البحر توًّا، فيها نخل جديد، وخضروات كثيرة، وفيها خَسٌّ لطيف وممتاز جدًّا، ويمكن القول بأنّه لم يَنْمُ في أيّة منطقة كهذا الخَسِّ.

يوم الجمعة الخامس عشر: ركبت اليوم صباحاً وذهبت إلى مسجد الكوفة ومسجد السهلة، وقبر مسلم بن عقيل وهانىء بن عروة، وآثار مدينة الكوفة، وقطعنا الصحراء التي تعلو وادي السلام، وذهبنا إلى أن وصلنا إلىٰ نهر

المرحوم وكيل الملك، الذي كان يريد أن يجلب الماءَ العذبَ من الفرات إلى النجف، ولكنّهم لم يدقّقوا في حفر النهر منذ البداية، ولم يقايسوا ارتفاع الماء وسطح أرض النجف، وبقيت هذه المصاريف الطائلة بدون فائدة. ومن المحتمل ألّا يجري الماء إلى سطح أرض النجف أيضاً. وكان هناك موضعان للعبور على النهر، فعبرنا إلى تلك الجهة.

وكان تيمور ميرزا وأمين الملك، وأمين خلوت (أمين السرّ) وميرزا علي خان ومحمد حسن خان والبَشَوَات وأمين السلطان ومعتمد الملك وآخرون حاضرين، وما إن قطعنا مسافة من الطريق حتى نزلت في الصحراء لتناول طعام الظهر، وبعد الطعام ركبنا العربة وسُقنا. ثمّ وصلنا إلى نهرٍ كبير كان مجرًى للفرات قديماً من الحلّة إلى الكوفة، أو هو خندق الكوفة. ركبت الجواد ودخلت داخل خرائب مدينة الكوفة وآثارها، وهي كرسوم مدينة الريّ وآثارها الدارسة، تلال من التراب والحجر، وقطع الآجر الكثيرة فوق الأرض، لم تبق خارطة ولا رسم ولا هيئة عمارة من هذه المدينة القديمة المعروفة. وفي أكثر المناطق كانوا قد حفروا الأرض بحثاً عن الأشياء، واستخراج الآجر، ثمّ أعادوا التراب مرّة ثانية. والعبور من هذه المنطقة لم يكن خالياً من الإشكال والخطر، ويجب العبور من نفس الطريق المقرّر. وكان وزير الخارجية وحسام السلطنة والوالي باشا وكامل باشا وعلي بيك قد نزلوا بباب المسجد واقفين منتظرين فنزلت، وكانت بالبداية بعض المحلّات المحوّطة لربط الحيوانات وبئر ماءٍ، وخزّان ماء موجودة، ثم الدخول إلى المسجد: باحة كبيرة تحيطها الغرف، وفي وسط الباحة تقع مقامات الأنبياء والأولياء، لكل مقام دكّة ومحراب.

قد بُنِي بالآجر، ويجب أداءُ ركعتين من الصلاة في كلّ مقام.

وكانت أسطوانة حجريّة وبارتفاع ذراعين قائمة في مقام الإمام محمّد الجواد عليه السلام، وبقطرطيّ اليدين شاخصاً للظهر، الذي ينصب في بعض المساجد، وبعض عوام الناس يعتبرون قطر هذه الصخرة محكّاً لصحّة النسب، وميزاناً لسلامة الفطرة، أيْ أنّ كلّ من يعتنق هذه الصخرة ولم تتّصل يداه، يُقال له: ابن حرام.

سمعتُ أنّ الوالي باشا كان قد أخذ جماعة للمزاح إلى ذلك المقام ومازحهم

وكـان المحراب الـذي قُتِلَ فيـه الإمـام أمـير المؤمنـين عليـه السـلام في جهـة المسجـد الجنوبيّة. وقد كتب الناس ذكرياتهم وتواريخ سفراتهم بخطوط مختلفة وعبارات غـريبة على الجدران والمحاريب بحيث اسودّت الجدران، وكانت هـذه عادة النـاس أن يكتبوا ذكريات عنهم في أكثر الأماكن المعـروفة ومنـاطق التفرّج، وهي من العـادات الذميمـة الركيكة جدّاً، لا سيما في هذه الأمكنة الشريفة، والتي تعتبر مخـالفة لـلآداب وتجرّيـاً. وُمن ضلع المسجـد الشرقيّ باب إلى مقـبرة مسلم بن عقيـل رضي الله عنـه، لهـا قبّـة وضريح برونزيّ قد شيّدته والدة أغا محمّد خان المحلاتي، وفيها خادِمٌ وقارىء زيـارة. زرنا، وهي مقبرة بسيطة، يجب أن تجري عليها تعميرات، مثلاً يجب أن يكون أسفـل الجدار من داخل القبة رخاماً، ومنه إلى أعلى القبّة قـاشانيّـا، ويجب أن يفرشـوا فرشـاً جديداً.

وفي مقابل مقبرة مسلم مقبرة وقبّة أخرى هي قبر هانـي بن عروة قرأت الفاتحة، لم يكن لقـبر هانىء ضريـح أو شيء آخـر سـوى القـبر. فقلت لأمـين الملك أن يجـري تعميرات وينصب ضريحاً جيّداً.

ومن هنـاك جئت إلى محراب مقـام أمير المؤمنـين عليه السـلام، فصلّيت صـلاة الظهر والعصر. ثم ذهبت راكباً إلى شاطىء الفرات، الذي يبعد مسافة ميدان واحـد عن المسجد، وكانوا قد شيّدوا بعض البنايات على الشاطىء حديثـاً، وقد استحـدثت منذ سنتين. إنّ هذا الماء فرع من فروع الفرات ومن مجرى الهنديّة، وفي هذه الأراضي تُسقىٰ البساتين والمزارع بمشقّة بواسطة النواعير وبعض التدابير، فيها الأشجار والنخيل والخضروات الـطريّـة النضرة، وزرّاع هـذه الأراضي من أهـالي إيـران، بـوشهـريّ وخراسانيّ وأصفهانيّ وتبريزيّ، ومن سائر مناطق إيران أيضاً، ويوجد بعض الفلاّحين العرب بِندرة.

طار عدد من الدُرّاج في البساتين، أمين خلوت (أمـين السرّ) اصطاد بَـاشَقاً، لم يكن المكان صالحاً للصيد. اجتزنا البساتين وذهبنـا إلى شاطىء الفـرات، كان خَضِـراً وعرض البساتين والعمارات قليلاً، منتهىٰ ما يبلغه مائتي مترٍ، أما طولها فكثير، وكانت العمارات في طرفي الماء.

مقـبرة النبيّ يونس ـ عليـه السلام ـ في هـذا الجانب من الشـاطىء، لـه قبّـة

وصحنٌ، لم أُوَفَّق للزيارة. كانت قد حطّت بطّة على الماء، ضربها مهدي قُلي خان من قريب بالمسدّس، فسقطت على الماء، فخلع محمد قزويني خادم أغا وجيه ملابسه وجرّد فرسه من السرج وركبها واقتحم الماء، فقطع مسافة بالسباحة، ثم خرج حتى ذهب إلى تلك الجهة، وكانت البطّة التي ضربها مهدي قلي خان لا زالت على الماء، فنزل محمد عن الفرس، وأخذ البطة بإحدى يديه وبالأخرى ذيل الفرس، وكان يسبح، وأوصل محمد نفسه إلى هذه الجهة وقد أدّىٰ مهارةً ومغامرة.

والذين يأتون إلى النجف عن طريق الماء يخرجون في هذه المنطقة، ويستأجرون الحمير من مسجد الكوفة فيذهبون إلى المدينة.

والخلاصة؛ ركبنا بعد تناول الشاي واجتزنا من زقاقٍ بُستانيّ صغير قصير فصرنا إلى الصحراء، وذهبنا إلى مسجد السهلة. يشبه مسجد الكوفة لكنّه أصغر منه، فيه بعض المقامات والأعمال وقاعدة للاعتكاف، مكثنا قليلاً ثمّ رجعنا، فاجتزنا مقبرة كُمَيْل بن زياد ـ عليه الرحمة ـ له ساحة صغيرة تقع قرب الطريق، قرأنا الفاتحة ورجعنا إلى المنزل.

يوم السبت السادس عشر: عندما استيقظت من النوم اليوم كان الجوّ رطبًا ملبّداً بالغيوم، والبحر قد تلاطمت أمواجه الكثيرة منذ منتصف الليل. كان البحر متلاطماً ذا صوتٍ ممتعاً وطريّاً جدّاً ـ وبعد تناول طعام الظهر حضر السيد حسين المجتهد التركيّ التبريزيّ، وهو من أجلّة العلماء، ويرجح أهل العلم والفضل، وهو لا يخلو من شبه بالمرحوم الشيخ الدربندي طبعاً وهيئةً، مع الحاج ميرزا جواد المجتهد أخي المرحوم الحاج ميرزا باقر المجتهد التبريزيّ، ومعهما مشير الدولة، وبعد ساعة من الحديث معهم نهضت قاصداً الزيارة، (ص ١٦٠): فدخلنا الصحن كالعادة، وزرت وصلّيتُ وقبّلتُ مكان الإصبعين المقدستين، الذي كان معيّنا في الضريح المقدس، وقدّمت الوسام الماسيّ البرليانيّ الذي كان على رأسي هدية لعتبة مولانا أمير المؤمنين سلام الله عليه، وتعينّ مكانه في جهة الرأس لينصب على الجدار في محفظة زجاجيّة بحيث لا تصله اليدُ.

قلت اليوم ليفتحوا خزانة المولىٰ التي أغلقت منذ أيّام الوهابيّين إلى الآن، ولم

تُفتح ما يقرب من سبعين سنة، ويسجّلوا جميع ما فيها من ذهب وأحجار كريمة وأشياء أخرى ثمّ تُختَم مرة ثانية من قبل إيران والعثمانيين، حتى تحفظ من النقص والكسر والفقد. يقع باب الخزانة في الرواق في الجنوب الشرقيّ منه. كانوا يهدّمون ليفتحوه. وكُلِّفَ ميرزا زكي مستوفي وزير الحرم أن يسجّل. الستارة أي الغشاء المطرّز بالذهب والفضة الذي أرسله عضد الدولة الديلمي، وأهداه ليوضع فوق القبر أيّام كان القبر بلا زينة وحفاظ، وكان من الجصّ والآجر، فمنذ ذلك العهد وضع فوق الضريح وإلى الآن لم يصبه أيّ عيبٍ ما يقرب من ثمانمائة سنة. الضريح الفضيّ الذي كتبت عنه أنّه من السلاطين الصفويين. قرأ اليومَ أمين الملك خطوط قبّته، كتبوها باسم منوجهر خان معتمد الدولة.

والخلاصة؛ خرجنا. هناك ميزاب ذهبيّ أيضاً، نُصِب في سطح الرواق إلى جهة الغرب، ويقال له: ميزاب الرحمة. تجوّلت في الصحن قليلاً. وفي المجاز الواقع خلف الصحن من جهة الرأس المقدّس في الغرف الواقعة إلى جهة الشرق محل للدراويش البَكتاشيّين، وكان لهم شيخ من أهالي اسطنبول، وكان رجلاً (ص ١٦١): طويل القامة ذا كريمة بيضاء، وفي وجهه شامات لحميّة كثيرة، أصفر اللون، خفيّ المذهب، من الطائفة البكتاشيّة.

والخلاصة؛ رجعنا وركبنا، وخارج باب المدينة ركبنا العربة، وسُقنا نحو المنزل بسرعة، وقبل الغروب بساعة ونصف وردنا المنزل.

الحاج ابراهيم خان ابن رئيس فراشي المرحوم نائب السلطنة مجاور في النجف، وقد دخل في سلسلة الفقراء (الصوفيّة) والناس يعتقدون به برسوخ. سمعتُ أنّه يجلس مساءً مقابل إحدىٰ غرف الصحن وعوام الناس كالأنعام يحيطون به ويقفون بين يديه بخضوع وأدب، ولم يأذن لأحدٍ منهم بالجلوس، ولم يفكّروا بهذه الجسارة، وأنّ هذه الألاعيب والحِيَلَ دليل على الكفر وعلامة للجهل في هذا المكان المقدّس، وبحضرة سيّد الأولياء، إنْ هم أرادوا الإسلامَ فأي شيءٍ هناك أوضح من الشرع المبين وشعار الدين!! وإذا كانوا من أتباع النفس والهَوىٰ والدنيا فليجرّوا أذيالهم إلى مكان آخر، ولا يجرّوا العار على الإسلام والمسلمين، وإنّ هذه الحركة قبيحة جدّاً في رأيي.

سجّلت أسماء العلماء الذين حضروا اليوم: الشيخ راضي (عربي)، والشيخ

مهدي (عربي) والسيد حسين بحر العلوم، والشيخ محمد إيرواني، والشيخ منصور أخو الشيخ مرتضى أعلى الله مقامه، والحاج ميرزا صادق الأصفهاني الذي تكرّر حضوره في طهران، قد جاور منذ مدّة في النجف الأشرف، والحاج ميرزا أبو القاسم ابن أخت الحاج سيد أسد الله بن السيّد محمد مهدي الأصفهاني حفيد المرحوم الحاج كلباسي، والشيخ محمد حسين حفيد المرحوم الشيخ محمد حسن النجفي، والشيخ محمد الكاظمي، والسيّد حسين التركي كوه كمره آي والّذي هو من أجلّة العلماء. والخلاصة؛ نمنا الليلَ، وأمطر كثيراً.

تفصيلات مسجد الكوفة ومسجد السهلة والمقامات وبنائها:

إنّ باحة مسجد الكوفة الكبيرة التي شيّدت كالقلعة بالآجر، لم يعرف تاريخ بنائها، وما يقال على التحقيق إنّ الجدار الواقع في جهة القبلة، والذي يقع فيه محراب المولىٰ مرجع الولاية ـ عليه السلام ـ قد بقي منذ القديم، لكنّه قد أحيط من الطرفين بجدارين حفظاً للجدار العتيق بينهما. وكذلك قواعد الصُّفَّة الإماميّة أيضاً قديميّة بحيث سقط سقفها، والسقف الموجود حاليًّا هو من تشييد المرحوم السيّد بحر العلوم. وفي الجهة الشرقيّة أشاد تاجر من أهالي مسقط الغرف قبل ما يقرب من مائة وعشرين سنة. وفي الجهة الغربية شيّد المرحوم ملّا محمود سادن الروضة الحيدريّة في النجف سبع غرف، وشيّد الحاج صالح عجينة التاجر النجفي أربع غرف منها، وسائر الغرف بناها الإيرانيّون بالتدريج.

وأمّا الطيقان الشماليّة كلّها من الزوّار الإيرانيّين. وشيّد الحاج قاسم التاجر السِمنانيّ مئذنة المسجد الواقعة بجانب باب الفيل في ضلع المسجد الشماليّ. وإنّ تعمير الغرف الدائرة التي كانت كلّها مهدّمة ومكان سفينة نوح الواقعة في وسط المسجد، كلّها قد شيّدت بواسطة المرحوم الشيخ عبد الحسين من الوجوه الشرعية التي جمعها.

مقامات مسجد الكوفة التي ورد في كل منها ركعتان من الصلاة هي كما يلي: أوّلاً: مقام ابراهيم عليه السلام. ثانياً: النبيّ ـ صلوات الله عليه وآله وسلّم، الذي صلّى في السماء الرابعة ليلة المعراج محاذياً لهذا المقام. ثالثاً: مقام آدم

عليه السلام. رابعاً: مقام جبرئيل عليه السلام. خامساً: مقام الإمام زين العابدين عليه السلام. سادساً: مقام نوح عليه السلام. سابعاً: محراب أمير المؤمنين ـ صلى الله عليه وآله ـ والذي استشهد فيه. ثامناً: محراب آخر يبعد عنه بثلاثين قدماً واقع في الصفّة الأخرىٰ، واختلفوا في أنّ الشهادة جرت في أيّهما. تاسعاً: محراب الإمام جعفر الصادق عليه السلام. عاشراً: دكّة القضاء التي كانت محلاً لقضاء مرجع الولاية صلوات الله وسلامه عليه. حادي عشر: بيت الطشت: موضع معجزة أمير المؤمنين المعروفة حول الفتاة الحُبلىٰ. ثاني عشر: مقام الخضر عليه السلام.

ومن المعلوم أنّ هذا المسجد كان مسقّفاً، وهذه المقامات كانت من بعض الاسطوانات فيه. وبناء المحاريب التي شيّدت في المقامات مختلف فيه، لم يعرف بانيه، وأغلبها قد شيّد بواسطة المرحوم السيّد بحر العلوم. وقد نُصِبَ في كلّ مقام رخامة نحتت فيها كتابة أعمال كلّ مقام بخطّ المرحوم ميرزا عبد علي نوّاب اليزديّ، وهو من أجود الخطّاطين المعروفين وقد أرسل هذه الرخامات علي نقي خان بن محمّد تقي خان اليزدي، إلاّ صخرتين نصبهما رجل باسم الحاج اسماعيل.

وتقع بقعة مسلم ـ سلام الله عليه ـ في ضلع المسجد بين الشرق والجنوب، وأصل بناء البقعة كان من قِبَل المرحوم الشيخ محمد حسن المجتهد، والتي بناها من أموال الهند. والإيوان والتعميرات وغيرها، كان المرحوم الشيخ عبد الحسين مباشر لها من قِبل الشاهنشاه. وفي جهة الشرق بقعة هانىء بن عروة كما مَرّ في شرح بقعة مسلم. شيّد أصلَ البقعة الشيخ محمد حسن، والإضافات قام بها الشيخ عبد الحسين. وفي جهة الشمال مقبرة السيّدة خديجة الصغرى بنت أمير المؤمنين عليه السلام. وفي جهة القبلة مقبرة المختار متّصلة ببقعة مسلم. وعلى مسافة مائة قدم تقع دار مرجع الولاية عليه السلام، والتي طليت قبّتها بالقاشاني النيليّ للعلامة. وباب هذه الدار آثارها موجودة بجانب منبر أمير المؤمنين، والتي هي قريبة من المقام السابع. والآن نصبوا صخرةً للعلامة. والدكاكين الثلاثة الموجودة خارج المسجد شيّدها المرحوم الشيخ عبد الحسين ممّا جمعه، وتقع في جهة باب الفيل. حوض من الماء المالح الواقع هنا من آثار السيّد محمد تقي بحر العلوم، وحوض من الماء العذب بناه السيّد اسماعيل المجتهد البهبهاني من قبل الحاج ابراهيم البهبهاني الأعمىٰ. وهناك مسجدان

صغيران قرب مسجد السهلة، أحدهما مسجد صعصعة، والآخر مسجد الحنانة[1]، وفي كلٍّ منها ورد آداب اعتكاف وصلاة مستحبة.

اليوم الأحد السابع عشر من رمضان: كنا اليوم في المنزل والسماء في الصباح كانت ملبّدة بالغيوم والهواء رطباً وماء البحر متلاطماً، والموج ثائراً، وبعد تناول وجبة طعام الظهر هبّت ريح شديدة، وأمطرت ورعدت وبرقت وبَرُد الهواء، واقتلعت الريح أكثر البيوت والخيام.

شوهد اليوم (محققّ) وكان قد جاء مع «خانلرخان سرهنك أفشار» عن الطريق المائي، أي الهنديّة. وإذ كان «خانلرخان» له معاريف في قبائل الأعراب القاطنين في نواحي ذي الكفل، وكان قد مكث في مضيف الأعراب عدداً من الليالي.

والحاج ميرزا على مقدّس مِشكاة الملك مريض، وكنت قد أرسلتُ ميرزا أبو الفضل الطبيب الكاشي ليفحصه، فكان يقول: إنّها بوادر الاستسقاء، وإذا لم يُعالَج يحتمل الخطر، ويجب أنْ يشرب «الشراب»، وقد تكلّف ميرزا علي خان ومحمّد علي خان أن يذهبا ويجبرا الحاج علىٰ المعالجة، وكانا قد ذهبا ورجعا عصراً، وتبيّن أنّهما أقنعاه على المعالجة لكي يشرب الكونياك، والذي هو من المسكرات الشديدة، وإن شاء الله يُعالج.

والخلاصة؛ ركبنا وذهبنا إلى الزيارة، وكان ساعي البريد قد وصل من طهران، فقرأت الرسائل التي جاء بها، وكان يقول: إنّ المطر على طول الطريق ممّا بعث على الإنشراح والسرور. وهنا ـ أيضاً ـ كان المطر قد بلّل الأراضي والحمد لله، ولم يكن اليوم غبارٌ، وبعد الزيارة صلّيت وذهبت على قبر المرحوم «آقا محمد شاه» وكانوا قد أخرجوا علبة جواهر من خزانة أمير المؤمنين عليه السلام، جاء والي باشا ووزير الخارجيّة ومشير الدولة وفتحوها بحضوري، فتفرّجت فيها، وكانت تحتوي على جواهر نفيسة وممتازة كثيرة، وكان أغلبها من المرحوم نادرشاه الذي كان قدّمها لهذه العتبة

(١) غفل الكاتب هنا، وهو يريد مسجد زيد بن صوحان العبدي، لأنّ مسجد الحنانة يقع قرب مدينة النجف الأشرف، قرب مقبرة كميل بن زياد عليه الرحمة. الترجمان.

المقدّسة بعد فتح الهند، فيها جواهر نفيسة، منها قطعتان كبيرتان من الماس، إحداهما «بيكاني» والأخرىٰ، «آيينه»، والتي كان أحد جوانبها حَكّ هنديّ، وكانتا جيّدتين جدًّا وقيّمتين، وزمرّدات جيّدة، وياقوت نيليّ جيّد، ولَعْلُ ممتازٌ، وخرجنا بعد مشاهدتها، وركبت من السوق الذي كنت قد جئت منه في اليوم الأوّل، واجتزت وادي السلام فركبت العربة، وذهبت عن طريق الباب الصغير أيضاً إلى المنزل، وكان محمد حسن خان حاضراً فقرأ شيئاً من الصحف، وكان ميرزا علي خان حاضراً أيضاً.

يوم الإثنين الثامن عشر من رمضان كان الهواء سحابيًّا، وركبنا بعد الظهر إلى جهة الغرب، وتجوّلنا في ساحل البحر وتفرّجنا، وكان برفقتنا مهدي قُلي خان وأغا وجيه ومحمد علي خان بيگلر بيگي، وميرزا علي خان ومحمد حسن خان وموچول خان، ذهبنا نصف فرسخ ونزلنا على ساحل البحر من جهة أسفل البحر، فأرعدت وبرقت وتغيّر الهواء واستعدّ للمطر، فعجّلنا بالركوب إلى جهة المنزل، فأمطرت في الطريق قليلاً، وبلّت الألبسة. جئنا إلى المنزل، ومكثنا قليلاً، فتوضّأت وركبت العربة نحو الصحن المقدّس. فدخلنا وكان الجميع حاضرين، زرت وفتحوا الضريح المطهّر، فدخلتُ (فكان هناك)[1] سيف جهانگشا (فتح العالم)، ومثال صورة الإمام، وتربة سيّدا الشهداء الخاصّة، وتربة أبي الفضل العبّاس عليهما السلام، وأخرجتُ ورقة دعاء بخطّ الإمام والتي كنت قد وضعتها في الضريح المقدّس للتبرّك، وكنت مرتدياً عباءة الإمام البيضاء الخَلِقَة، فصلّيت عند الرأس، وتلوتُ سورتين من القرآن في مصحفٍ جليٍّ كبير كُتِبَ بخط الثلث الجيّد جدّاً، وكانوا قد جاءوا بمقدّم تاج جيّدٍ جدّاً هديّة من قبل «عُلْيًا مهد»[2]، فنصبوه على الضريح المبارك. وكان وزير الخارجيّة قد أهدىٰ خيمة من المُخْمَل المطرّز، وكان قد خاطها لهذه السفرة بصورة خاصّة، وكان قد خصّص الفضة المستعملة فيها لصنع باب الرواق، وكانوا ينصبون إزارَتَها في إزارة الروضة المباركة، وكأنّها قد خيطت لهذه الروضة المنوّرة، وكانت تطابق الإزارة من حيث العرض والطول.

---

(١) العبارة لم تكن كاملة في الأصل، ولذا أضفت لها ما بين القوسين.
(٢) أظنّ أنّ العبارة اصطلاح فارسي وتعبير عن مقام أمّ الشاه.

رأيتُ أبناء غلا محسين خان سپهدار: أحدهما حسن خان، وكان في مدرسة طهران العسكريّة في مجمع درس المعلّم «كوشيش» يتعلم في قسم المدفعيّة، والآن دخل في سلك طلّاب العلم مع أخيه يوسف خان في النجف، وتعمّما واختارا المجاورة.

أحضروا لدينا أخا ميرزا عبدالله مستوفي ناظم الميزانيّة، واسمه ميرزا علي أكبر، ويدرس العلوم الدينيّة الآنَ. وعلى كل حال، ذهبت إلى مقبرة أتما محمد شاه وكان هناك الجواهر والأشياء التي كان قد أخرجها مشير الدولة ومدحت باشا من خزانة الإمام أمس، وكتبوا قائمة بها، شاهدتُها، وكان من جملتها قنديل مرصّع كبير جدًّا قدّمه علي مراد خان زند، قِطَعٌ من الفيروزج الكبيرة وبعض الجواهر الأخرىٰ، ولم يكن لأحجاره ذلك الامتياز، وأربع قِباب مرصّعة جدّاً ممتازة وراقية من أجل زوايا الضريح المطهّر الأربعة، كان قد أهداها الشاه سلطان حسين الصفوي، وسيف مجوهر وبعض الجواهر الأخرىٰ ومجمرة بخور مرصّعة ممتازة جدًّا كانت من هدايا المرحوم نادرشاه، وقنديل مرصّع كبير بسلسلة ذهبيّة ومعلّقات من اللؤلؤ الرطب الكبير الذي يحتوي على امتيازات كثيرة، كانت أهدته «زينت بگم» بنت المرحوم شاه طهماسب الصفوي.

فرأيت من الإجحاف أن يبقى مكنوزاً ومخفيّاً ويذهبون به إلى الخزانة مرّة أخرىٰ، فأمرتُ أنْ يُعلّق في سقف القبة على الضريح المطهّر، وكنت حاضراً، وكان مزيّناً وجيّداً جدّاً. ورجعتُ بعد ذلك إلى المنزل، وأمطرت السماء قليلاً ليلاً.

يوم الثلاثاء التاسع عشر من رمضان، استأذنّا اليومَ من أعتاب الإمام(ع) مع شديد الأسف والحسرة والكدر لنرتحل نحو كربلاء. وكان الجميع في الصحن والروضة المطهّرة حاضرين، وجاء مشير الدولة بالسيّد ميرزا حسن الشيرازي، وهو من أجلّ العلماء، ولم يكن يأتي للاستقبال أيضاً، جاء به في الصحن المبارك، وهو إنسان زاهد عابد منقطع، ويتمتّع بالعلم واقعاً، وبهذه المقابلة القصيرة اكتشفت عالَمَ فضائله وتجرّده وزهده وظاهره وباطنة وهو اليوم ـ وكما قالوا ـ يفوق الأقران في فنون الفضل والعلم، تحدّثنا قليلاً، وقرأ دعاء المسافر في أذني.

خرجت واجتزنا باب المدينة جهة وادي السلام، وكان الناس قد تحشّدوا بكثرة خارج المدينة. وكان ازدحام الناس ـ رجالاً ونساءً عجماً وعرباً ـ ازدحاماً عجيباً في أزقّة المدينة والسوق وخارج الباب وعلى التلّ المعروف بالجوديّ، الذي يُقال عنه أنّ سفينة نوح رست عليه بعد الطوفان. وفي خارج المدينة جلستُ في العربة، وكان مرورنا في كلّ مكانٍ إلى جانب نهر «وكيل الملك» الذي شرع به في البداية المرحوم الشيخ محمد حسن المجتهد من أموال الهند ولم يكمل، وأراد المرحوم وكيل الملك أن يتمّه، فلم يعرف المباشرون بالعمل، ومن جهلهم أنهم حفروه بدون أن يوازنوا ارتفاعه، ولا زال غير تامّ ودون جَدوىٰ.

ونزلنا في الصحراء لأجل تناول طعام الظهر، كان الخدم والباقون حاضرين. وكان الحكيم طولوزون ونائب الروس و «لُمْرٌ» معلّم الموسيقى قد ذهبوا عن طريق الماء للسياحة في ذي الكفل والحلّة ومدينة بابل.

وكان «محقّق» يشرح بالتفصيل ضيافة ابن هذّال رئيس العنزة، وضيافة الشيخ جلّوب، وكان قد جاء مع «خانلرخان سرهنگ» عن طريق نهر الهنديّة إلى النجف، وكانا قد أمضيا ليلتين في مَضيفَي هذين الشيخين، وكان يحدّث حول عادات وتقاليد العرب واحترامات الشيخين وامتيازاتها. وبعد تناول وجبة طعام الظهر ركبنا العربة وسُقنا. كان الهواء حارًا يقطع الأنفاس، والذباب والبعوض كثيراً. وشاهدت ذا الكفل بالمجهر، وكان محمد حسن خان بجانب العربة يقرأ صحيفةً وأخبار حرب الفرنجة. ورأيت الحاج ميرزا علي فارساً يغير إمام العربة، وكان يهرب من جمعيّتنا وهيئتنا. فقلت لميرزا علي خان أن يَغيرَ ويوقف الحاجَّ، فجاء به، فرأيت المسكين قد نحف وضعف جدّاً من جرّاء هذا المَرض. وقبل الغروب بساعة وصلنا المنزلَ، فاجتزنا خان الحماد بقليل وخيّمنا في وسط الأعشاب. كان الحنظلُ اليومَ كثيراً في الصحراء، وكان ميرزا علي يقطفه، ويقول إنّه من الأدوية التي تستخدم في بعض المعالجات. وقد تغيّر الطقسُ ليلاً، وأمطرت قليلاً. وكان الرعد والبرق شديداً...

رحلة مكة

بقلم
سيف الدولة سلطان محمّد
تصحيح وتعليق
علي أكبر خدايرست
ترجمة
الدكتور عبّاس الترجمان

تفصيل أوضاع مدينة النجف وأحوالها والعمارات والأثاث الراجع إلى حرم الأمير صلوات الله وسلامه عليه

موقع النجف:

مدينة صغيرة، هواؤها أحرُّ من كربلاء وبغداد ولكنّه سالم. أرضها جافّة رمليّة غير مرطوبة، وبعد حفر قليلٍ تصل إلى الحجر، هواؤها قليل الرطوبة بسبب مجاورتها للماء. والنجف في الواقع مدينة مينائيّة، يحوطها الماء من ثلاث جهات: الشمال والشرق والجنوب. وجهة الغرب جافّة. تقع النجف على مرتفع، وإلى جنوب بحيرة تمتلىء من ماء الفرات. محيط هذه البحيرة حوالي خمسَ عشرةَ ساعة على التخمين (١٥٢آ) وما يقع منها في جهة النجف ماؤها راكدٌ كالمستنقع[١]، بسبب أنّ أرض هذه البحيرة مِلحٌ، يميل ماؤها إلى الملوحة. والجهة الشرقيّة منها حيث يجري ويتّصل ماؤها بالفرات فهو عذب. ولهذا يأتون بماء الشرب للنجف من الكوفة، وماء الطبخ والأمور الأخرى يأتي من البحر.

الزراعة والمحصولات الزراعيّة:

إنَّ أرضَ البحر منخفضة جدًّا بالنسبة لأرض النجف، ويظهر النجف من جهة البحر كأنّه جبلٌ عالٍ في ساحل هذا البحر. فيها بعض البساتين التي تحتوي على النخيل والأعناب والرّمان وقليلٌ من التين. والخضروات في الواقع هي حصيلة النجف، وتأتي البقوليّات والخيار والباذنجان والباقلاء من هذه البساتين، وخضرواتها ممتازة من جميع الأنواع، لا سيما الخَسّ، فإنّه هَشٌّ ولطيف ورقيق ولذيذ جدًّا.

---

(١) القصد من المستنقع هو الهور الذي أوضحناه في الهوامش السابقة.

الأحياءُ ومحصولاتها:

تحيط هـذا البحر (١٥٣ب) أحيـاءٌ جيّدة، من جملتهـا: «الرُحْبَـة»، «العِزِّيَّـة»، «السماوة»[١] «والجعّارة». وكل هذه الأحياء زراعيّة. فبطيخ الرحبة والعِزِّيَّة جيّد جدّاً. ولو كانوا يأتون ببذور البّطيخ من أصفهان في كلّ عام، لنتج أفضل من بطّيخ أصفهان بنظر كاتب الحروف وجماعة آخرين، وينتج فيها الرقيّ الجيّد أيضاً.

السماوة والجَعّارة:

اشتهـر أهل السـماوة في جميع العـراق بجمال الصـورة لا سيما نسـاؤهم والجعّارة قرية عـامرة جـدّاً، بساتينهـا ونخيلها كثـيرة، تكثر فيهـا زراعة القمـح والشعير والـرزّ والقطن وكلّ شيء، أكثر ما تحتاجه النجف من الفواكه يأتي من الجعّارة.

ولأجل البنـاء يحفرون الأرض كثيـراً حول هـذا البحر وكـان بناء العـمارات من النورة والحجر والآجر الكبير جدًّا الذي يظهر أحياناً، وأنا بنفسي شاهـدت آجُرَ قـطره بطول ربع متر، ويظهر أن حول هذا المكان كان عامراً جدّاً في قديم الزمان.

قلعة النجف:

كـان بناء قلعـة النجف من قبل المـرحوم (١٥٣آ) محمـد حسـين خـان الصـدر الأصفهاني، وإن كانت القلعة ليست واسعة جـدّاً، ولكنّها حسنـة التشييد، وفي هـذه المدينة مدرسة جيدة من عماراته، والباب الكبير الذي يوصل الإيـوان الذهبي بـالرواق الشريف، والباب الفضيّ الجيّد جدًّا من أعماله، كان ـ رحمه الله ـ رجلاً خيِّراً.

وضعُ القُبَّةِ والصحن الشريف:

كان بناء القبّة المباركة الأولىٰ لهذا الرجل العظيم من قِبَلِ آل بـويه، وقـد أزالوا ذاك البناء في العهد الصفويّ، فإنّ هذه البقعة المباركة وهذا الصحن هو من بناء الشاه عباس الصفوي، وبهندسة الشيخ البهائي، بناء عال رصين جيّد. أصل البقعة المباركة على شكل مرّبع، فيهـا أربعة أمـاكن لجلوس الشاه، والقبّـة المطهّـرة أكثر ارتفـاعاً من

(١) ليست السماوة من ضواحي النجف بل هي بعيدة كلّ البعد عنها. الترجمان.

جميع العتبات المقدّسة. يحيط الرواقُ الحَرَمَ، والصحن الشريف يدور من ثلاث جهات بالرواق، ومن الجهة الغربية يفصل بين الرواق وجدار الصحن ممرٌّ.

بناء الصحن يحتوي على غرفة فوقانيّة وتحتانية من جميع الجهات (١٥٣ب) إنّ الإيوان الكبير الموجود في وسط الجدار الشمالي الواقع إلى جهة الجنوب مع المسجد الصغير الواقع خلف ذلك الإيوان، والتكية الواقعة في الجهة الغربية من الصحن والتي هي بيد البكتاشيين، هي من بنايات آل بويه، وما تبقّى من متعلّقات الصحن هو من الصفويّين.

وفي مقابل الحرم إيوان، وفي زاويتي الإيوان منارتان، إنّ صخور داخل الحرم والرواق سوى الصخور الرخاميّة، وصخور سائر متعلقات الصحن كلها من معادن نفس النجف وهو صخر جيّد، وإنْ لم يكن صلباً. وإنّ ذهب القبّة والإيوان من أعمال نادرشاه[1]. والقاشاني الذي يزيّن جدران الصحن هو من تبرّعات «علي مراد خان زند». والضريح الفضّي هو من أعمال المرحوم أغا محمد خان القاجار. ولمّا كانت أبواب الصحن لم تَكْفِ أيّامَ الزيارات وازدحام الناس، وكان الناس يتحمّلون المشاقَّ للدخول والخروج، ففتحوا باباً جديداً من جهة الصحن الغربيّة بأمر السلطان مجيد خان (١٥٤آ)، ولم يكن هناك أيّ باب. وكان إحدى المنارتين قد تفطّرت، فأُنقِضَتْ بأمر السلطان عبد العزيز خان، وجُدِّد بناؤها. وهناك مدرسة صغيرة في جهة الصحن الشرقيّة كانت من السابق. وتحت قاعة الصحن طابق تحت الأرضِ لِدفن الأموات، ولا يُنْبَشُ كسائر الأماكن المقدسة.

وضع الماءِ:

لما كانَتْ أرضُ النجف مهما حُفِرَت لا يخرج منها الماء، بذل آل بُوَيْه أموالاً طائلة، وأَجْرَوْا قنواتِ الماء من طريق بعيدةٍ تحت الأرض، وآبار النجف التي تستغرق سبعين ذراعاً من الحبال وماؤها مالح، هي نفس قنوات آل بويه التي تجري في جميع بيوت النجف.

---

(١) الترصيع بالمرايا داخل الحرم الشريف، ونقوش سقف القبة بالقاشاني البارز (المعرّق) جيد جداً

وضع داخل الحرم:

في الحرم الشريف مسرجتـان للشمع ذهبيّتان كبيرتان هما من موقـوفات السلطان مجيد خان، وأوقف ناصر الدين شاه للحرم مسرجـتين ذهبيّتين أكـثر قيمةً (١٥٤ب)، وأصغر حجماً من السابقتين. وهناك المعلّقات والقنـاديل وبعض الجـواهر والآلات من الـذهب والفضّة قـد وُضعت في الحرم والضريـح مِن قِبَل جميـع السلاطـين والعظماءِ. آلاف الجواهر وقطع الذهب والفِضّة، والمصاحف الجيّدة جداً من الموقوفـات موجـودة في خزانة الحرم.

عمارات النجف:

بُنِيت دور النجف بـالجّص والآجر، وليست ضيّقـةً كدور كـربـلاء، وإنّمـا هي واسعـةٌ. طوابقهـا تحت الأرض جيّدة. وهنـاك بعض الطوابق تحت الأرض لا يتمكّن الإنسان أن يستقّر فيها بلا غطاء في أيّام الصيف.

سوق المدينة وإنْ كان عربيًّا إلاّ إنّه واسعٌ، وهناك عدد من الخـانات الصغـيرة. وحماماتها غير ممدوحة، وهي لسدّ الحاجة. وقد شيّدت الحكومـات العثمانيّـة قلعةً وداراً للحكـومة (قشله) صغـيرة للجنود المـأمورين هنـاك. والمقاهي بنفس التقـاليد العـربية (١٥٥آ).

السكّان والنفوس ومِهَن الناس:

سكّان المدينة عرب وفرس وقليل من الهنود، يقدّر نفوسها بحـوالي ثلاثـين ألف نسمة، وأهاليها جميلو الصورة عيّـاشون، رحماء وظاهرهم الصلاح. صنـاعتهم حياكـة العباءة، ولديهم الكثير من أجهزة الحياكة، وأكثر أهلها أصحاب بنادق[1].

الحيوانات:

يكـثر في أطراف النجف الغـزال والدُرّاج والقـطا، والسمك الـذي يُصطاد من بحر النجف هو أفضل جميع أقسام أسماك العراق.

(١) جمع بندقية، وهي آلة الصيد، أو القتل.

الواردات ووضع الماء:

يأتي الكثير من بَضَائع الهند وفارس من البصرة إلى النجف عن طريق الماء. وكان كُلٌّ من الشاه عباس والشاه طهماسب الصفويّين قد أوصلَ نهراً من الماء العذب من الفرات إلى أراضي النجف. وبعد مدة انهدم هذان النهران، وانقطع الماء عن النجف، ولكن كليهما موجودان قرب الحِلّة، ولِكلٍّ منهما قرية معتبرة ولها مزارع كثيرة، إحداهما تسمى العباسيّة، والثانية الطهماسيّة، لها سكّان ونخيل وزراعة.

يوجد الدُرُّ في صحراء النجف (١٥٥ب)، وقد شوهد عِدّة مرات أنّ نفسَ هذه الأحجار قد صُقلت وحُكّتْ فصارت عقيقاً ملوّناً، وهذا من بركة صاحب الولاية أنْ يوجدَ كلٌّ شيءٍ في هذه المدينة الصغيرة.

رحلة الامام السيد محسن الأمين (قده)*

---

* هو المرجع الإسلامي الكبير صاحب المواقف الإصلاحية الشجاعة، والإنجازات الاجتماعية والعلمية المتعددة الجوانب. وصاحب المؤلفات التي طبّقت شهرتها الخافقين. ولد سنة ١٨٦٥م في بلدة شقرا في جبل عامل (لبنان) وتوفي سنة ١٩٥٢م في بيروت ودفن في مقام السيدة زينب عليها السلام في ضاحية دمشق.

ومضينا بعد أيام من كربلاء في السيارة قاصدين النجف الأشرف فوصلنا[1] خان الحماد، وهو منتصف الطريق بين كربلاء والنجف كانت تنزله قوافل الزوار التي تقطع المسافة بين البلدين في مرحلتين، والمسافة ١٨ ساعة، وكانت القوافل تمر في طريق أعلى منه وتنزل خانا يسمى (خان أبو فشيقه)، ثم بنى المحسن الشهير، والتاجر الكبير الحاج محمد صالح كُبّة البغدادي خاناً لنزول الزوار تقرباً إلى الله تعالى سمي «خان الحماد» وهجر الطريق السابق وخانه، ثم بنى الشيخ مرتضى الأنصاري، أحد عظماء فقهاء الشيعة المشهورين المتوفي (١٢٨١) خانا بجانب ذلك الخان، ويحيط بالجميع سور واحد، ويدعى الكل بخان الحماد. . (والحماد) هي البرية القاحلة، وبعد استعمال السيارات صار الخان المذكور مخفراً ومقهى قد تمر به السيارات وقد لا تمر.

وبعدما استرحنا قليلاً تابعنا السير متجهين إلى النجف الأشرف[2] وعلى نحو من مسافة ثلاثة فراسخ لاحت لنا القبة الشريفة العلوية كالجبل الشاهق في الجو، تتلألأ على ذهبها الإبريز الناصع أشعة الشمس، وتملأ العيون والقلوب بالأبهة والجلال والخشوع، ففاضت العين دمعا لفرط السرور والفرح، ويا لها نعمة عظمى، هي مشاهدة تلك الأنوار الشريفة بعد أربعة وثلاثين عاماً فأنشأت أقول من قصيدة:

---

(١) كانت هذه الرحلة في سنة ١٣٥٢هـ ١٩٢٢م راجع كتاب (الرحلة العراقية الإيرانية) السيد محسن الأمين من ص ٣٧ إلى ٧٥.

(٢) يأبى على المؤلف تواضعه أن يتحدث عن الاستقبالات الرائعة التي جرت له في كل مكان زاره لا سيما في النجف حيث كان يوم وصوله إليها من أيامها المشهودة. «الناشر»

إلى الجانب الغربي من أرض بابل حنيني وأشواقي وفرط بلابلي
ولي نحو كوفانٍ تباريح وامق وبالنجف الأعلى لبانات آمل
توطنته دهراً وغصن شبيبتي بنيل الأماني ناضر غير ذابل
وفارقتها كرهاً ثلاثين حجة ونيفا فردتني إليها وسائلي

وفيها أقول:

فما هي إلا ساعة إذ بدت لنا يلوح سناها قبة المرتضى علي
تلوح كطود شامخ في ارتفاعه وتبدو كبدرٍ لاح في الأفق كامل
ولما بدت للعين عن بعد غايةٍ أهلّت بدمع كالسحائب هاطل

(مدينة النجف)

النجف بظهر الكوفة كالمسناة، تمنع مسيل الماء أن يعلو الكوفة ومقابرها، وبالقرب من هذا الموضع قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب[1] والنجف هي مدفن مولانا أمير المؤمنين علي عليه السلام عمرت بعد ظهور قبره فيها وسنذكر سبب خفائه وظهوره عند الكلام على الحضرة الشريفة، ومدينة النجف مبنية على مرتفع من الأرض، وارتفاعها ظاهر من جهتي الغرب والشمال ولا يظهر من جهة الشرق لأنه تدريجي أما من جهة الجنوب فلا يظهر فيها ارتفاع أيضاً إما لأنه لا ارتفاع فيها أو لأنه تدريجي.

«سور النجف»

وعليها سور عظيم عال محكم، مبني بالجص والآجرُ، بناه أحد وزراء إيران وهو الحاج محمد حسين خان العلاف الأصفهاني، وزير السلطان فتحعلي شاه القاجاري ابتدأ ببنائه سنة ١٢١٧هـ وانتهى سنة ١٢٢٦هـ وغرم عليه أموالاً عظيمة، وكان قبله على النجف أسوار لم تكن في سعته وعلوه وإحكامه. وللسور ثلاثة أبواب شرقي غربي، وجنوبي غربي، وكان بناؤه ليقيها من الغارات، وقد كان الابتداء به بعد غزو الوهابيين العراق فإنهم غزوا كربلاء وقتلوا أهلها، ونهبوها سنة ١٢١٦، والابتداء

---

(١) معجم البلدان.

ببناء السور الحالي كان سنة ١٢١٧ كما سمعت، وفي أوائل سنة ١٢٢١ غزوا النجف وكان السور الحالي لم يتم بناؤه، لكن يظهر أنه كان سور غيره أضيق منه وأقصر، فكان السبب في وقايتها بهمة علمائها وشجاعة أهلها، يدل على ذلك قول صاحب مفتاح الكرامة في آخر بعض مجلداته أنه في ليلة ٩ صفر سنة ١٢٢١ هجم الوهابية على النجف، حتى أن بعضهم صعد السور فردهم الله تعالى، وهو صريح في وجود سور في ذلك الوقت مع أن السور الحالي لم يكن قد تم.

وقال أيضاً: في سنة ١٢٢٣ هاجم سعود الوهابي النجف بعشرين ألف مقاتل، وكانت النُذُرُ قد جاءت أهلها فخرجوا جميعاً إلى السور ومعهم العلماء، فأتاهم ليلاً فوجدهم على حذر قد أحاطوا بالسور بالبنادق والأطواب فثبتوا له خلف السور وقتل منهم وقتلوا منه ورجع خائباً. وهو أيضاً صريح بوجود السور، مع أن السور الحالي لم يكن قد تم.

وقال إنه في سنة ١٢٢٥ أحاطت الأعراب القائلين بمقالة الوهابي بالنجف وكربلاء، وكانت النجف كأنها في حصار. قال: وفي سنة ١٢٢٦ جاء عسكر الوهابيين إلى النجف وكان أهل النجف كالمحاصرين فدل ذلك على أن الاشتغال ببناء السور الحالي كان في مدة غزو الوهابيين كربلاء والنجف.

(محال النجف)

محال النجف القديمة أربع، العمارة والحويش وأهلهما من (الزكرت) والمشراق والبراق وأهلها من (الشمرت) وحدثت فيها محال بعد الاحتلال خارج السور.

(عدد سكان النجف)

يبلغ عدد سكانها الأصليين ماعدا الغرباء من الطلبة نحو عشرين ألف على التخمين وقد قيل لنا أن عدد سكانها اليوم يبلغ ستين ألفاً.

(الماء في النجف)

كان الماء المستعمل للشرب وغسل الثياب في النجف ينقل من جدول جيء به من أبو صخير (من ناحية الحيرة) ليسقي الأراضي السنية التي اصطفاها السلطان عبد

الحميد مكان البحيرة التي كانت غربي النجف وجفت بقطع الماء عنها، فكان السقاة ينقلون الماء بالقِرَبْ إلى النجف في الأيام التي كنا فيها في النجف نطلب العلم، وكان هذا الجدول في الصيف قد لا يجد السقاة فيه ماء لاستعمال مائه في سقي المزارع فيقع الناس في شدة وتأتي السقاة بالماء من الكوفة فلا يحصل عليه المرء إلا بمشقة مع غلائه المفرط وكان ينقطع في الصيف أيضاً بسبب العواصف التي تحمل الرمال فتسد النهر وفي الشتاء بسبب المطر الذي يهيل الرمل عليه فيطمه فأمر السلطان عبد الحميد بشق جدول آخر للإستسقاء منه خاصة، وتخصيص الجدول القديم لسقي الأراضي السنية فشق هذا الجدول الثاني وجرى فيه الماء، وغُرست على حافتيه الأشجار وبُذِل لحفره من خزينة السلطان عبد الحميد ألف ليرة عثمانية ذهباً، ولإصلاحه وحفظه مائة ليرة في كل سنة، وكان ذلك أثناء وجودنا في النجف لطلب العلم ولكن الجدول الثاني كان يعرض عليه ما يعرض على الأول فتطمه الرياح والأمطار صيفاً وشتاءً، ثم ان الحاج محمد علي الشوشتري المعروف بالحاج رئيس لأنه يلقب (رئيس تجار عربستان) بذل ثلثمائة ألف روبية على أن تصرف في حفر جدول يستمد من الفرات ويصب في محل بحيرة النجف القديمة ويصرف ريعه في سبل الخير وذلك سنة ١٣٤٢هـ وابتدىء بالعمل ثم أهمل وفي سنة١٣٤٦هـ اهتم الحاج آغا محمد البوشهري الملقب معين التجار بأمر الماء فاشترى آلتين رافعتين للماء إحداهما إنكليزية والأخرى ألمانية حتى إذا طرأ عطل على واحدة واحتيج لإصلاحها، كانت الأخرى حاضرة وشاركه في بعض مصارفها الحاج رئيس المقدم الذكر فتم ذلك ووصل الماء إلى النجف وأنيرت الحضرة الشريفة والبلدة بالكهرباء الذي تولده الآلة الرافعة للماء، ووزع الماء بالأنابيب على دور النجف.

«وصف اسحاق الموصلي النجف في شعره»

وفي النجف يقول إسحاق بن ابراهيم الموصلي من قصيدة يمدح بها الواثق أولها:

يا راكب العيس لا تعجل بنا وقف ... نحي داراً لسعدى ثم ننصرف

يقول فيها:

ما أن رأى الناس في سهل ولا جبل ... أصفى هواء ولا أعذى من النجف

كأن تربته مسك يفوح به ... أو عنبر دافه العطار في صَدفِ

حُفّتْ ببر وبحر من جوانبها فالبرُّ في طرف والبحرُ في طرف
وبين ذاك بساتين يسيح بها نهر تجيش مجاري سيله القصفِ
وما يزال نسيم من أيا منه يأتيك منه بريّا روضة أنِفِ
تلقاك منه قبيل الصبح رائحةٌ تشفي السقيم وقد أشفى على التلف
لو حله مدنف يرجو الشفاء به إذاً شفاه من الأسقام والدنف

الحضرة الشريفة العلوية

كان أمير المؤمنين علي عليه السلام قد أوصى أولاده وخواصه بأن يدفن سراً خوفاً على قبره من بني أمية، فحملوه ليلاً ودفنوه في هذا الموضع وبقي قبره مخفياً لا يعرفه غير أولاده وذريتهم وخواص شيعتهم حتى ظهر في زمن المنصور ودل عليه الإمام جعفر الصادق فعرفته الشيعة وزاروه، ثم أظهره الرشيد فعرفه عامة الناس وبنى عليه ثم تتابع البناء عليه كما فصلناه في الجزء الثالث من أعيان الشيعة، إلى أن انتهى إلى البناء الموجود اليوم وهو من بناء الصفوية.

وقد قال بعض العلماء أن في الكوفة قبور عدد كبير من الصحابة لا يعرف لأحدهم قبر إلا قبر علي بن أبي طالب.

والحضرة الشريفة العلوية تقع في وسط البلد وإن كانت المسافة منها إلى آخر البلد قد تختلف وهي بناء مربع يحيط به رواق من جهاته الأربع يحيط بهما صحن من جهاتها الثلاث عدى الجهة الغربية فليس فيها سوى ممر مسقوف ويحيط بالصحن أواوين من الجهات الثلاث المذكورة داخلها حُجر بطبقتين علوية وسفلية، والأواوين داخلها وخارجها كله مرصوف بالكاشي الفاخر الذي فيه أبدع النقش وقد زين أعلاها بالآيات القرآنية الشريفة وكذلك حيطان الحضرة الثلاثة الخارجية. وللحضرة ثلاثة أبواب قبلي مسدود وشمالي وشرقي امامه (طارمة) مفروشة بالبلاط وفوقه إيوان قد كسي بآجر النحاس المذهب المقرنص، والحضرة الشريفة قد زينت بالمرايا وازرت بالبلاط الذي كل بلاطة منه نحو القامة وفرشت أرضها بالبلاط، وكذلك الصحن الشريف كله مؤزر بمثل هذا البلاط، والصحن كله مفروش بالبلاط وكذلك الأواوين وكان

للصحن ثلاثة أبواب شرقي يسمى باب السوق الكبير وشمالي يسمى باب الطوسي وقبلي يسمى باب القبلة ثم أحدث فيه باب رابع غربي ويسمى باب الفرج وجعل أمامه سوق وتنار الحضرة الشريفة اليوم بالكهرباء بواسطة آلة خاصة بعدما كانت تنار بالشموع وفيها شمعدانات كبيرة ضخمة من النحاس تزن أرطالاً كانت معدة لوضع الشموع العسلية ويوجد مثلها وبعددها من شمعدانات الفضة الخالصة كما يوجد شمعدانان كبيران بصنعة بديعة من الفضة ملبسان من أعلاهما وأسفلهما بالذهب الإبريز من وقف السلطان عبد العزيز العثماني وعليهما الطغراء العثمانية باسمه كما يوجد مثلهما في كل من مشهد كربلاء والكاظمية وسامراء والشيخ عبد القادر والأعظمية.

«النجف دار العلم»

والنجف هي دار العلم للشيعة في العراق من نحو مائتي سنة وكانت تشاركها في ذلك كربلاء، وقبل كربلاء كانت دار العلم لهم الحلة من عهد العباسيين وكانت تشاركها في عهد العباسيين في ذلك بغداد ثم انتقلت مدارس العلم من الحلة إلى كربلاء ومن كربلاء إلى النجف.

«مدارس النجف»

وفي النجف عدة مدارس معظمة، منها مدرسة الصدر في السوق الكبير ومدرسة في محلة البراق ومدرسة الشيخ مهدي ومدرسة المعتمد ومدرسة الصحن الشريف ومدرسة الميرزا الشيرازي ومدرسة الميرزا حسين الخليلي ومدرسة الشيخ ملا كاظم الخراساني ومدرسة السيد كاظم اليزدي وغيرها. وهذه المدارس قد كان يسكنها قسم من الطلاب والقسم الأكبر يسكن الدور وهم يتعلمون:

«العلوم التي تعلم في مدارس النجف»

علوم النحو، والصرف، والبيان، والأدب، والمنطق، والحساب، في خلاصة البهائي، والأصول، والفقه، والتفسير والكلام والحكمة العقلية في شرح الباب الحادي عشر، وشرح التجريد للقوشجي، وشرح منظومة السبزواري والإرشادات،

والشفا لابن سينا، وشرح المقاصد، وغيرها، والهيئة، والطب على طريقة اليونان وغير ذلك وكان للشعر والأدب فيها سوق رائج.

«عدد الطلاب في النجف»

بلغ فيها عدد الطلاب اثني عشر ألفاً، ولكن بعد الاحتلال الإنكليزي تناقص عددهم كثيراً حتى أصبح عدد الطلاب للعلوم الدينية اليوم قليلاً جداً وهو يتناقص يوماً فيوماً تناقصاً يخشى أن يشرف منه على الإنقراض إلا إن شاء الله ولله أمر هو بالغه.

«الماء في النجف»

والماء فيها يأتي من الكوفة بواسطة آلتين رافعتين إلى مستودع عال في الكوفة يجري الماء منه بأنابيب على وجه الأرض إلى مستودعين عاليين خارج النجف يصفى فيهما الماء فيعود زلالاً صافياً بعد ما كان يمازجه الطين الأحمر الملازم لماء نهر الفرات ثم يوزع الماء من المستودع على كثير من الدور، وبعض الدور التي لم يتم إيصال الماء إليها تأخذ الماء بواسطة السقاة في القرب كالسابق.

(مكتبات النجف)

في النجف الأشرف كثير من المكتبات المهمة الحاوية لنفائس المخطوطات والمطبوعات وأكثرها يجمعها العلماء في حياتهم وينتهي عمرها بانتهاء أعمارهم.

١ ـ مكتبة الحضرة الشريفة العلوية، وهي أقدم مكتبات النجف وأهمها، كان فيها من نفائس المخطوطات عدد لا يحصى وجاء ذكرها في كثير من المؤلفات واستفاد الناس منها في أعصار متطاولة، ثم اضمحلت بسبب الإهمال وعدم العناية بجعلها في غرفة تحت إشراف المسؤولين، وإحصاء كتبها في دفاتر، وجُعل قيم لها براتب كما يفعل بسائر مكاتب الدنيا التي يراد بقاؤها لانتفاع الناس بها ولكنها بقيت في غرفة مقفلة عرضة للأرضة وغيرها. وكان بعض أصدقاء نقباء الحضرة الشريفة يستعيرون منهم بعضها ويأخذونه إلى دورهم، فقد يرجعونه وقد ينسون إرجاعه أو يتعمدون فيموتون وهو

عنـدهم، وقد أراني بعض ذراري أهـل العلم كتابـاً عنـده بخط العـلامـة الحـلي ومن تأليفه: جزء من المختلف أو المنتهى، لم يبق في ذاكرتي، مفتخراً بذلك وقد علمت بعد ذلـك أن هذا الجـزء كان استعـاره السيد محمـد سعيد الحبـوبي النجفي العالم الشـاعر المشهور من قيم الحضرة الشريفة ومات وهو عنده ثم وقع في يد هذا الرجل.

وقـد بقي في المكتبة الشريفـة عدد صـالح من المخـطوطـات، فسعى الفـاضـل الشيخ محمد السماوي النجفي في نقلها إلى حجرة من حجر الصحن الشريف، وكانت فيها أوراق مبعثرة، فجمع منها عدة كتب ورتبها وكان يرجو أن يتبرع أحد بتجليدها. وقد زرنا هـذه المكتبة الشريفـة ورأينا مـا بقي منها أهمهـا المصاحف الشريفـة، بعضها مكتوب على الرق (الجلد) ومنسوب إلى خطوط الأئمة عليهم السلام وبعضها مكتـوب على ورق من الخشب الرقيق، وبعضها على الـورق، ومنها مصحف منسـوب إلى خط مولانا أمير المؤمنين عليه السلام تاريخ كتـابته سنـة ٤٠ رأيناه فيهـا في هذا السفـر سنة ١٣٥٢هـ. وفيهـا عدة من مؤلفـات عبـد الـرحمن العتـايقي الحـلي، وأظن أنها بخـطه ورأيت فيها كتاباً يحتوي على قصائد لابن أبي الحديد بخطه في مدح خلفاء بني العباس قيل لي أنه طبع في بغداد طبعاً غير جيـد. ومما أخـبرني به الشيـخ محمد رضـا الشبيبي وزير المعارف العـراقية سـابقاً أنـه تكلم مع مـدير الأوقـاف في بغداد في أن يجعـل منه عناية بهذه المكتبة ويشتري لها قسـماً من الكتب، ويجعل لهـا قيماً بمعـاش وتجعل مكتبـة عامة يستفيد منها كل واحد، فأجاب طلبه فلما خابر من لهم الكلمة في النجف لم يقبلوا مخافة تدخل الغير في شؤونهم، وظني أنهم غير مصيبين في ذلك، فوجود مكتبـة يشرف عليها مسؤولون ضامن لبقائها أكثر من وجودها بدون إشراف مسؤول.

٢ ـ مكتبة الحسينية الشوشترية، وهذه الحسينية موجـودة في محلة العمارة، وهي بمنزلة ما يسمونه (التكية) أو (الزاوية)، منسوبة لاسم مـولانا الحسـين بـن علي عليهـما السلام، يقام فيها ذكرى مصابه وتقام فيها صلاة الجماعة والفرادى. وتقام فيها مجالس الفاتحة وغير ذلك من المصالح العامة، وقد بناها جماعة من التجار الشوشتريين فنسبت إليهم. وفيها مكتبة لا بأس بها تحتوي على عدد صالح من الكتب المخطوطة والمطبوعة النفيسة، ومن جملة كتبها كتاب جامع الرواة. وكـان في النجف رجل عـالم لا ولد لـه وقف كتبـه على هـذه المكتبة ووقف داره عليهـا، فسكن الدار شـاب من ذرية السيـد

نعمة الله الشوشتري، وتولى أمر المكتبة ولكن ذلك لا يضمن حياتها وبقاءها ولا يضمن عدم امتداد أيدي السراق إلى كتبها، وقد وقف عليها كتب كثيرة غير كتب ذلك العالم. وقد كنت مدة وجودي في النجف أحضر إليها وأنقل من محتوياتها فأبقى من الصبح إلى الظهر كما مر.

٣ ـ مكتبة الشيخ علي ابن الشيخ محمد رضا من آل الشيخ جعفر صاحب كشف الغطاء، وهي مكتبة جيدة وقد وضعها ولده العلامة الشيخ محمد حسين في حجرة داره، وكان غائباً في إيران عند ورودنا إلى النجف الأشراف في المرة الأولى، وكانت مقفلة ومفتاحها بيد خادمه فطلبنا إليه أن يفتحها لنا لننظرها نظرة متفرج فأجاب ودخلناها مدة يسيرة لم تفدنا شيئاً، ورأينا فيها مؤلف والده الذي أسماه الحصون المنيعة في طبقات الشيعة في تسعة أجزاء كلها مسودات على ورق رقيق بال يصعب الاهتداء إلى شيء من مضامينه.

٤ ـ مكتبة الفاضل الشيخ محمد السماوي النجفي وهي من أجمع مكاتب النجف لنفائس المخطوطات ولصاحبها همة عالية في جمع الكتب واستنساخها وجملة منها نسخها بيده كنا نحضر إليها كل يوم من الكوفة عند إقامتنا بها في الدفعة الثانية، فنبقى بياض اليوم ننقل من محتوياتها، وكان هو عند ورودنا في الدفعة الأولى مقيماً في بغداد، فلما وردناها في الدفعة الثانية كان قد ورد إلى النجف وأقام فيها ومن محتوياتها المخطوطة ديوان السري الرفَّا وديوان عبد المحسن الصوري ونشوة السلافة، ونسمة السحر، نسخ أحد جزأيه بيده والمحيط في اللغة للصاحب نسخ بعضه بيده وغير ذلك.

٥ ـ مكتبة الميرزا حسين النوري الطهراني صاحب مستدركات الوسائل، وهذه كانت حاوية عدداً وافياً من نفائس المخطوطات ونوادرها رأيتها حين إقامتي بالنجف لطلب العلم، وهي موضوعة ضمن صناديق صغار بعض فوق بعض تملأ حجرة كبيرة وهذه كان عمرها مقروناً بعمر صاحبها وبعد وفاته اقتسمها ورثته وباعوها.

٦ ـ مكتبة السيد محمد بن السيد محمد تقي آل بحر العلوم الطباطبائي، كانت مكتبة حافلة بأنواع المؤلفات المخطوطة والمطبوعة وكان حظها حظ سابقتها.

٧ ـ مكتبة ميرزا فتح الله، الملقب بالشيخ شريعة مدار الأصفهاني، وهذه كانت من نفائس المكتبات ولم يكن حظها أسعد من سابقاتها.

٨ ـ مكتبة جمعية الرابطة ومكتبة منتدى النشر وهما في أول نشأتهما ويرجى لهما التقدم.

وهناك مكتبات أخرى يطول الكلام بذكرها.

(شغلنا في النجف)

لم يكن لنا شغل في النجف من يوم ورودنا إلى يوم خروجنا سوى النسخ، والنقل من الكتب التي تصل يدنا إليها مما يدخل في موضوع كتابنا (أعيان الشيعة) كما كنا في بغداد، وربما كنا نذهب في بعض الليالي لرد الزيارة إلى الذين زارونا مما لا بد منه، ثم نعود حتى أنه أصابنا في بعض الأيام حمى وزكام، فلم يمنعنا ذلك من متابعة أعمالنا فكنا نكتب ونحن مضطجعون، وكان دأبنا أن نذهب صباحاً إلى مكتبة الحسينية فننقل من محتوياتها ما هو شرط كتابنا إلى الظهر وهو الوقت الذي تفتح فيه المكتبة فإذا كان الظهر وهو وقت إقفالها خرجنا وصلينا الفرض واشتغلنا بالنسخ في المنزل، إلى الغروب ثم صلينا الفرض وأفطرنا وخرجنا لزيارة الحضرة الشريفة، ثم عدنا إلى المنزل واشتغلنا بالنسخ مع من يساعدنا إلى أن يمضي من الليل ثلاث ساعات أو أربع أو أكثر، ثم ننام إلى السحر فإذا كان السحر اشتغلنا بالكتابة نحو ساعة أو أكثر ثم تسحرنا وخرجنا إلى الحضرة فزرنا وصلينا الصبح وقرأنا ما تيسر من دعاء ثم عدنا إلى المنزل ونمنا قليلاً إلى أن تفتح المكتبة، فنذهب إليها ونبقى إلى الظهر وهكذا لا نتخلف عن ذلك أبداً حتى استنفذنا جميع ما فيها، وكثيراً ما كان يساعدنا على النسخ في الحسينية وخارجها بعض الإخوان، ومضى الكلام على هذه المكتبة عند ذكر مكتبات النجف. ومما اشتغلنا به في النجف تصحيح بعض الكتب المخطوطة التي حصلنا عليها مثل كتاب الفصول المختارة للسيد المرتضى وكتاب معالم العلماء الذي نسخ لنا وكتاب رجال بحر العلوم الذي نسخنا بعضه في جبل عامل، ونسخ لنا الباقي في العراق فاستعرنا نسخة من سلالة بيت العلم والمجد السيد جعفر الطباطبائي وقابلنا نسختنا عليها.

وفي منتهى شهر رمضان خرجنا للاستهلال خارج سور النجف فصعدنا على سطح لبعض الفقراء ممن بنوا خارج السور وجاء صاحب الدار. ورحب بنا وفرش لنا بساطاً عربياً فجلسنا عليه وسألناه عن حاله فقال بكل بشاشة: الحمدلله نحن بخير ونعمة في جوار قبر أمير المؤمنين عليه السلام. وكان قبل غروب الشمس بعض الفسحات في السماء فلما غربت الشمس استولى الغمام على جميع الأفق فبقينا مدة ننتظر زواله فلم يزل حتى يئسنا من رؤية الهلال، وعدنا إلى المنزل ثم علمنا أنه حصلت فرجة في السماء في الموضع الذي كنا نستهل فيه ورآه بعض الناس وجاءت أخبار من الخارج متواترة برؤية الهلال.

«طريفة»

ومما يستطرف من أخبار النجف ما أخبرني به بعض الثقات من أجلاء العلماء، قال: عدت في يوم واحد صديقين لي كانا مريضين: فقال لي أحدهما لما عدته أرأيت كيف تنار الحضرة الشريفة العلوية بالكهرباء فإن هذا مما يسر النفس وإني مسرور لذلك جداً، فقلت له الأمر كذلك. فذهبت من عنده لعيادة الصديق الآخر فبعدما جلست سألته عن حاله فقال: أن المرء في هذه الأيام يود لو كان قد مات قبل سنين، فقلت له لماذا؟ فقال تقول لماذا أليست الكهرباء فوق رأس أمير المؤمنين، فعجبت من التفاوت في العقل بين هذين الرجلين.

(يأجوج ومأجوج)

وجرى يوماً في النجف في مجلس بعض علماء العجم عند زيارتنا له ذكر يأجوج ومأجوج، فقال ربما يسأل سائل فيقول إن الناس اليوم لم تبق بقعة في الأرض إلا وقد عرفوها ودخلوها، فلو كان سد يأجوج ومأجوج والأمة التي وراءه موجودة لعرفوا ذلك ووصلوا إليه ونحن وإن كنا نعلم صدق ذلك بأخبار القرآن إلا أننا نريد دفع هذه الشبهة لو أوردها علينا أحد فقلنا له إن غاية ما يستفاد من القرآن الكريم وجود أمة تسمى يأجوج ومأجوج تفسد فيما يليها من الأرض، وإن ذا القرنين لما بلغ إلى هناك شكا مجاوروها إليه ذلك وسألوه أن يجعل بينهم ردماً فبنى بينهم سداً لم يستطع أولئك

أن يظهروه ولا أن ينقبوه، وأنه إذا كان يوم القيامة دك ذلك السد فيها يدك مما على وجه الأرض. وفي بلاد الصين سد باق إلى اليوم يقال أنه هو سد ذي القرنين وإن أمة الصين هي يأجوج ومأجوج وهي التي كانت تفسد في ذلك الوقت فيما يليها من الأرض فمنعها ذلك السد عن الخروج إلى ما وراءه كما يمنع سور البلد من دخول العدو إليه.

وأما ما يروى من الأقاصيص عن يأجوج ومأجوج فهو من الخرافات التي لا يعول عليها.

ومن شجون الحديث أيضاً، والحديث شجون أنني جئت يوماً عند الفجر لزيارة الحضرة الشريفة فصليت الصبح هناك وزرت ودعوت وخرجت فإذا جمع من العوام مجتمعون في الطارمة التي أمام باب الحضرة الشريفة الشرقي وهناك سيد مكفوف البصر قد جلس على منبر يعظهم بمواعظ مناسبة يجب أن يوعظ العوام بمثلها ويذكر لهم مسائل دينية مما يجب أن يتعلموها، فسررت كثيراً لذلك لأن مثل هذا الوعظ يندر وجوده في النجف أو لا وجود له مع أنه من اللازم المؤكد وجوده دائماً. ولشدة سروري جلست في بعض الأواوين الشرقية بحيث أسمع كلامه وأخرت الذهاب إلى المنزل مع اشتغالي بما لا أريد أن أتعطل عنه دقيقة واحدة، وكان تحت الطارمة في أرض الصحن نساء من العوام مجتمعات لسماع موعظته مستترات أتم الستر، ويفصل بينهن وبين الرجال حاجز حجري فسرني ذلك أيضاً لأن مثل هؤلاء النساء يجب أن يسمعن المواعظ ويتعلمن الأحكام. ولكن لما فرغ الخطيب من موعظته وتعليمه وشرع في ذكر مصيبة الحسين عليه السلام صرخ النساء بأجمعهن صرخة واحدة وتتابع صراخهن بين فترة وفترة، فاشمأزت نفسي عند ذلك وقمت وذهبت وقلت سبحان الله إن هذه العبادة لم يدعها الشيطان حتى أفسدها بصياح هؤلاء النساء الذي هو مستبشع مستهجن مستنكر وهبه ليس محرماً أفليس هو مستهجن مستنكر مستبشع. وأي فائدة دينية أو دنيوية أو اجتماعية تترتب على ذلك وأي نفع يجره إلينا هذا العمل، ولكن القوم قد اعتادوه فلم يستقبحوه (ولكل امرىء من دهره ما تعود) ومن ذا الذي يجسر على أن ينهاهم عنه أو يطمع في أن يسمعوا منه. وسمعت بعد ذلك أن هذا السيد طلبه أهل بغداد إليهم ليكون واعظاً لهم.

رحلة آية الله الشيخ محمد تقي الفقيه*

* أحد فقهاء النجف المعروفين ممن ينتسب إلى أصل لبناني هاجر إلى النجف في سنة ١٣٤٥هـ واشتغل في طلب العلم حوالي أربعين سنة وعاد إلى لبنان في بداية الستينات، وله مؤلفات فقهية استدلالية عديدة وهو اليوم أحد مراجع الشيعة.

رحلة اية الله الشيخ
محمد تقي الفقيه

كانت هجرته إلى العراق بعد أخيه المرحوم العلامة الحجة الشيخ علي الفقيه، وذلك في سنة ١٣٤٥ هـ، وقد كتب يقول:

عندما انتقل الشيخ الوالد (الشيخ يوسف) إلى بيروت في سنة ١٣٤٥هـ، كنت بخدمته ضمن العائلة، فأقام أياماً قليلةً لا أظنها تتجاوز الأسبوعين، وإذا بجملةٍ من الزائرين متوجّهين نحو العراق لزيارة المشاهد المشرفة، من بينهم المرحوم الخال الفاضل التقي ثقة الإسلام الشيخ حسين سليمان (رحمه الله) ومعه ولده العلامة الشيخ سليمان (رحمه الله) وابن أخيه العلامة الشيخ إبراهيم سليمان. فحضر الشيخ الوالد لوداعهم، فلما رأيتهم صعدت إلى السيارة، وركبت بها ولم أنزل، لأنه كان قد بلغني أن أخي يقرأ في الحاشية (حاشية ملّا عبدالله على المنطق) فأخذت أبكي لأنه سبقني في طلب العلم، وخفت أن يسبقني الشيخان من آل سليمان!!

ولا ريب أن في تصرفاتي تلك ضربٌ من ضروب حركات الأطفال. فجعل والدي وأخوالي يمنونني باللحوق بهم في فرصةٍ ثانية، ولكن دون جدوى! فلقد أصريت على موقفي طالباً الذهاب معهم، ولم أكن أفهم آنذاك شروط السفر، ولا أتعقل معنى عدم إمكان السفر بدون جواز قانوني.

لكن الذي أذكره فعلاً، أن أصحاب الشركة (شركة النقل) تعهدوا بأن يدخلونني العراق بدون جواز سفر نظراً لصغر سني.

والتفت إلي السائق وأوصاني أن أقول إذا سئلتُ في المخافر بأني صانع (عامل) سائق السيارة، واتكلنا على الله.

وغادرت السيارة بيروت عصراً متجهةً إلى حلب، وقد كنت حينها أشعر بالابتهاج، والارتياح والغبطة، ولكن حينما اشتد الظلام ولم أعد أرى شيئاً، وقد أمسى كل شيءٍ هادئاً حولنا، بدأ الاستيحاش يهوّم على قلبي ومشاعري، وما عسى أن يفعل طفل في سني آنذاك سوى أن تهيج به الذكريات، فجعلت أتذكر والدي، وأهلي، وأترابي... فانفجرت بالبكاء..! فجعل رفقائي الذين كنت معهم في السيارة يحاولون تهدئتي وإسكاتي، ومنهم: الشيخ نجيب شمس الدين ابن الشيخ علي شمس الدين الشاعر المعروف، والشيخ محمد علي فاضل من بلدة دبعال، والشيخ محمد علي شمس الدين من بلدة عربصاليم، وكلّهم أكبر مني سناً، وكان الشيخ نجيب والشيخ محمد علي يصحب كل منهما زوجته معه.

وصلنا أخيراً إلى مدينة حلب عند الفجر، فخرجت مع بعضهم ورأيت فيها ساحةً واسعةً، ثم ما لبثنا أن ارتحلنا، والذي أتذكره أننا وردنا إلى تدمر، فذهبت مع ابني الخال الشيخ إبراهيم والشيخ سلمان. ونظرنا إلى آثارها.

وكان الشيخ إبراهيم ـ وهو أسن مني وأكثر إدراكاً ـ يحدثني عنها وعن تأريخها.

وبعد ذلك تابعنا سيرنا، فوردنا العراق، ولا أزال أذكر أنني كنت أشكو العطش، وكنت كلما لمحت السراب من بعيد ظننته ماءً، فأطالب به خالي العطوف المرحوم الشيخ حسين سليمان، وهو يعدني به، ولكني لا أحصل عليه، وهكذا انقضى شطر من الطريق، كلما لاح لي السراب يشتد بي العطش، ثم يختفي ذلك السراب... ثم يلوح سرابٌ آخر، وهكذا.!

وأخيراً، وصلنا النجف في ١٧ ربيع الأول سنة ١٣٤٥ هـ وكان عمري يوم دخلتها خمسة عشر سنة وشهرين وعشرين يوماً.

نزلنا عند وصولنا في بيت المرحوم الشيخ خليل الصوري ـ وهو من أبناء عمومة أخوالي ـ وكان يسكن العراق ويقيم في مدينة الكوت، وله فيها منزل، ويقيم في «البغيلة» وله فيها منزل أيضاً، وكان له ولدان، أحدهما: الشيخ محمد حسن، وهو

أكبر مني سناً، والثاني: محمد علي، وهو نظيري في السن، وله عدة بنات، وكانت أمهم تعرف والدتي، فتعطف علينا من أجل ذلك.

«ولمدينة النجف طابع مميز، يلمس ذلك من يعيش فيها، فهي تفترق عن باقي البلدان بمضمونها الفريد، حيث تتمدد فيها حضارات وحضارات، يبدو ذلك جلياً في مدارسها الدينية وحواضرها العمرانية القديمة منها والحديثة، وفي ساكنيها من طلاب العلوم الدينية، والوافدين إليها من الزوار والسيّاح».

«ففيها الهندي، والتركي، والفارسي والروسي، والعربي، والأفغاني.. وو.. يجمعهم في الغالب الزي الواحد - زيّ طلاب العلوم الدينية - مع فارق في لباس الرأس، حيث العمامة إما سوداء، وإما بيضاء، أو لا هذا ولا ذاك - أعني اللّفة الغبانة - كما يسمونها في بلادنا - أو الكشيدة (الطربوش) الأحمر المخصّر بالأخضر أو بالألوان المزركشة التي يغلب عليها اللون الأصفر، وهو سيماء خدم المقام الشريف، أو من ينتسبون إلى الشجرة العلوية المباركة.

كما وأنهم يفترقون عن بعضهم البعض بلغاتهم وعاداتهم وتقاليدهم، بل ومآكلهم، وبذلك تكون النجف أشبه ما تكون، بقطعة فنيّة فريدة استمدت ألوانها وزخارفها من فنون العالم كله.

إن للنجف الأشرف تاريخاً مضيئاً يشع على مدى عشرة قرون خلت، منذ عهد مؤسسها الشيخ الطوسي حتى عصرنا الحاضر.

حين استقرت بنا الإقامة شرعت في دراسة الألفية في ٣ جمادي الأولى سنة ١٣٤٥ وابتدأت في دراسة المغني في شهر ربيع الأول سنة ١٣٤٦ هـ وابتدأت في الحاشية على المنطق في ٥ ربيع الثاني سنة ١٣٤٦ هـ وابتدأت في دراسة «المطوّل» في شوال سنة ١٣٤٦ هـ وابتدأت في البيان منه في ٢٠ محرم سنة ١٣٤٧، وابتدأت في كتاب المعالم في ١٩ جمادي الأولى سنة ١٣٤٧ هـ، ثم رجعت إلى جبل عامل في تلك السنة، بسبب انحراف صحي طرأ عليّ أدى إلى ضعف في المزاج[1]...

---

(١) ثم عاد إلى النجف وقضىٰ فترة طويلة في طلب العلم والتدريس.

رحلة صحفي*

* السيد عبد الرحمن شرف صاحب جريدة السفير المصرية ونشرت رحلته هذه تحت عنوان رحلة في (الشرق المجهول) بالعدد المرقم ٣٠ والمؤرخ ١٨ كانون أول سنة ١٩٢٨م نقلاً عن كتاب مشهد الإمام جـ ١ صفحة ٥٧.

لم يكن في (مدينة النجف) خلال بسط النفوذ التركي عليها رغم جودة هوائها وحسن مناخها أي أثر من آثار الحضارة والعمران وكل ما تمتاز به هذه (المدينة) المقدسة هو وجود ضريح الإمام علي بن أبي طالب فيها وقد عني بتشييد هذا الضريح وتنسيقه وزخرفته في صورة تبهر الألباب وتسبي العقول أشهر مشاهير مهندسي الفرس وكان ذلك تحت أشراف ملوك إيران وأمراء الهند وعظمائهم ولقد زاد في جمال ذلك البناء الفخم بعض سلاطين آل عثمان وحكام العراق أما الضريح فقائم في مقصورة مربعة طول كل منها ثلاثة أذرع بوجه التقريب على ما أذكر.وهكذا ارتفاعه. وهذه المقصورة تعلوها قبة شاهقة عظيمة يزين سقفها نقوش هندسية بديعة، وآيات من الكتاب العزيز وأحاديث نبوية تختص بآل البيت وكلها محلى بالذهب الإبريز ولهذه القبة من الخارج شكل قلّما يوجد له نظير بين قباب الأضرحة والمساجد أيضاً في العالم كله؛ إذ أنها مكسوة بطبقة نحاسية تعلوها طبقة ثانية من الذهب الخالص ويبلغ سمك هذه الطبقة الذهبية ثلاث (مليمترات) على ما أكد لي بعض الفنيين المطلعين على بنائها.

وهكذا شرفات المآذن الكبيرة والمحيطة بالقبة الذهبية فإذا ما أشرقت الشمس بأشعتها على تلكم القبة والمأذنتين فإن الناظر إلى (النجف) يجد وهو على بعد أميال منها بريقاً يأخذ بالأبصار، وتألقاً يشع النور في الفضاء، ويرتفع إلى عنان السماء أما الأموال التي أنفقت في سبيل كساء القبة وحدها بطبقة ذهبية فتقدر بمبالغ طائلة جادت بها نفوس ملوك الفرس وأمراء الهنود وسواهم من أثرياء الشيعة، ويحيط بضريح الإمام علي بن أبي طالب(ع) رواق واسع لطواف الزائرين، ولهذا الطواف وكذا الزيارة نظام ينفذه أناس عديدون وفي الرواق المذكور من الزخرف ونفيس الآثار القيمة ما يدهش العقول

ومدخل الرواق محلى بطبقة من الذهب الإبريز أما بابه فمصنوع من الفضة وحوله فناء واسع يحيط به سور عظيم[1] شيدت إلى جوانبه غرف عديدة خصص بعضها لسكن القائم على صيانة الضريح ورؤية شؤونه والبعض الآخر لتعليم الأطفال وبيع الكتب وغير هذا من المتاجر، ويوصف أمين الضريح (بالكليدار) وهي كلمة فارسية معناها حافظ المفتاح ولا بد أن يكون من الأشراف الذين توارثوا سدانة الضريح ولهذا الأمين نفوذ كبير لدى الخاصة والعامة.

(١) يقصد الصحن الشريف.

رحلة عبد الوهاب عزام*

---

* وهو شخصية تعنىٰ بالفلسفة والتاريخ والأدب حيث حازت على أكثر من شهادة دكتوراه في هذا المجال وقد شغل مناصب دبلوماسية وتوفي سنة ١٩٥٩م.

برحنا كربلاء ـ والساعة خمس من المساء ـ قاصدين النجف الأشرف. فناوحنا الجنوب منحرفين قليلاً إلى الشرق؛ في بيداء جرداء. فبلغنا النجف، والساعة سبع.

والنجف؛ مدينة مسوَّرة. بني سورها ـ أيام ثورة الوهابيين الأولى ـ خيفة على المدينة من عاديتهم.

نزلنا في دار النائب الوجيه عبد الرزاق آل شمسه، فاستقبلنا ـ هناك ـ حاكم البلد (القائمقام) وكثير من العلماء والفضلاء.

ثم سرنا إلى مشهد الإمام علي، والمسجد إحدى آيات البناء عظمة وأبهة ونظاماً.

فيه فناء عظيم، تحيط به أبنية كثيرة رفيعة؛ فيها معاهد للدرس، ومساكن للطلاب والعلماء.

وقد حُدّثت أن طلاب العلم في النجف يزيدون على عشرة آلاف. ولا عجب؛ فهو مشهد تهفو لذكراه أفئدة المسلمين عامة، ولا سيما الشيعة منهم.

يحيط الفناء بمجسد عظيم، يزيغ البصر في جلاله وأبهته. مقدم المسجد كله والمنارتان الشامختان على جانبيه ـ كل هذا مغشى بصفائح الذهب الخالص. ولكن أنّى للداخل ـ إلى حضرة أمير المؤمنين علي ـ عليه السلام ـ أن يعبأ بالذهب والزخرف.

دخلنا إلى المشهد العظيم، وللناس حوله جؤار بالدعاء والقراءة، فأطفنا به في عشية من جلال الموقف، ورهبة الذكرى. ولم يمنعني روعة المقام من تسريح الطرف في

القبة الهائلة، تبهـر الأبصار في حلل من البلور والـذهب. تتدلى منهـا المصابيـح تزري بالتيجان المعلقةهنالك. وقد رأينا تاجين أحدهما فوق المـرقد الشريف، وهـو تاج الشـاه اسماعيل. والآخر في زاوية من القبة؛ يقال إنه تاج نادرشاه، ويقال أنه تاج أحد ملوك الهند.

وفي هذه القبة يقول بعض الناس[١]:

قـبـة المـرتضى عـلي إذا مـا فـضَّلوهـا أقـول بـالـتـفـضـيـل
هي بـاء مقـلوبـة فـوق تلك النـ قـطة المسـتـحـيـلة الـتـأويـل

ثم خـرجنا إلى الـرواق المحيط بالقبـة، فمـررنـا بحجـرة فيهـا قـبر محمـد شـاه القاجاري، عليه صفيحة من المرمر مزينة بنقوش، وصورة مَلَكين ذوي أجنحة يحملان بينهما تاجاً.

ثم خرجنا إلى الصحن، فعرجنا على حجرة في جانب منها مقصورة؛ أخبرنـا أن فيها قبر الشيخ كاظم اليزدي، وابنه، وقـبر أمير رامبـور. ورأينا صـورة الشيخ كـاظم (السيد كاظم اليزدي) وصورة ابنه معلقتين على سياج المقصورة.

ثم تـوجهنا إلى مـدرسة الشيـخ كاظم اليـزدي (السيد كـاظم)، وهبطنـا بعض السراديب هنـاك؛ فإذا طبقـات ثلاث أو أربـع تحت الأرض ينزل إليهـا نحـو خمسـين درجة. وكل طبقة تستمد الهواء من كوة صاعدة إلى ظهر الأرض.

وفي السراديب آبار مفضية إلى قنوات تتشعب تحت المدينة من مجرى واحد.

والسراديب ـ كما رأينا ـ أعجوبة ناطقة بذكاء أهل النجف ونشاطهم وجدهم. وهي مأواهم في الصيف لا محيص لهم منها. فـإن النجف الأشرف في صحراء جـرداء شديدة الحر. فإذا متع النهار هبط الناس جميعاً إلى هـذه السراديب فيجدون بلداً آخـر بارد الهواء وقد حُدِّثنا أن المقيم في السراديب يحتاج أحياناً إلى اتقاء بردهـا بالغـطاء بينما الحر على ظهر الأرض يأخذ بأكظام الناس.

---

(١) هو عبد الباقي العمري. تراجع الترياق الفاروقي ص ١٠٥، وتقويم الرواية:

قـبـة المـرتضى عـلي تـعـالى شـأنها عـن مـوازن وعـديـل
فـعـلى قـبـة الـسـماء إذا مـا فـضـلوهـا أقـول بـالـتـفـضـيـل

ثم شرفنا بزيارة العلّامة المحقق والمجتهد الكبير السيد محمد الحسين آل كاشف الغطاء. وهو أحد المجتهدين الثلاثة في النجف؛ هو عربي، والآخران إيرانيان. فلما استقر بنا المجلس في الطبقة الثانية من داره شرع يحدثنا فعاتب الأستاذ أحمد أمين على ما كتبه عن الشيعة في كتاب «فجر الإسلام» ولامه بما كتب غير راجع إلى أمهات كتب الشيعة. وتلك يقظة من إخواننا جديرة بالإعجاب والثناء، شاهدة باطلاعهم على كل ما يكتب في العالم الإسلامي.

ثم حدّث عن سفره إلى مصر منذ زمن بعيد، وما قال فيها من الشعر.

ثم اقترح عليه بعض الحاضرين أن يشهدنا درساً من دروسه، وألحّوا عليه فأجاب الدعوة إكراماً لضيوفه، جزاه الله خير الجزاء.

جلس الأستاذ العلّامة على كرسي، وأحاط به طلابه ـ وكلهم رجال تلوح عليهم سن الأربعين أو ما يقرب منها، وكلهم وقور في سمته وبزّته ـ تكلّم في مسألة من علم الكلام، مسألة واجب الوجود، ثم ثنى بتفسير الآية: «ولا تؤتوا السفهاء أموالكم. .» والطلبة ـ في أثناء ذلك ـ يسألون ويجادلون قد رفعوا الكلفة بينهم وبين شيخهم. وقد سمعنا المعجب من بيان الأستاذ، وغزارة علمه ـ على قصر الوقت ـ.

ثم نزلنا إلى المكتبة، فاطلعنا على نوادر الكتب المخطوطة. ووددنا لو اتسع الوقت لنقضي اللبانة من هذه المكتبة المعمورة.

ثم رجعنا إلى الأستاذ فشكرناه وودعناه فرحين بما أتيح لنا من السرور والفائدة بلقائه وشهود مجلسه[1].

---

(١) رحلات عبد الوهاب عزام ص ٦٢ ـ ٦٥.

يومان في النجف*

بقلم يوسف هرمز

* مجلة الموسم العدد الخامس صفحة ٥٤.

المرحوم يوسف هرمز، كاتب صحفي، من أبناء (الموصل) الحدباء، وهو صاحب ورئيس تحرير جريدة «صوت الشعب» اليومية السياسية، التي صدرت في بغداد في منتصف الثلاثينيات من هذا القرن، وكان قد طوّف في عدد من المدن والقرى العراقية مسجلاً انطباعاته عنها، ومن الأمكنة التي حظي بزيارتها مدينة النجف الأشرف، وقد استطاع أن يلم بملاحظات عامة عن المدينة كتبها بتجرد وصدق؛ مع أن نظرته لبعض الأمور جاءت قاصرة نظراً لضيق المدة التي قضاها في النجف (كما يذكر ذلك خلال المقال وأنه كان يرجع إلى الكوفة ويقضي ليله هناك) ومع ذلك يقول «نادراً ما يحصل التزاور ليلاً بين السكان» مع أن النجف بلد التزاور والدواوين والندوات والبيوتات المفتوحة ليلاً ونهاراً لمختلف الطبقات.

ومن ذلك دعوته لإنشاء جامعة دينية في النجف مع أن النجف عبارة عن جامعة دينية كبرى تنتشر فيها عشرات المعاهد العلمية عدا عن الجوامع والحسينيات التي تغصّ بحلقات البحث والدراسة، ولعله كان يلّوح بكلامه إلى تقصير الدولة ـ يومذاك ـ بإهمالها تأسيس جامعة رسمية في هذه المدينة، وعلى كل حال فهذه الملاحظات لا تقلل من أهمية الانطباعات المدوّنة هنا عن النجف، وبالرغم من أنها كتبت ببساطة تامة؛ وبالأسلوب الصحفي الذي يلتقط الحدث دون تفاصيل ليدعك تتابع الرحلة بشوق وتطلع، مع هذا فإن هذه الانطباعات دعتنا نستغرق في ذكريات طويلة وجميلة مع أيام النجف الماضية... دورها ومدارسها وسراديبها وكنوزها المخبأة، كما أنها تضعنا أمام حقائق كثيرة كعروبة المدينة الخالصة ـ تابع ذلك خلال النص ـ وحقائق أخرى تذكرنا ـ بألم ومرارة ـ أن الإهمال للنجف قديم وأقدم منه العداء لأسدها الرابض على الذكوات البيض الذي ما برحت ذكراه شوكة في عيون

الظالمين: . فيا (يوسف هرمز) لروحك الطيبة تحية ـ وإن جاءت متأخرة أكثر من نصف قرن لكنها مقبولة في رحاب أبي تراب.

ملاحظة: نُشرت الرحلة على حلقات في جريدة صوت الشعب البغدادية بدءاً بالعدد ٣٦٦ الصادر في ٣ رمضان ١٣٥٤هـ ـ ٢٩ تشرين الثاني ١٩٣٥.

النجف الأشرف:

تدعى مدينة النجف عاصمة العراق العلمية وهي المدينة التي فيها ضريح علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. وأرض النجف مقدسة عند الكثيرين من المسلمين كما أنها محترمة عند العراقيين وغير العراقيين لأنها تضم رفات مئات الألوف من الأعزاء والأحبة ترسل إليها الموتى من أنحاء العراق والبلاد الأجنبية لتستقر في تربتها.

العلماء الأعلام:

والنجف مدينة العلماء الأعلام والفضلاء الكرام من أدباء وشعراء وأهل العلم والفضل من الفقهاء والمجتهدين الذين يشار إليهم بالبنان والخطباء الأعلام ومن مؤلفين ومدرسين وكتّاب أفاضل يعدون بالعشرات بل بالمئات وبهذا الاعتبار فهي قبلة طلبة العلم يأتون إليها من أقصى البلاد.

وفيها مدارس معتبرة أخرجت للمجتمع رجالاً أكفاء وعلماء أذكياء غذوا اللغة العربية وأغنوها بمؤلفات قيمة.

مدارسها:

ونسبة المدرسين والمدارس والمتعلمين «الرجال» فيها إلى الألوية الأخرى أكثر من غيرها وبهذا الاعتبار تحسب عاصمة العلم العراقية.

مدينة النجف:

تترك السيارة أبي صخير متوجهة إلى الشمال الغربي فتأخذ الأرض بالارتفاع رويداً رويداً كأن السائر صاعد في نجد إلى أن يصل النجف الأشرف التي ترتفع ٣٦ متراً عن الكوفة الكائنة على الفرات.

ووراء المدينة البحيرة المعروفة ببحيرة النجف حيث تنخفض الأرض انخفاضاً هو أوطأ من مستوى نهر الفرات الموازي لها.

سور المدينة:

ومدينة النجف محاطة بسور علوّه من ثماني إلى عشرة أمتار مبني بالطابوق والجص حول المدينة من جميع الأطراف، إلاّ طرف «البحر» وفي السور شبه مفاتيل عديدة تشبه بناء باش طانبية عند عين الكبريت في الموصل وفيها نوافذ من فوق بغية الدفاع عن المدينة في حالة الحصار خوفاً من مهاجمة أعراب البادية في سالف الزمان.

البحر:

يقع بحر النجف من جهة الجنوب الغربي من المدينة يبتدىء من نهر الفرات عند أبي صخير، وهي قصبة القضاء المعروف بهذا الإسم، وينتهي فوق المدينة عند كهوف تظهر طبقات الأرض منها. ويغلب على ظني أن هذا البحر حصل هنا بتأثير زلزال انخفضت من جرّائه الأرض فانسابت إليها مياه الفرات فتكونت هذه البحيرة هناك وعرض البحيرة نحو عشرة كيلو مترات. ويقال أنها في سالف الزمان كانت متصلة بالبصرة القديمة فكانت تمخر بين النجف والبصرة السفن الشراعية جيئةً وذهاباً.

دورها وأسواقها:

بيوت مدينة النجف مبنية بالطابوق والجص وهي على الأغلب ذات طابقين وهي ضيقة في الداخل وعميقة ينزل إلى فناء الدار إليها بسلالم وبعضها مساوية للشارع. أما أبواب الدور فصغيرة وضيقة كأنها رتاجٌ أو بوابة صغيرة في باب خان من خنوات بغداد.

أما أسواقها فقليلة بالنسبة إلى المدينة. وفيها سوق طويل مدخله من جهة الشرق ينتهي عند مدخل الصحن.

الكوفة:

وقبل أن أستوفي الكلام عن مدينة النجف أحب أن أذكر شيئاً عن الكوفة لأن

عند وصولي إلى النجف زرت وكيل قائممقام القضاء وكان الوقت عصراً فأخذني معه إلى الكوفة لأبيت هناك ثم أرجع إلى النجف.

والمسافة بين الكوفة والنجف ٧ كيلو مترات فالكوفة على نهر الفرات والنجف في الصحراء بعيدة عن الماء لا يحيط بها غير الرمال.

وبين الكوفة والنجف سكة حديد تسير عليها العربات تسحبها الخيل وطريق آخر للسيارات يستغرق من الوقت ربع ساعة.

جامع الكوفة:

وقبل أن يصل السائر إلى الكوفة من جهة البر يصل إلى الجامع الشهير، جامع الكوفة القديم فهو أعظم جامع رأيته يسع من المصلين أكثر من ثلاثين ألفاً. وهو الجامع الذي صلى فيه مسلم بن عقيل حينما طلبوا إلى الحسين عليه السلام، ليقدم إلى العراق ويتولى الخلافة. ثم نكثوا البيعة معه ووقعت فيه الحوادث المشهورة كما سجلها التاريخ. إلا أن بناء الجامع لا يظهر عليه القدم وقد يكون رمم في أزمان مختلفة. فكأنه الآن حديث العهد ولكن سوية الأرض فيه أخفض من الأرض التي حوله. وهو محاط بجدار عالٍ ومن جميع الأطراف غرف كأنها صوامع الرهبان تبلغ المئات.

تنور الطوفان:

وفي وسط صحن الجامع يوجد غرف تحت الأرض ينزل إليها بالسلالم. وفي أرض هذه الطبقة بئر يدعى التنور يقال إنه فار من الأرض وخرج الماء منه فصار الطوفان المشهور الذي أغرق جميع الأحياء وسلم من بينهم أبونا نوح عليه السلام.

عودة إلى النجف الأشرف:

إن مدينة النجف مدينة إسلامية هامة فيها مرقد بطل العرب والإسلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. وهي المدينة المقدسة التي يؤمها المسلمون من سائر الأقطار كما هي أيضاً موضع تبجيلهم واحترامهم ويمكن اعتبارها مركز الفرات أيضاً لأنها موطن العلماء وكبار رجال الدين تقدم لهم الطاعة ويرجع إليهم في أغلب المهمات المدنية وغيرها من قبل زعماء المنطقة المذكورة.

ويفد إلى النجف طلاب العلم من الأقطار الإسلامية كالهند وإيران والأفغان وغيرها، بالعشرات، من بلدان مختلفة. لأن فيها من العلماء المشاهير المبرزين أمثال الحجة الأكبر الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء. والحجة المجتهد السيد أبو الحسن والحجة العلامة الكبير الشيخ عبد الكريم الجزائري. والعلامة الشيخ عبد الرضا الشيخ راضي. والعلامة الشيخ جواد الجواهري. والحجة الكبير الشيخ هادي كاشف الغطاء والسيد ميرزا علي آغا وغيرهم من الفطاحل الذين لهم منزلة عظيمة في نفوس الملايين من الإسلام وغيرهم.

وتمتاز النجف بالنهضة العلمية والأدبية وبروحها العربية التي لا تشوبها شائبة. وقد كانت أيام الثورة العربية العراقية مرجع الزعماء في المفاوضات والمداولات. وقد حافظت هذه المدينة على بقاء اللغة العربية فيها بعيدة عن الرطانات المختلفة. وفيها بعض المطابع وقد صدر في النجف عدة صحف ومجلات وجرائد سياسية في عهد الإنكليز وقبله. وهي عربية النزعة والإحساس عربية العادات والتقاليد.

جمعيّاتها:

في النجف جمعية الرابطة العلمية الأدبية تضم خيرة رجال البلد وقد اتصلنا بحضرات أعضاء الجمعية المذكورة من زمان فهم أولي الفضل يرجى لسعيهم كل فائدة. وقد زرنا منتدى النشر وتشرفنا بمعرفة العاملين فيه فهم يسعون لإخراج الكتب القيمة منها تفسير القرآن الكريم يقع بعشرة مجلدات. وفي النجف أيضاً فرع لجمعية المنتجات الوطنية.

وبعد أن نصف ما في هذه المدينة من مظاهر العيش والأعمال والمباني وغيرها سوف نذكر ما نراه لازماً لهذه المدينة التي هي محرومة منه في الوقت الحاضر.

مدارس النجف الأشرف:

في النجف مدارس ابتدائية ومدرسة ثانوية كاملة الصفوف فيها ما يقارب ١٥٠ طالباً وعدا المدارس المذكورة يوجد طلبة كثيرون يدرسون العلم على بعض العلماء في مدارس خاصة وبعض هؤلاء يقصدون مدينة النجف من جهات عديدة بعيدة بغية التخرج على أيدي أساتذة قديرين مشهورين.

مدرسة الغري:

في النجف كذلك مدرسة أهلية معتبرة هي مدرسة الغري تأسست منذ ١٣٤٠ هجرية بمساعدة المغفور له جلالة الملك فيصل وكانت موضع رعاية جلالته فكان يزورها كما كان يزور النجف. وهي ابتدائية كاملة فيها من الطلاب ٦٠٠ طالب نصف ما يقارب هذا العدد منهم يدرسون ليلاً ونصفهم نهاراً.

وتدير هذه المدرسة هيئة من مختلف الذوات فيهم أدباء وعلماء وتجار. وعدد أعضاء الهيئة ١٤ عضواً والمدرسة المذكورة تطبق منهاج المعارف في تدريسها إلا أن تدريس الإنكليزية فيها يبتدىء من الصف الثالث إلى باقي الصفوف التالية.



«بعض أعضاء جمعية الرابطة الأدبية في النجف الأشرف حين تأسيسها سنة ١٣٥١هـ ويُرى بينهم: الشيخ محمد علي اليعقوبي والسيد محمود الحبوبي، والشيخ علي البلاغي والسيد عبدالوهاب الصافي».



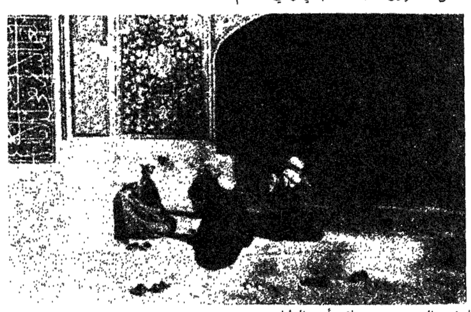
«الهيئة الإدارية لمنتدى النشر في النجف الاشرف: الشيخ محمد رضا المظفر والسيد موسى بحر العلوم والشيخ عبد الهادي حموزي والسيد يوسف الحكيم والسيد محمد علي الحكيم والسيد هادي فياض والشيخ جواد قسام».

المقابر في النجف:

تشغل المقابر في النجف أضعاف مساحة المدينة إذ أنَّها محاطة بالمدافن تقريباً من جميع الجهات إلا الجنوب الغربي حيث يقع منها «البحر» وهذه المدافن ترى للزائر كأنها مدينة قائمة في تلك الأرض ولكنها بالحقيقة مدينة الأموات لا مدينة الأحياء ففي هذه المدافن تقوم قبب وغرف مزخرفة وبعضها محاطة بجدران وكلها مبنية بناية متقنة جيدة بالجص والآجر ولبعض هذه المدافن سراديب عميقة تحت الأرض ينزل إليها بسلالم.



رحلة نقل الجنائز إلى النجف لدفنها في وادي السلام.



جلسة في الصحن ودرس يلقيه أحد العلماء.

النجف مدفن الملوك والأمراء:

ولما كانت مدينة النجف وتربة أرضها مقدسة عند المسلمين صارت مدفناً أيضاً لكثيرين من ملوك المسلمين والأمراء والعظماء وأكابر القوم في بلدان وشعوب نائية بعيدة وعدا هؤلاء ترى الجنائز تدخل المدينة كل يوم بالعشرات من العراق ومن خارج العراق لتدفن في هذه البقعة الشريفة.

الجنائز الوافدة:

ولما تدخل المدينة جنازة من الخارج يحمل الجثمان إلى المرقد ويُطاف به حول الضريح في الصحن ثم يحمل إلى خارج المدينة ليدفن في مقره الأخير.

السراديب في النجف:

يشتد الحر أيام الصيف في النجف بحيث تبلغ الدرجة ٤٤ سنتغراد. فأرض النجف رملية من جميع أطراف المدينة فعدا البحر الذي تكلمنا عنه، وقد جف في السنين الأخيرة إلا قليلاً من الأرض تتجمع فيها مياه الأمطار أو يطفح عليها نهر الفرات إذا كسرت السدود عليه، فعدا ذلك فإنه لا يوجد حول المدينة لا شجرة ولا ساقية ماء ولا عشب الحقل ولا زرع ما. لذلك تشتد الحرارة اشتداداً لا يطاق احتمالها خاصةً أن البيوت مبنية من الجص والطابوق فيضطر الناس إلى طلب البرودة في ذلك القيظ المحرق. ولما كانت الضرورة تفتق الحيلة عمد الناس إلى حفر طبقة في الأرض هي هذه السراديب التي تؤلف أكثر من طبقة واحدة تحت الدور مباشرة[1].

أوصاف السراديب:

هناك ثلاثة أشكال للسراديب، النوع الأول: هو سرداب عادي هو طبقة واحدة أولى تحت أرض البيت أو صحن الدار، والنوع الثاني: يدعى في اصطلاحهم «نيم سن» وهو سرداب ذو طابقين فإن المرء ينزل إلى الطابق الأول وهناك يشاهد بعض الغرف وأماكن أخرى للجلوس والراحة ثم ينزل في درج آخر إلى الطابق الثاني وهو

(١) النجفيون يؤثرون سراديبهم على أمكنة الاصطياف المعروفة في العراق وفي هذا المعنى يقول المرحوم السيد عبد المهدي الأعرجي:

يا أيها المصطاف في شقلاوة إني امرؤ اصطاف في سردابي

أبرد من الطابق الذي فوقه. أما النوع الثالث: فهو سرداب السن. فإن «نيم سن» أو نصف سن هو الطبقة الأولى التي تلي طبيعة الأرض الرملية العادية لأنها تراب عادي. يليها طبقة تراب أصلب يشبه الكبل كما يعرفه الموصليون أو الطين خاوه كما يسميه البغداديون والبصريون. وأما سرداب السن فهو السرداب الذي يحفر أو ينقر عليه بفتح منفذ في طبقة أخرى كيل أو حلان والسقف حلان فيكون السرداب المذكور في الطابق الثالث مما يلي قلب الأرض أو مركزها الباطني.

وعمق هذه السراديب يكون عادة خمسين أو ستين قدماً أو أكثر. فإذا أخذنا صحن الدار قياساً فعمق طبقات الدار التحتانية يكون ضعفي ارتفاع البيت نحو السطح أو ثلاثة أضعاف. وكل ذلك هرباً من الحرارة وطلباً للبرودة أيام الصيف المحرقة.

الآبار:

وتحت هذه الطبقات كلها يحفر بئر في أرض السرداب ويلزم أن يكون قعر البئر تحت مستوى قاع «البحر» والبئر المذكور ينفذ إلى السراديب الثلاثة الكائنة واحد فوق الآخر وبذلك يحصل تبادل بين البئر والسراديب في تحريك الهواء لوجود طبقة منه ساخنة وطبقة باردة الأولى لطاقته والثانية لضغطه فتبرد السراديب كلها ويتنفس الساكنون فيها هواء يتبدل على الدوام.

سراديب النجف والغازات السامة:

كنت قد سمعت بسراديب النجف سابقاً ولما زرت هذه المدينة طلبت من أحد الأصدقاء مشاهدة واحدٍ منها فأشعل الخادم فانوساً ونزل قدامي فنزلت ونزل بعض الرفاق ورائي. ولكن أثناء هذه المشاهدة كان يخطر شيئاً آخر على فكري هو غير ما جئت من أجله. وذلك كنت أفتكر بعمق هذه السراديب وكيفية استخدامها ولكن نفعها في غير غاية الهروب من الحر. إن هذه السراديب هي خير واسطة يلتجىء إليها أهل المدينة إذا اشتبك العراق في حرب مع دولة من الدول وهاجمت تلك الدولة، لا سمح الله، مدن العراق وألقت عليها الغازات السامة. فإن أهل النجف يكونون في مأمن من تأثير هذه الوسائل الجهنمية. وطبعاً هذه السراديب لم تكن بنت هذا الجيل

بل إنها قديمة لم تكن الغاية من وجودها إلا كما ذكرنا آنفاً[1] إلا أنها ذات نفع لا يقدر فيها إذا داهمت طيارات العدو المدن الآمنة في حالة حرب.

سكان النجف:

يبلغ عدد سكان مدينة النجف ٤٥ ألفاً منهم نحو ١٠٠٠٠ إيرانيين بالتجنس وأغلبهم عرب وإن كانوا من تبعة دولة إيران. والذين يتكلمون اللغة الفارسية قليلون.

ومع وجود هذا العدد الكبير الذي يقرب من ربع سكان المدينة فإني لم أر أحداً من الإيرانيين يلبس البرنيطة سوى القنصل الإيراني المقيم في النجف. ويوجد أيضاً غير الإيرانيين في المدينة وهم هنود وأفغانيين وأغلبهم من طلبة العلم.

حالة المدينة ليلاً:

لما كانت مدينة النجف إسلامية مقدسة فهي في جميع مظاهرها وقورة رزينة لا تغشاها جبلة المدن العصرية فإنك لا تسمع فيها صوت الحاكي (المكرافون) ولا راديو ولا غناء ولا آلة طرب أو ما شابه ذلك. ونادراً يحصل التزاور ليلاً بين السكان إلا العلماء أما غير ذلك فإن الدواوين لاستقبال الناس من الزائرين نادرة.

الماء والكهرباء في النجف:

في المدينة مشروع الماء والكهرباء أيضاً وقد قام بهذين المشروعين المفيدين الحيويين رجل من إيران توفي منذ سنوات فأخذ ورثته على عاتقهم بقاء هذا المشروع والصرف عليه من مالهم الخاص والذي يدير المشروع ساكن الآن في طهران فيقوم عنه وكيل في النجف. فالمدينة منارة بالكهرباء ءلا أن الماء المجلوب من نهر الفرات لا يكفي للسكان وبعض المحلات ليس فيها ماء.

---

(١) من أعجب ما رأيت من السراديب السرداب الذي بناه الخليجيّون حكام دهلي وهو عبارة عن نفق طويل جداً ويُنزل إليه من باب عند مسجد قوة الإسلام الشهير بمنارته المعروفة (قطب مينار) قرب نيودلهي الحالية ويتصل بمدينة (اكرا) على بعد ٣٠٠ كيلو متر تقريباً (سعيد).

توسع المدينة:

ذكرنا أن المدينة مسورة بسور مبني من الحجارة والجص وجميع الدور ضمن هذا السور ولضيق البيوت وازدحام السكان فيها أنشأت الحكومة بعض المباني خارج السور كما أحدثت عرصات وعرضتها للبيع فانفسح مجال لبعض الناس أن يشتروا العرصات ويبنوا عليها البيوت فصارت الآن محلة جديدة خارج السور يبلغ عدد دورها نحو ٥٠٠ دارٍ وهي في توسع وازدياد مستمر لأنه يوجد عرصات أخرى تتولى المالية بيعها.

سراي الحكومة:

إن بنايات الحكومة الآن كائنة بين المدافن إلا أن النية منصرفة إلى تشييد سراي للحكومة يتفق وأهمية المدينة. وسوف يباشر فيه عن قريب. كذلك علمت أنه يوجد ناد يعود للحكومة وسوف يفتح عن قريب وذلك لأجل الموظفين وفي المدينة مستشفى. لكن الصحة بنوع خاص جيدة لأن هواء المدينة جاف ناشف ولولا صيفها المحرق لكانت النجف تعد طيبة الهواء.

التجارة والأشغال:

في النجف متعلمون كثيرون إلا أن الأعمال لهؤلاء قليلة وأهل البلدة يتعاطون التجارة والبيع والشراء مع نجد وأهل البادية وغيرهم من المجاورين. والبعض منهم مثرين يستغلون دراهمهم في عقد القروض للمحتاجين من الزراع وغيرهم.

وفي المدينة بعض الصناعات مثل الحياكة وغيرها ففيها أنواع كثيرة يحوك أصحابها العباءات والمناديل الوطنية الجديدة. والنساء يغزلن بالمغزل الصوف لهذا الغرض وكثيراً ما ترى لمة نساء هنا وهناك في الشارع خرجن للجلوس في الشمس أيام الشتاء لضيق الدور للدفء وهن يغزلن الصوف بالمغزل.

وأغلب تجارة البلد الرائجة هي السمر والقهوة وبعضها أموال مهربة يأتي بها الأعراب من جهة البادية.

الأمن في المدينة:

حصلت قبل الآن بعض أعمال الفوضى في المدينة ومنها حدوث بعض سرقات

إلا أن الشرطة كانت شديدة على المجرمين فوقفت على تركيز دعائم الأمن في هذا القضاء حتى قبضت على جميع المجرمين واسترجعت المسروقات التي حدثت قبل شهور حتى أنها ألقت القبض أخيراً على سارق دائرة البريد والمحكمة منذ شهور.

أهالي النجف:

كتبت عن أهل البصرة سابقاً وذكرت أنهم لطاف المعشر سليمي النية دمثي الخلق. وأهل النجف مع كون النجف ليست مثل البصرة في الاختلاط ومحط الراحل والغادي من مختلفي الأجناس والأديان، إلا أن أبناء النجف أناس يأنس المرء فيهم الكرم وسمو الأخلاق. فإنهم متأدبون في كلامهم مع الغريب لهم شرف النفس وهم أصحاب مروءةٍ صادقين متهذبين يغلب عليهم الورع والتقوى والحياء. يستقبلون الغريب باحترام وحشمة وفوق ذلك هم متسامحون إلى حد بعيد.

مرقد الإمام علي:

إن الشيء الذي تفاخر به النجف المدن الأخرى هي وجود هذا المرقد الكريم فيها مرقد الإمام علي(ع) ومن هذا المرقد تستمد تربتها شرفاً رفعها ورفع اسمها بين المدن الإسلامية الأخرى. فرأينا من الواجب وصف هذا المرقد الذي يؤمه المسلمون من أقطار الدنيا للتشرف بزيارته. وذلك كما سمحت لنا الظروف من مشاهدة بعض المظاهر منه وعرفنا قليلاً من السؤال من هذا وذاك.

القبة الذهبية:

يشاهد القادم للنجف القبة الذهبية وهو على بعد عشرات الكيلو مترات تتلألأ في الجو مع منارتين الواحدة من هنا والثانية هنا على جانبي القبة يبلغ قطر القبة لعين الرائي على بعد نحو ٥ مترات في مثل هذا الارتفاع أو أكثر من القاعدة التي يبتدىء بها العقد إلى القمة فكل هذه المسافة مطليّة بذهب خالص يظهر فيها ظهور الآجر المصفوف الواحدة بجانب الأخرى.

كذلك المنارتين (المئذنتين) فهما مطليّتان من تحت أي ما فوق قامة الرجل إلى موقف وقوف المؤذن فما فوق إلى القمة بالذهب الخالص، بشكل الآجر الكاشي ولكن من

ذهب لا من السمنت! وتحت إحدى المنارتين الخزانة التي سنصفها فيما بعد وما تحويه من المجوهرات التي لا تثمن.

وللمرقد هذا أربعة أبواب وأروقة داخل الصحن وغرف ومحل الضريح فكل هذه الجدران مع سقوفها وواجهاتها لا مثيل لها بالزخرفة والنقش البديع وإن كانت القبة والمئذنتان نفيسة بالذهب فإن هذه النقوش لا تقل نفاسةً وروعةً وجلالاً وبهاءاً وتنميقاً وزخرفةً عنها. فهي كلها آية في الفن والجمال. وبجانب المنائر والقبة تقوم ساعة بديعة يسمع منها أهل المدينة الدقات ويعرفون الوقت بواسطتها.

التدريس في الجوامع:

ويبتدىء التدريس في هذا الجامع من أول الليل فيقوم الفقيه أو العالم بإلقاء محاضرة أو تلقين الطالب الدروس الدينية.

ولما كان المرقد الشريف هذا ينتهي في نهاية السوق الذي يشتمل على أهم الحوانيت والمخازن فإن العابر، من أهل المدينة وغيرهم يمر فيه إلى الطرف الثاني. ومن أبواب المرقد يذهب إلى الجهة التي يقصدها من المحلات أو الأسواق الأخرى.

ولا يجوز لغير المسلمين الدخول إلى صحن هذا المرقد أو المرور منه.

أما المساجد الأخرى في المدينة فليست على شيء من الفخامة يستحق الذكر بل أكثرها لا يتفق وعظمة المدينة هذه وسمو مكانتها في قلوب المسلمين.

الكنز الثمين:

سمعت من سائح أميركي زار متحف مصر قال: «إني لم أر في حياتي ذهباً بقدر ما رأيت في متحف مصر بالقاهرة. فهو أغنى متحف بالذهب من جميع المتاحف التي زرتها من متاحف أميركا وأوروبا» فأما من حيث الرؤية والمشاهدة فأظن أن طلاء المنارتين والقبة في النجف بالذهب يزيد هذا على كل مجموعة من الذهب يوجد منها في مكان واحد. ولكن كل هذا الذهب الذي يراه الزائر لا يساوي شيئاً بالنسبة إلى الموجود في الخزانة التي تحت إحدى المنارتين في هذا المرقد على ما روى الذين شاهدوها عندما فتحت منذ أسابيع قليلة.

فإن السيوف والخناجر المرصعة وقناديل وثريات ومجوهرات ثمينة من ياقوت وزمرد ولؤلؤ والماس وفصوص من حجارة كريمة لا تحصى ولا تثمن. وهناك بعض الدُّرر قال أحد الحاضرين أن بعضها بحجم بيضة الحمام، وقد دخل جواهري مع الهيئة التي أُنيطَ بها فتح هذه الخزانة قال: إن بين المجوهرات جواهر لا تثمن لنفاستها وقال آخر إن قطعة واحدة من القطع الثمينة في هذه الخزانة يكفي ثمنها أن يفتح شارع بين النجف وكربلاء يبلط ويقير ويشجر بأشجار على جانبيه وتسقى هذه الأشجار بفتح ساقيتين من الماء على طول هذا الطريق.

ونفاسة هذا الكنز كائنة من الوجهة التاريخية علاوة على ثمن الجواهر فيه. فهناك «بازبند» يقال أنه لنادر شاه ملك العجم فيه ماسة بقدر البندقة كان الشاه يربطه على يده كما كانت عادة بعض الملوك في ذلك الزمن.

وضع الجواهر في متحف:

ويفتكر البعض أن في النية بناء متحف بجانب المرقد توضع هذه المجوهرات فيه وتكون عرضة للمشاهدة للزائرين وذلك قصد الانتفاع منها بهذه الطريقة.

النواقص في مدينة النجف:

بعد أن وصفنا هذه المدينة وصفاً موجزاً نعترف أننا لم نعرف كل ما في المدينة لأن قضاء يومين في مدينة من المدن لا يمكن للمرء أن يلم بجميع نواحي الحياة فيها فكل ما شاهدناهووصفناه كان ظاهراً للعيان ولا يمكن لعابر سبيل أن يلم بكل شيء من الحقائق إلا أننا مع ذلك يمكننا أن نعين بعض الأمور لم نر لها أثراً أو رأيناها ناقصة في مقام المدينة وإليك ما لاحظناه بعد التحري والسؤال.

لما كانت هذه المدينة مقدسة في نظر المسلمين فهي بحاجة إلى إنشاء كلية دينية لطلاب العلم. كما إنها بحاجة إلى فتح مدارس ابتدائية وأولية جديدة وذلك لكثرة الطلاب فيها.

وقد رأيت البلدية فقيرة جداً كما رأيت العناية بنظافة المدينة قليلة أيضاً. إذ أكثر شوارع المدينة ليست نظيفة النظافة المطلوبة فلفقر البلدية أرى من الواجب أن

تساعدها الحكومة مساعدة مالية لتقوم بمشاريع مفيدة. وتحتاج البلدة إلى فتح مستوصف في وسط المحلات ليفي بحاجة السكان.

ليس في النجف مدرسة للبنات:

ومن أعجب الأشياء إننا ننعت النجف الأشرف بعاصمة العراق العلمية بينما ليس فيها مدرسة للبنات! وإذا كان على التقدير الأول أن جميع أهل النجف متعلمون فإنه يبقى فيها ٥٠ بالمئة أميين (أميات).

وقد علمت أن الحكومة سوف تفتح عن قريب مدرسة لبنات الموظفين لأن بعض البنات لهؤلاء يذهبن إلى مدرسة البنات في الكوفة وبعضهن محرومات من المدرسة، وستكون هذه المدرسة مقصورة على بنات الموظفين.

وإننا لا نريد أن نؤاخذ أحداً على رأيه في انتشار العلم فإننا نرى من واجبنا وصف الحالة بكلمة وغض الطرف عما لا يعنينا. وهنا أذكر كلمة بهذا الشأن. أنه لما زرت النعمانية علمت كيفية فتح المدرسة للبنات فيها. ذلك أن مدير الناحية عبد اللطيف بك الأطرقجي سعى بفتح المدرسة للبنات في القصبة ولما فتحت ولم يرسل أحد ابنته من أهل البلدة إلى المدرسة أدخل ابنته وأمر جميع الموظفين أن يرسلوا بناتهم من كاتب وفراش وشرطي وكل من يتقاضى راتباً في الحكومة. فكون من هؤلاء البنات صفوفاً لمدرسة أولية. ولكن لم تمض أيام حتى قام أبناء البلدة يتوسلون لقبول بناتهم في المدرسة المذكورة. وعليه أرى أن الحكومة تظلم الموظفين بحرمان بناتهم من رشف العلم والتهذب في المدارس على أيدي مربيات فاضلات وما عليها إلا فتح مدرسة للبنات بأقرب وقت. وكل يوم يمر من دون وجود هذه المدرسة فهو إهمال بل جناية لا تغتفر.

حاجة المدينة إلى الدعاية:

وإني أرى أن مثل مدينة النجف بحاجة إلى الدعاية. فلو كان جمعيّة مؤلفة من مختلف الطبقات غرضها الاجتماع بالزوار والسياح الأجانب حتى إذا زاروا هذه المدينة وكتبوا عنها تكون كتاباتهم مطابقة للحقيقة وبذلك نفع جزيل للمدينة وسمعة طيبة تكون لها في الخارج مناسبة لمكانتها.

وتحتاج مدرستها الأهلية المسماة بمدرسة الغري إلى مساعدة مالية لفتح صفوف فيها للمتوسطة وإني أوجه الأنظار خاصة أنظار مديرية الأوقاف العامة إلى تعمير بعض المساجد لتكون مناسبة لبلدة عظيمة مقدسة مثل هذه البلدة.

أما تبليط الشوارع فهو أمر واجب إذ ليس في النجف إلا بعض الشوارع الخارجية مبلطة وأما الشوارع الداخلية أو بالأحرى الطرق الضيقة الملتوية فيها فهي في حالة يرثى لها.

وقد أشرنا إلى مشروع الماء والكهرباء فأرى أن لا يبقى هذا المشروع محتكراً بيد الأشخاص بل الأفضل أن تقوم البلدية فيه.

هذا ما نراه لتجاري هذه المدينة المدن العظيمة نسبة إلى مقامها الديني والأدبي في هذا القطر.

رحلة سلطان تابنده شاه*

---

* سلطان حسين تابنده الملقب بـ(رضا علي شاه) بن محمد حسن الملقب بـ(صالح علي شاه) وهو من أقطاب المتصوفة في إيران وقد ترجمه من الفارسية الأستاذ أبو محمد المعدل بعنوان (مذكرات رحلة إلى البلدان العربية).

النجف الأشرف

النجف الأشرف: في تمام الساعة الثانية والنصف من بعد الظهر انطلقنا بصحبة السيد مشير السلطنة والسيد ملك صالحي بسيارة صغيرة قاصدين النجف الأشرف. وفي خان الحماد ـ وهي منطقة صغيرة عامرة تقع في وسط الطريق بين النجف وكربلاء ـ توقفنا مدة نصف ساعة بعدها تابعنا مسيرنا فدخلنا النجف في الرابعة والنصف عصراً.

والنجف الأشرف هي مدفن مولى الموالي الإمام علي عليه السلام ويدعى أحياناً بمشهد الغري. والغري هو الملطخ أو الملوث. وإنما سميت بهذا لأنه يوجد في تلك الأرض القاحلة قبتان مبنيتان على قبرين لمالك وعقيل كانا نديمين لخزيمة الأبرش فقتلا ولطخ قبراهما بالدماء بأمر منه وقد تسمى الغريين أيضاً.

والنجف في اللغة: المكان المرتفع الذي لا يركد فيه ماء، ومدينة النجف هي الآن على أرض مرتفعة لا ينالها السيل وينحدر منها كما قال الإمام علي عليه السلام نفسه في خطبة الشقشقية «ينحدر مني السيل ولا يرقى إلي الطير» ومعناها عند أهل العرفان إن سيل المعرفة ينحدر مني إلى غيري وإن طير الوهم والخيال لا سبيل له إلى مقامي السامي. لكن الظاهر أنه إخبار عن المغيبات فمدفنه في مرتفع لا يناله سيل ولا يقر عليه طير!

يتميز مناخ النجف بأنه حار كثيراً بارد كثيراً في الشتاء حتى بالقياس إلى مدينة الكوفة المجاورة، وذلك أنها تقع في قمة التل وفي أعلى نقطة منه. درجة عرض النجف ٣٢ درجة و ٣ دقائق و ١٩ ثانية شمالاً ودرجة طولها ٤٤ درجة و ١٦ دقيقة و ٣٦ ثانية شرقاً. وتنحرف قبلتها من الجنوب نحو الغرب بإحدى وعشرين درجة و ٤٤ دقيقة و ٤٥ ثانية طبقاً لكتاب معرفة القبلة لمؤلفه المهندس عبد الرزاق خان البغايري وبإحدى وعشرين درجة و٢٩ دقيقة و٤٧ ثانية وفقاً لكتاب «قبلة شناس» أي معرفة القبلة المترجم عن كتاب تحفة الأجلة لمؤلفه الضابط الكابلي.

اكتشف قبر أمير المؤمنين عليه السلام في العام ١٥٥ للهجرة وذلك في عهد هارون الرشيد وقد بنى له الرشيد قبة هناك.

وفي العام ٣٠٦ الهجري بنيت في تلك المنطقة بعض الأبنية بناها عضد الدولة الديلمي ثم اتسع عمران النجف تدريجياً (حتى بلغت ما هي عليه اليوم) ومنذ ذلك الحين والنجف مركز للعلم والعلماء عند الشيعة ولم تزل لحد الآن سائرة على هذا المنوال.
ولحرم الإمام علي عليه السلام المطهر حالة روحية عظيمة وتأثير نفسي عجيب ينجذب إليه كل ذي قلب وقد حصل كثير من الرجال العظماء على مقامات ودرجات رفيعة ببركة مجاورتهم لذلك المشهد المقدس.

وذهبنا بعد دخولنا المدينة إلى دار الشيخ علي شمسه وفقاً لما كنا قد تحدثنا فيه واتفقنا عليه.

الشيخ علي شمسه والشيخ حسن شمسه هما ابنان للمرحوم الشيخ هادي شمسه ويرجع نسبهما كما قالا إلى الشهيد الثاني. أبوهما من خدمة النجف الأشرف وكان أبونا وأفراد عائلتنا وأقرباؤنا يحلون داره وينزلون ضيوفاً عنده، وكان بهم لطيفاً رفيقاً خصوصاً بوالدنا الحاج صالح علي شاه فقد كان يحبه كثيراً، وكان رحمة الله عليه من ذوي النفوذ ويحظى بالإحترام من بين الخدم، وأولاده مثله، فلذا كان نزولنا عندهما فرحبا بنا كثيراً. ويعيش معهما ابنا عمهما الشيخ محمد رضا والشيخ نوري وهما من الناس الطيبين.

وعند الغروب تشرفنا بزيارة الحرم المطهر. وبعد الزيارة والصلاة التقينا ميرزا علي خاموش موظف القنصلية الإيرانية. والسيد خاموش رجل عجوز يبلغ من العمر حوالي السبعين سنة أبوه من يزد وهو من مواليد كربلاء. له عدة سنين يعمل في القنصليات الإيرانية في العتبات المشرفة، قضى مدة في كربلاء، وهو اليوم في قنصلية النجف.

إنتظم في سلك الزهد والتصوف، في عام ١٣٣٧ الهجري نظم الشعر بجودة وله طبيعة مرحة. نظم كتاباً في شرح أحوال سيد الشهداء عليه السلام أسماه «شاهنشاه نامه» أي كتاب ملك الملوك يضم ما يقرب من ستين ألف بيت. كما نظم كتاباً آخر في تفصيل وقائع خلافة الإمام علي عليه السلام أسماه «خلافتنامه» أي كتاب الخلافة ويضم ما يقرب من أربعين ألف بيت. وله غزليات وكتب أخرى مثل «مختار نامه» أي كتاب المختار. وقد ترجم مؤخراً دعاء عرفة لحضرة سيد الشهداء عليه السلام شعراً وأسماه «رازنامه خاموش» أي كتاب السر لخاموش وقد اتفق أن أتمه في يوم عرفه التاسع من ذي الحجة من عام ألف وثلاثمائة وأربعة وستين. وأشعاره على ما يشوبها من نواقص أدبية مقبولة لأنه نظمها عن شوق ومحبة. وله غزليات وأشعار جميلة كثيرة أخرى. يمتاز بالمودة والمحبة وقد ظهر عليه السرور بمحض ملاقاتنا تلك الليلة في الحرم المطهر ولم يبت ليلته تلك حتى جاء لرؤيتنا وكذا فعل في بقية الليالي مدة إقامتنا هناك فكان يأتي عندنا حيث نقيم وكنا نأنس ببعضنا ونطالع معاً بعض الكتب.

ولم يعكر صفونا إلا حال السيد مهدي ملك صالحي الذي ابتلى بالمرض وارتفاع الحرارة من حين قدومنا إلى النجف إلى حين رحيلنا عنها وقد ظل طريح الفراش طيلة تلك المدة. وكنا نصلي صلاتنا في الحرم المطهر.

وفي يوم الثلاثاء صحبنا السيد عبد العلي المعاون أحد عباد الله الزهاد المحبوبين قدم النجف الأشرف للزيارة أيضاً صحبناه إلى القنصلية الإيرانية في النجف الجديدة والتقينا السيد عبد الفاضل الميرظلي بور قنصل إيران هناك وهو من الأمراء من مواليد الكاظميين، يمتاز بأنه رجل فاضل خلوق كثيراً رقيق الطباع احترمنا كثيراً وتعامل معنا في منتهى المحبة واللطف. وتحقق أثناء وجودنا هناك من وجود حضرة آية الله السيد

أبي الحسن الأصفهاني فعلم أنه مسافر إلى كربلاء.

وفي ليلة الأربعاء وافانا الشيخ عبد الرحيم الكنابادي أخو الشيخ الكنابادي[١] أحد القضاة المعروفين المجازين من قبل وزارة العدل ويتولى الآن منصب رئيس العدل في المحافظة التاسعة. وقد بقي معنا حتى الساعة الثانية والنصف ليلاً.

والسيد فيض رجل طيب خلوق متدين فاضل استوطن النجف الأشرف منذ عدة سنين وهو منصرف فيها إلى الدرس والتدريس، وقد تزوج هناك.

وادي السلام

وفي نهار الأربعاء ذهبنا إلى وادي السلام ـ وهي مقبرة كبيرة في أطراف النجف ـ لزيارة أهل القبور.

الوادي لغة: المنخفض الذي يهبط إليه الماء، وأطلق على الصحراء فيها بعد ويستعمل اليوم في بعض الأماكن بمعنى المقبرة.

مقبرة وادي السلام كبيرة جداً يحمل إليها الشيعة جنائزهم من مختلف البقاع وقد ورد في الخبر: أيما مؤمن دفن بكربلاء لم يشهد عذاب القبر. فلذا تجد الجنائز تحمل يومياً من خارج النجف إليها فتدفن هناك.

وقد وردت أخبار أخرى تبين عظم ما لهذه البقعة من الفضل منها ما مضمونه «ما من مؤمن يموت في مكان من العالم إلا حمل الله روحه إلى وادي السلام، وإن وادي السلام بقعة من بقاع الجنة».

وهنا أمرٌ مهم لفت أنظارنا إليه هو أنه قد ورد في الأخبار أنه ينبغي رفع القبر عن الأرض أربع أصابع لا فوق ذلك فما زاد فهو مكروه وكذا التسنيم بأن يجعل لها سنام شبيه بسنام الجمل ولا تسطح وأن لا يبيض وجهها ولا تبنى بالجص والنورة فإن كل ذلك مكروه. لكن جميع القبور في وادي السلام كانت إما متصفة بهذه الصفات الثلاث جميعاً أو بواحدة منها على الأقل. والنجف باعتبارها مركزاً للعلم والعلماء فقد

---

(١) إنتخبه أهالي كناباد ممثلاً عنهم في الدورتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة لمجلس الشورى الوطني. ودع الحياة الفانية في طهران في شهر شوال من العام ١٣٨٩.

كان من المنتظر أن تتقيد بهذه الأمور وترعاها.

والأمر الآخر الذي خطر ببالي هناك هو أني رأيت بعض التجار في النجف وكربلاء لا يمتنعون عن العمل أيام الجمعة مع أنه يوم عطلة وعيد إسلامي يجب تفريغه للعبادة وترك التكسب فيه خصوصاً في كربلاء وإن غالب الدكاكين تبقى مفتوحة وكان الحري بالعلماء والطلبة أن يأمروا الناس بمراعاة ذلك.

وفي مقبرة وادي السلام زرنا قبر هود وصالح الذي اشتهر عنهما أنهما مدفونان هناك ثم تشرفنا بزيارة موضع يعرف بمقام حضرة صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه وقد اشتهر أن السيد بحر العلوم هو الذي أخبر بأن الإمام القائم صلى هناك فصلينا فيه ركعتين. بعدها زرنا مقام سيد الساجدين الإمام زين العابدين عليه السلام. ويبدو أن هذين المقامين اكتشفا من قبل السيد بحر العلوم فقد كان من أهل السير والسلوك والكشف والشهود، فشاهد فيهما روح ذينك العظيمين فحظيا باهتمامه. ثم قرأنا الفاتحة لأهل القبور وعدنا إلى المدينة وصلينا صلاتنا في الحرم المطهر.

الكوفة: وفي صباح اليوم التالي انطلقنا صوب الكوفة، وهي مدينة تاريخية كانت من أهم المدن الإسلامية في القرنين الأول والثاني بناها سعد بن أبي وقاص في عصر الخليفة الثاني معسكراً للجيش الإسلامي لكي يكون قريباً من بلاد إيران. وأخذت بالاتساع شيئاً فشيئاً وازدادت سعة وعظمة حتى بلغت أوجها في عصر أمير المؤمنين علي عليه السلام.

قيل في وجه تسميتها بالكوفة أنها كانت مستديرة الشكل تقريباً، دورها متراصة مضموم بعضها إلى البعض الآخر. وقد ذكروا أن سعد بن أبي وقاص حين أراد بناءها قال لمن كان معه من العسكر تكوفوا في هذا الموضع أي اجتمعوا فيه فسميت بالكوفة وقيل أنهم يسمون الرمل الأحمر بالكوفة وإذ كان فيها كثيراً فقد سموها بهذا الاسم.

بلغت مدينة الكوفة أوج إعمارها في عهد الإمام علي عليه السلام وكانت واسعة مترامية الأطراف حتى أن حسانا البراقي كتب في تاريخ الكوفة يقول: كان طولها ستة عشر ميلاً وثلث الميل وكل ثلاثة أميال فرسخ. جاء في معجم البلدان لياقوت الحموي

إن في الكوفة خمسين ألف دار لربيعة ومضر وأربعة وعشرين ألفاً لسائر قبائل العرب وستة آلاف دار لعرب اليمن.

كانت الكوفة منذ ظهورها على يد سعد إلى زمان زياد بن أبيه تشتمل على سبع محال تعرف كل واحدة منها باسم القبائل التي يسكنها وكانت تتألف من سبعة أفواج من الناس يقال لها الأسباع وقد أدغم بعضها ببعض في عهد زياد بن أبيه وقسمت على أربعة أقسام سموها أرباع وكان غالبية الدور فيها من الخيام ثم بنيت جدرانها من اللبن أيام حكم المغيرة بن شعبة ثم استعمل الطابوق في عهد زياد. وكان يحكمها قبل استقرار علي عليه السلام فيها طبقات العرب العالية وهي عدة من القبائل كانت تتوهم أن لها تفوقاً في العنصر على سائر الناس والقبائل الأخرى. وأولى الطبقات وأرفعها نسبا قبيلة كنانة وبعدها بنو حرث وبنو هون وبنو المصطلق.

تتألف قبيلة كنانة من ثلاث قبائل هي قريش وبنو ليث وبنو عامر، تليها قبيلة جديلة ثم قبائل قضاعة وبجيلة وغسان وقبائل أخرى منها مذحج وحمير وهمدان وتميم ورباب وغيرها. وكانت جميعاً تقطن الكوفة في زمن خلافة الإمام علي عليه السلام وكان فيها عند قدومه إليها ما يقرب من أربعة آلاف من الجند الإيرانيين كانوا قبل الإمام علي عليه السلام ضعفاء أذلاء ومن الطبقة الدانية الثامنة فلما قدمها أمير المؤمنين عليه السلام عاملهم بكل لطف ومحبة وأوكل إلى بعضهم مهام خطيرة وجعلهم في مصاف الطبقات العالية لكن زياد بن أبيه الذي ولي الكوفة بعد ذلك أبعدهم وشردهم وأخلى الكوفة منهم ونقلهم إلى مدن أخرى.

وكانت الكوفة مدينة عامرة ومن أهم مدن العراق حينئذ كما كانت مهمة من الناحية العسكرية أيضاً لأنها تتوسط الطريق بين الحجاز والشام وإيران، فيمكن للجيش المستقر فيها أن يراقب جميع خطوط هذه البلدان من هناك لكن أهميتها تضاءلت بعد أن أحدثت مدن أخرى في أطرافها كبغداد وكربلاء والنجف.

وفي الكوفة كان استقرار الكثير من أجلة صحابة الأئمة عليهم السلام وفقهائهم وفيها ظهر الكثير من حواريي علي عليه السلام والأئمة الأطهار كمالك وميثم التمار وربيع بن خثيم[١] وأصبغ بن نباتة وأبي حمزة الثمالي ومحمد بن مسلم وزرارة بن

(١) خثيم بصيغة التصغير وتقديم الثاء المثلثة على الياء.

أعين ومحمد بن علي المعروف بمؤمن الطاق وحماد بن عيسى وصفوان بن مهران وغيرهم وفيها المسجد الذي كان علي عليه السلام يصلي فيه والذي يدعى اليوم بمسجد الكوفة، وهو من المساجد الإسلامية المقدسة التي يعتقد الشيعة أن المسافر إليه مخير فيه بين الصلاة تماماً أو قصراً كما يفعل في مسجد الحرام والمدينة المنورة والحائر الحسيني، لكن علماء الدين غير راضين عن أهلها لأنهم لا يعملون بالولاية وبالعهد الذي يقطعونه على أنفسهم حتى اشتهر بينهم أن الكوفي لا يوفي وأشهر القبائل المتواجدة اليوم في الكوفة عشيرة بني حسن العظيمة عدداً ونفوذاً.

وفي طريقنا إلى الكوفة عرجنا على مسجد الحنانة، قيل في تسميتها إنه سمع منها صوت حزين وحنين عندما كانت جنازة أمير المؤمنين تمر من هناك. وذكر بعض العلماء أن رأس حضرة سيد الشهداء عليه السلام مدفون هناك وقيل إنهم بيتوا الرأس ليلة في ذلك الموضع وهم يحملونه إلى الكوفة، ثم زرنا قبر كميل بن زياد النخعي من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام الخاصين وكان كاملاً في توحيده وموضع سر الأمير عليه السلام.

وحديث الحقيقة المروي وسؤاله وجواب الإمام عليه السلام فيه خير دليل على عمق بصيرته وكماله. كما أنه كان في غاية الزهد والفقر إلى الله والعبودية له ودعاء كميل المعروف باسمه الذي سمعه من لسان علي عليه السلام وقد أمره بقراءته شاهد حال على فقره إلى الله وعبوديته.

إنتهت إليه إحدى سلاسل الزهد وتعرف هذه السلسلة بالكميلية.

سقي هذا الرجل العظيم كأس الشهادة في العام ٨٣ من الهجرة الشريفة بجرم حبه لعلي عليه السلام وذلك بأمر من الحجاج بن يوسف الثقفي ألد الأعداء لبيت النبوة والرسالة وأشقى سفَّاكٍ على وجه الأرض ولسان حاله يقول:

يقتلوني بذنب حبك وضجة تحيط بي

وأنت أيضاً على حافة السطح تنظر فما أجمل المنظر.

وكان عمره حين قتل تسعين سنة وقد دفن إلى جواره (وفقاً لما نقله البعض في

كتبهم) رشيد الهجري والأحنف بن قيس وهما من أصحاب أمير المؤمنين علي عليه السلام أيضاً.

ثم إنطلقنا إلى مسجد السهلة وقمنا ببعض الآداب والأعمال الخاصة به، يضم مسجد السهلة سبعة مقامات يصلى في كل مقام ركعتان ويدعى بدعاء مستحب وترتيبها كالآتي: المقام الأول مقام إبراهيم، المقام الثاني مقام إدريس، المقام الثالث مقام الخضر، المقام الرابع مقام الصالحين، المقام الخامس مقام حضرة الإمام السجاد عليه السلام، المقام السادس مقام حضرة الإمام الصادق عليه السلام، المقام السابع مقام حضرة صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف ويقع قريباً منه مسجد صعصعة ومسجد زيد وهما من المساجد المقدسة.

مسجد الكوفة:

ثم غادرنا المكان باتجاه مسجد الكوفة وهناك قمنا ببعض الأعمال الخاصة به - يوجد في مسجد الكوفة إثنا عشر مقاماً، يصلى في أغلب المقامات ركعتان وفي بعضها أربع ركعات صلاة مستحبة ثم يقرأ في كل مقام بالدعاء المخصوص به، وترتيب مقاماته كالآتي: المقام الأول مقام إبراهيم والثاني مقام الخضر والثالث مقام حضرة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم والرابع مقام آدم والخامس مقام جبرئيل والسادس مقام السجاد عليه السلام والسابع مقام نوح والثامن المحراب الذي ضرب فيه أمير المؤمنين عليه السلام والتاسع مقام علي عليه السلام وهو موضع كان به باب تتصل بداره عليه السلام أو هو الطريق إلى داره الذي منه يأتي إلى المسجد والعاشر مقام الإمام جعفر الصادق عليه السلام والحادي عشر دكة القضاء وهي موضع مرتفع عن الأرض كان الإمام علي عليه السلام يجلس عليها للقضاء بين الناس في الدعاوي والخصومات الثاني عشر هو بيت الطست حيث جرت إحدى المحاكمات العجيبة لأمير المؤمنين عليه السلام ويعدونها من معجزاته وخلاصتها أن فتاة باكراً كانت قد دخلت في ماء تغتسل فعلقت بها دودة العلق ودخلت جوفها وصارت تمتص دمها ويكبر حجمها فارتفعت بطن الفتاة وكبرت بكبرها فظن إخوتها أن أختهم حامل من طريق غير مشروع ولم ينفع إنكارها وعزموا على قتلها فبلغ خبرها

الأمير صلوات الله عليه فأمر بإحضارها فحضرت عنده وهناك حيث الموضع المعروف ببيت الطست أمر عليه السلام بأن يسدل دون الفتاة ستار وأن تعاينها إحدى القوابل ففعل بها ذلك وبعد المعاينة أخبر بأنها حامل لكن الفتاة أنكرت الأمر تماماً فأمر أن يؤتى بطست مملوء بماء مخلوط بطين من النهر وأمر الفتاة لتجلس فيه فلما شمت دودة العلق رائحة الطين خرجت من جوفها وذهب عنها انتفاخ البطن وزالت الشبهة ـ فلقضائه وإعجازه ذاك ولدفعه الضرر عن تلك الفتاة استحب للزائر أن يصلي هناك ركعتين قربة لله تعالى.

ثم زرنا قبر مسلم بن عقيل الواقع في الجنوب الشرقي من المسجد غير منفصل عنه ثم قبر هاني بن عروة وهو رجل من الشيعة استضاف مسلماً (حين قدم إلى الكوفة موفداً من قبل أبي عبدالله الحسين عليه السلام) قتله ابن زياد ويقع قبره في الصحن الذي فيه مسلم، كما زرنا قبر المختار بن أبي عبيدة الثقفي الذي ثار للإمام الحسين عليه السلام وانتقم من قتلته الواقع في مزار مسلم.

ثم تشرفنا من هناك بزيارة دار علي عليه السلام وتقع في طرف القبلة جوار المسجد وتشتمل على مقطعين المقطع الأول توجد فيه غرفة واحدة تشبه الدهليز قيل إنها كانت مقام الحسنين ومكان غسل فيه الإمام علي عليه السلام وموضع صغير يتصل به فيه كفن عليه السلام. وكانت هذه الأماكن مثاراً للحزن والألم وقد صلينا في كل موضع منها ركعتين.

والمقطع الثاني وهو ما يعرف اليوم بالمقطع الداخلي أصغر فسحة ويشتمل على غرفة صغيرة جداً. ويوجد إلى جوار داره عليه السلام منطقة واسعة وعميقة فيها بعض الآثار من بقايا بناء قديم قيل إنه قصر عبيدالله بن زياد.

ثم زرنا قبر ميثم التمار وكان من خواص أصحاب الإمام علي عليه السلام قتله ابن زياد لحبه وولائه لأمير المؤمنين عليه السلام.

يحيط بالقبر صحن صغير مع ضريح وقبة صغيرة مصنوعة من الكاشي (البلاط) ولكنه مع ذلك ذو روحية عالية وصفاء معنوي كبير يكشف عما للمدفون فيه من روح زكية وقلب مملوء بالوله والمحبة الخالصة.

بعد ذلك دخلنا المدينة فتناولنا طعام الغداء في مقهى عند ضفاف النهر وتجولنا مدة هناك ثم ذهبنا لزيارة مسجد يونس قيل إن النبي يونس عليه السلام مدفون فيه ثم عدنا إلى النجف لكن الذي يبدو لي بعد كون النبي يونس مدفوناً هناك فإنه كان يسكن نينوى قرب مدينة الموصل الحالية والتي وصلت بها فيها بعد. وهناك كان ينفذ واجبه في هداية الناس ومرقده معروف هناك ويحتمل أن هذا الواقع في الكوفة جوار النهر مقام له ومحل عبدالله فيه وفي الصبح من يوم الجمعة ذهبنا وفقاً لموعد مسبق لرؤية الشيخ عبد الرحيم فيض ثم عدنا إلى المنزل عند الساعة العاشرة.

ثم زرنا في الساعة العاشرة والنصف السيد ظلي بور قنصل إيران هناك وابنه وفقاً لموعد اتفقنا عليه فلبث معنا حتى الساعة الثانية عشرة ظهراً وكان معنا السيد خاموش أيضاً فانصرف هو وبقي السيد خاموش معنا على الغداء. ثم انطلقنا في الساعة الثانية والنصف من بعد الظهر بصحبته إلى منزله الواقع في الجديدة في أقصى جنوب المدينة وتمتاز هذه المحلة (الجديدة) باستقامة شوارعها وأزقتها وسعتها. وتقع في القسم الغربي من أسفل المدينة (النزلة) أرض مليئة بأشجار النخيل تبدو رائعة عند النظر إليها من المدينة. فلما خرجنا من منزل السيد خاموش أخذنا نتفرج على تلك المنطقة، وسرنا من هناك حتى بلغنا الحرم المطهر فصلينا هناك.

وفي الطريق أثناء عودتنا من الحرم تعرف علينا خادم من خدمة النجف كان من أصحاب الزهد والتصوف وصاحبني إلى باب المنزل وهناك عرف نفسه فقال أنا سيد عبود ابن المرحوم السيد علي النجفي الحكيم وقد انتضمت في سلك الصوفية وافتخر بذلك وظل معنا حتى الساعة التاسعة مساءاً.

والسيد علي النجفي من الزهاد الطيبين المحبوبين الراسخين، حضر عند الحاج الملا سلطان محمد بن الحاج سلطان علي شاه وكان رجلًا معروفاً بالزهد والتصوف فتعلم منه ذلك فلم يقدر على العيش بين الخدم فترك خدمة الحرم واشتغل بالكسب بيده. وابنه السيد عبود زاهد محبوب أيضاً حتى لقد عرف في أهل النجف خصوصاً بين الخدمة بالزهد والتصوف، ولم أكن أعرفه من قبل حتى جمعنا الله به في هذا المكان، وكان طيلة هذه المدة معنا ولم يتردد يوماً عن خدمتنا ومساعدتنا. كما عرفنا على أخيه الأصغر السيد عباس وهو رجل محبوب جداً يشتغل بتعمير الساعات.

الحلة:

وفي يوم السبت قررنا الذهاب لرؤية مدينة الحلة وآثار بابل عاصمة الكلدانيين ولزيارة قبر النبي ذي الكفل عليه السلام.

آية الله الشيخ عبد الكريم الزنجاني: وفي الساعة السابعة (أي بعد ساعتين من دخول المساء) قمنا بزيارة لآية الله الحاج الشيخ عبد الكريم الزنجاني وهو من عائلة معروفة بالعلم والاجتهاد. كان أبوه وأجداده من المشتهرين المعروفين في زنجان بالزهد والصلاح والعلم والفضل. كانت ولادته في العام ١٣٠٤ الهجري القمري انصرف في زنجان إلى دراسة المعقول والمنقول فأكمل السطوح هناك ثم قدم النجف الأشرف ليشترك في دروس البحث الخارج وأتم دراسته عند كبار الأساتذة أمثال آية الله السيد محمد كاظم اليزدي والسيد محمد الفيروز آبادي وغيرهم. ونال درجة الاجتهاد. ودرس العلوم الفلسفية فأكملها وانصرف لتدريسها في النجف الأشرف[1].

وتنقل في العام ١٣٥٥ الهجري القمري بين عدة بلدان إسلامية بغية إيجاد نحو من التفاهم الحسن بين المجامع الإسلامية ووضع أساس للوحدة بين المسلمين وإزالة الخلافات القائمة بينهم. ولقد ألقى في جميع المناطق التي زارها كلمات حماسية مؤثرة ومحادثات مهمة نالت استحسان مختلف الفئات. وهو يقطن النجف اليوم ويحظى بأهمية كبيرة واهتمام شديد وله رسالة عملية أيضاً. إلا أن البعض لا يرى فيه وجهاً مقبولاً لتدخله في الأمور الاجتماعية ومعاشرته رجال السياسة. وبعض الطلبة وأهل العلم وكثير من الناس يخالفون ذلك ويعتقدون بعدم جواز ذلك لطالب العلم ولذا يرفضه بعض الناس مع أن تدخله في هذه الأمور لم يكن إلا لبيان الأحكام الإسلامية وخدمة المجتمع الديني لا أن له غرضاً سياسياً في ذلك.

وعندما قدمت إليه رحب بي أشد ترحيب فأبلغته سلام وتحيات الوالد السيد صالح علي شاه، وأخبرته أنه يأمل منكم أن تسعوا إلى جمع شتات المسلمين، وتجدوا في إزالة الخلافات والنزاعات بينهم التي تعود إلى أغراض شخصية أغلب الأحيان

---

(١) عندما زرته في رحلتي الثانية للعتبات المقدسة في العام ١٣٦٨ تكرم علي بنسخة من كتاب باللغة العربية ألفه في رحلة له باسم «صفحة من رحلة الإمام الزنجاني» المطبوع في العام ١٣٦٦ هجري قمري وقدمت له بدوري نسخة من كتاب لي باسم «فلسفة فلوطين».

فوافقني على ذلك وقال: أرى أن الفرقة بين المسلمين أمران أحدهما الجهل والآخر دسائس الأجانب وسعيهم بيننا. ولا بد من العمل بجد للقضاء على هذين العاملين ـ اللذين زرعا حالة من سوء الظن والتشتت والنفاق ـ كيما نحصل على الرقي، علينا أن نفعل كما فعلت الهند فإنها لم تنل حظها من الرقي والتطور ما دام الاختلاف الطبقي والخبث المعنوي فيهم والتشتت والفرقة موجودة. فلما زالت هذه الاختلافات والخصومات بما بذله غاندي من سعي قام بناء استقلالهم. والموحدون الرافعون لشعار لا إله إلا الله هم أخوة عامة. لا سيما المعتقدون بأصول المذهب الشيعي وأتباع الأئمة الأثنى عشرية سواء الصوفي منهم وغيره عليهم أن يتحدوا مع بعضهم البعض ويعملوا من أجل نشر الإسلام. وعلى مراجع الدين وأئمة المذاهب الشيعية المختلفة أن يتقاربوا من بعضهم ويزيلوا ما نشب من سوء ظن بينهم ـ بالضبط كما حدث في صدر الإسلام حيث لم تكن خلافات بينهم أصلاً ـ خصوصاً العلماء الذين أدركوا ولا بد ما للاختلافات من آثار سيئة. كما عليهم أن يدعوا الناس إلى الوحدة والاتحاد ورفع الجهل والجهالة وسوء الظن من بعض الفرق ثم راح يمجد جدي الحاج الملا سلطان محمد بن السلطان علي شاه(ره) وأشاد بتفسيره وقال إن على العرفاء أن يتجنبوا المصطلحات والكلمات التي لا يفهمها عامة الناس وكل ما يؤدي إلى الشك فيهم والإيراد عليهم واستبدالها بكلمات ومصطلحات يفهمها العامة.

وتفسير بيان السعادة واجد لهذه الميزة ومشتمل على أحكام الشريعة المقدسة وآداب السير والسلوك. ومن الواجب علينا أن نمجد رجالاً كهؤلاء ونعظمهم.

ثم تحدث في أهمية الفلسفة والعرفان وقال: أغلب العلماء العظام إما كانوا على ارتباط بالحقيقة والعرفان أو في بحث عن الطريق إلى الحق فالسيد بحر العلوم كان من أصحاب السلوك وكذا الشيخ مرتضى الأنصاري كان من مريدي السيد علي الشوشتري وكان يقتبس الفيض منه،والسيد محمد كاظم الطباطبائي الذي كنت تلميذاً له كان تواقاً إلى المعرفة طالباً للحقيقة. وهكذا سائر العلماء الأعاظم كانوا في هذا الطريق ثم تمثل برباعية من الشعر باللغة الفارسية كان قد نظمها مضمونها:

تعلمت علوم الدهر كلها، حتى بلغت من الفضل منزلة ألجمت، فيها أفواه العلماء، فحال ذلك بيني وبين حبيبي وهاآنذا احترق بنار هجره، وقال أيضاً: ضيعنا

عمراً بالكلام والحكمة وانحرفنا مدة وراء الفقه والشريعة فعلمنا ثم أن لا علم ينفع فوجهنا وجوهنا إلى الحق وإدراك الحقيقة.

ثم أوضح لي بعض ما يرتبط بحياته وتحصيله الحوزوي فقال: كنت أتعلم أيام صباي الدروس الحوزوية في زنجان. وعندما بدأت دراسة الفقه والأصول أخبرني أبي برغبته في أن أدرس الفلسفة والحكمة وطلب مني الذهاب إلى السيد الميرزا مجيد خيرة تلامذة أبي الحسن جلوه والتعلم عنده ـ وكانت دراسة الفلسفة يومئذ تثير سخط الناس ونفرتهم ـ فقلت: كيف لي أن أطلب الفلسفة علنا؟ فأوصاني بالذهاب لتحصيلها بعد صلاة الصبح والعودة قبل طلوع الشمس بربع ساعة. ففعلت ذلك أربع سنوات وأكملت دراستي في زنجان.

ثم جرت بيننا أحاديث شتى وطال بنا الكلام ساعة أو يزيد ولم أنصرف عنه إلا عند الساعة الثامنة والربع بعد أن ودعته واستأذنت منه.

آية الله الحاج الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء:

وفي اليوم التالي تشرفنا بزيارة آية الله محمد حسين آل كاشف الغطاء أحد أحفاد المرحوم الشيخ جعفر كاشف الغطاء. له من العمر ثمانون عاماً. ويحظى باهتمام وثقة عموم الناس، ويقلده الكثير من العرب، ويمتاز بسمعة حسنة، ووجه معروف في الأقطار الإسلامية. سافر إلى الدول العربية وقوبل بحفاوة ـ حيث ذهب ـ باعتباره عالم الشيعة. يعتقد بأنه يجب على المسلمين أن يطرحوا خلافاتهم الجانبية جانباً ويتحدوا جميعاً ويزيلوا كل ما يؤدي إلى التمزق وإضعاف الدين. فلما أقبلت عليه ـ وكان قد التقى الوالد من قبل وراسلته أنا أيضاً مراراً ـ رحب بي أشد ترحيب وسألني عن حال الوالد وعن بعض مؤلفات جدي (ره) وأثنى على تفسيره بيان السعادة كثيراً.

وذكرت له أسماء مؤلفاته فقال: ليس عندي منها سوى تفسيره فابعث لي ما تيسر منها. ثم تعرض إلى مسألة المعراج وما كتبه جدي في التفسير في توضيحه فأثنى على طريقته وامتدحه. ثم سألته عن رأيه في شرب الترياك فكان يرى حرمته أيضاً. ثم تلطف علي بإهدائي نسخة من تعليقته على تبصرة العلامة، ونسخة أخرى من كتاب

أصل الشيعة وأصولها الـذي كتبه في الـرد على المعتقـدين بأن مـذهب الشيعة مـذهب مبتدع. كما أذن لي بزيارة مكتبته فشكرته.

ولما أزمعت الانصراف بعث معي بسلام إلى الوالد فسلمت عليه وانصرفت عنه بامتنان.

وذهبت إلى المكتبة فوجدتها كبيرة تضم ـ كما قال ابنه الشيخ عبد الحليم ـ ما يقرب من خمسة آلاف كتاب بعضها خطية قديمة. وقد نظمت جميعاً حسب العلوم التي منها علوم قديمة وأخرى حديثة. وفي مساء ذلك اليـوم زارني الشيخ عبـد الحليم نيابـة عن والده يصحبه خازن المكتبة فتلطفا معي كثيراً.

زيارة قبري المرحومين الشيخ جعفر والشيخ محمد حسن:

وعند خروجنا من عند الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء عرجنا على مقـبرة الشيخ جعفر كاشف الغطاء لتلاوة الفاتحة على قـبره. تقع المقـبرة في موضـع يؤدي إلى المكتبة المذكـورة غير منفصـل عنها. كـانت وفاة الشيـخ جعفر كـاشف الغطاء (ره) في العام ١٢٨٨ هجري قمري.

ثم ذهبنـا منها إلى مقـبرة المرحـوم الشيخ محمـد حسن صـاحب كتـاب جـواهـر الكلام. كان صاحب الجواهر (ره) من أعاظم علماء زمانه وهو عربي النسبـة كان محط عناية واهتمام الجميع خصوصاً العرب وكانوا يقلدونه. تـوفي في شهر شعبـان من العام ١٢٦٦ هجري قمري.

الشيخ الطوسي والشيخ بحر العلوم:

ثم زرنـا قبري الشيـخ الطوسي والسيـد بحر العلوم المـدفونـين في محلة المشراق المعـروفة والأول هـو شيخ الـطائفة محمـد بن الحسن بن علي الـطوسي من أكابـر علماء الإمامية. وهو المقصود حين ترسل كلمة الشيخ في الكتب الفقهية. سكن بغداد مدة. وعندما حـدث الخلاف والنـزاع بين الشيعـة ومخالفيهم في العـام ٤٤٩ هجري قمـري أحرق بيته الواقع في باب الكرخ وضاعت كتبه فقدم النجف وجاور قـبر أمير المؤمنـين عليه السلام اشتغـل بالعلم هنـاك حتى مات في الثـاني والعشرين من محرم الحـرام من العام ٤٦١ هجري قمري.

إلى النجف الأشرف

بقلم وداد سكاكيني*

* باحثة وقاصّة لبنانية حديثة توفيت سنة ١٩٩١م (الموسم العدد ٩، ١٠ مجلد ٣ صفحة ٦٦٧).

لنجف العراق روعة وحرمة جمعتنا بين وقار العلم والعلماء على المصطلح القديم وهيبة[1] الأرض التي حملت تاريخاً دامياً ملفلفاً بالحداد، فإن إمام المروءة والبلاغة في العروبة والإسلام علياً بن أبي طالب قد رقد في ثرى هذه البلدة مطعوناً بغدر لعين يتجافى القلم عن ذكره لئلا يضاف إلى ذكر الإمام الشهيد.

ولقد اتجهنا إلى هذه البلدة على شوق ولهفة، بدعوة من المحافظ الفاضل بعد أن مررنا بالحلة التي وصفها الشاعر الفارسي صفي الدين متغنياً بها:

من لم تـر الحلة الـفيـحـاء مقـلتـه فـإنه في انقضـاء العمـر مـغبـون

كنت في الطريق أردد بيني وبين نفسي أبياتاً لهذا الشاعر، شاعت في بلاد العرب وعلى ألسنة الكبار والصغار في الهبات التحررية والوطنية، لأنها صورت سجايا العرب ونضالهم وطبيعتهم واعطت كل صفة لـوناً، ولم يكن صفي الـدين يدري أن مستقبـلاً كبيـراً سيطل على الأمة العربية في القرن العشرين تتخذ فيه تلك الألوان رمزاً لأعلام الوطن والسيادة وهي الأسود والأخضر والأبيض والأحمر في قول الشاعر:

بيض صنـائـعنـا خضر مـرابـعنـا سـود وقـائعنـا حمـر مـواضينـا

ومضينـا إلى النجف يحدونـا شوق إلى إمـام العرب الـذي طبع لغتهم بـطوابـع بلاغته وكان الفتى الأول في الإسلام وأقرب الناس إلى رسوله نسباً وعلماً وجهاداً.

وعند مدخل النجف تلقتنا من بعيد لافتة للنظر بضرورة الحجاب للنسـاء، فإن التبرج والسفور لا يسمح بها للغريبات والمقيمات على السـواء، فدارت العـباءات على

---

(١) من كتاب «روعة بغداد» لصاحبة المقال وقد أنجزت تأليفه وستقدمه للمطبعة.

المدعوات قبل أن نقترب من جامع الإمام ودخلنا بخشوع وصمت ساحة واسعة تحيط بها أبنية عديدة وفي المشهد منارتان شامختان على جانبي سطحه وقد غشتهما صفائح من الذهب رقاق متوهجة وأبواب المسجد مصفحة بالذهب ومن أعلى السقوف تدلت المصابيح والثريات وفوق المرقد وفي زواياه تيجان لملوك وكبراء من الهند وفارس، وعلى الحيطان نفائس السجاد والألطاف من هدايا المعتزين بحرمة المقام.

والأقفاص المحيطة بضريح الإمام ومراقد آل البيت قد صنعت قضبانها ومشابكها من الفضة وبعضها مطلي بالذهب، وأي زائر عربي لهذه المشاهد لا بد أن يعود بالخاطر من فوره إلى تاريخ أهلها الذي ضمتهم من الصالحين والشهداء فتأخذه الروعة من هول حوادثهم ونكباتهم لا مما يبهره من فخامة الزينة وبريق الطلاء والقناديل، وزخرف القاشاني والخزف وغيره مما يدهش له الأجنبي الذي تتاح له الزيارة فيعجب لتألق المرايا والكريستال الذي يتلألأ في السقف ويطيل النظر إلى المآذن والقباب دون أن يتسلل بشعوره ومحبته إلى هيبة الراقدين من آل البيت والصالحين.

وأما الوقار العلمي الذي شاع في النجف فيتجلى في المعاهد والحلقات الدراسية ودور المعرفة والعبادة، وهي عديدة مشهورة.

ولقد كانت فكرة التحصيل والتعليم، في المساجد الجامعة معروفة منذ أيام الأمويين والعباسيين، فلما استشهد الإمام علي وأنزل في مرقده الأخير حيث ضمه هذا المقام الكريم كان بصاحبه رمزاً للعلم والتحصيل والعكوف على البحث والتأليف.

ومن أولى من إمام البلغاء والعلماء وكان باباً لمدينة العلم كما جاء في القول المأثور بأن يكون مقامه النور الفكري والشوري الذي شع في أرجاء العرب والإسلام حتى غدت مدينة النجف منارة للثقافة الإسلامية في الحديث والفقه وأصوله ومدرسة كبرى للعربية في قواعدها وفلسفتها وأدبها وبيانها.

وكان حب الإمام والتعلق بمآثره وفضله حافزاً قوياً في شيوع الحياة العلمية ومجاورة المقام الذي يشد شيعته وأحبابه إليه بالدراسة والتمكن من المعرفة التي أحاط بها الإمام فأقيمت الأبنية حول مرقده ودارت الحلقات التي جمعت طلاب العلم حول العلماء الذين وهبوا حياتهم وجهادهم للعقيدة التي حملت النور والإيمان وألّفت بين

القلوب وكان تمكنهم من العربية والفقه الإسلامي يستهوي النفوس، فأقبل عليهم كل ظامىء للمعرفة تواق لبلاغة الإمام وبيانه ومناقبه.

وتاريخ المجاورة العلمية في هذا الشعاع الإسلامي الكبير، يرجع إلى عصر بني العباس ثم بني بويه، فقد نهض بعض الخلفاء والكبراء من العراق وفارس بالبناء والتجديد لهذا المعبد الذي أنشئت حوله المساجد والمعاهد وزوايا الصوفية للشيعة وحلقات المدرسين.

وكان عضد الدولة بن بويه الذي حكم فارس وملك الموصل وبلاد الجزيرة العربية وأول من لقب في الإسلام شاهنشاه يرعى هذه الحلقات العلمية حول المشهد ويأمر بتوزيع المال على الطلاب والفقهاء من الفقراء والمحرومين، وقد لمع اسم كبير العلماء في ذلك الحين الشيخ الطوسي الذي درس على السيد المرتضى صاحب الأمالي، وكان المرتضى يجري عليه معاشاً شهرياً كما يجري على تلاميذه كل عام.

ولهذا الرائد الكبير مراجع قيمة في التشريع الإسلامي ومؤلفات يعود إليها الفقهاء والعلماء في التدريس والتصنيف.

ولم يقتصر المؤلفون من علماء النجف وفقهائها على كتب التشريع والتفسير وإنما كتبوا في قواعد العربية وخصائصها وفلسفتها، وقدموا للقراء والطلاب مؤلفات عديدة في الأدب والبيان والأصول.

وكانت معاهد النجف تتسع وتتجدد على ترادف الزمان وبظهور السراة والحكام الذين بذلوا الغالي والنفيس لهذا المعبد الكبير الذي غدا محجة للقريب والبعيد بل تحويل الجامع إلى جامعة علمية أخذت تؤدي رسالتها على طريقة أهلها لأبناء العراق وغيرهم من الشيعة، فكانوا يأتونها من إيران والشام ويتجه إليها طلبة العلم من جبل عامل في لبنان.

والدراسة في النجف الأشرف مفتحة الأبواب متعددة الحلقات يمضي الطالب فيها سنين طوالاً دون أن تلاحقه قيود أو حدود عرفت بها الجامعات الدينية والمدنية في زماننا.

وكثير من الموهوبين في الأدب واللغة والمتمكنين من الفقه والتفسير والأصول لا

يقنعون بأعوام محددة يقضونها في ظلال النجف وبين أيدي الأساتذة الذين تلقوا عنهم ما حببهم بالدراسة والتحصيل.

وطريقة المجاورة الطويلة والقصيرة تتجلى في سبيل العلم وحب الإمام الذي كان في مقامه شعاعاً للحكمة والبلاغة والصبر على التحصيل والجهاد.

وقد خرّج النجف طوائف من أعلام العربية والفقه والبيان حملوا رسالته في أرجاء بلادهم وعاد منهم الذين اغتربوا من آفاق بعيدة مزودين خير زاد من الثقافة الإسلامية والعربية فكانوا في المدن والقرى مشاعل هداية وتبصير وتعليم.

وقد انطلقت شعلة بعد شعلة من صوب النجف وأضاءت في دمشق وبيروت وجبل عامل في جنوبي لبنان، متجلية في المجتهد الأكبر السيد محسن الأمين ذي المآثر العديدة في هذه البلاد ومن قبل في العلامة السيد حسن يوسف مؤسس المدرسة العاملية في النبطية حيث تخرج على يديه كثير من العلماء، ولعل جبل عامل في لبنان أكثر البلاد الإسلامية اتصالاً بالنجف، فإن أعلام الفقه والفكر والأدب من العامليين قد خرّجتهم الجامعة النجفية وزودتهم برسالتها ومعرفتها، فكان منهم الشعراء والفقهاء والكتاب من آل صادق وشرف الدين ومروة ومغنية والأمين وشرارة والفقيه والزين وغيرهم.

ولو كتب للنجف أن يمتد ظله على آفاق أبعد من إيران ولبنان وغيرهما من الأقطار الإسلامية والعربية لكان لعلمائه وثقافتهم ومؤلفاتهم أثر يترامى عبر الحدود التي انحصرت في آفاقها، ولا بد أن يكون المسؤولون عن معاهد النجف وجامعتها قد أدخلوا بعض التطور والتجديد على الدراسة والتأليف كما صنع الأزهر في مصر ومن أولى منهم بالعمل على التقريب بين المذاهب وتصفية التقاليد مما علق بها من التعصب القديم.

على أن المتفوقين من الكتاب والمحققين والشعراء الذين أنجبهم النجف وجددوا ثقافتهم بما أدخلوا عليها من الفكر العالمي الحديث، قد عرفتهم الصحافة العربية بآثارهم التي قيّض لها أن تنطلق من أرجائهم وتأخذ سبيلها إلى القراء في بعض البلاد العربية.

وما كان عجبنا لينتهي حين استمعنا لشعراء من النجف في مؤتمر الأدباءَ كانوا أبرز المتفوقين في المهرجان شعراً مطبوعاً وتعبيراً مكيناً وإلقاء جميلاً باللهجة العراقية المحببة، منهم الأستاذان مصطفى جمال الدين وأحمد الوائلي.

وكانت زيارتنا للنجف أشبه بمظاهرة علمية تمثلت فيها وفادة الفكر للفكر وحفاوة الأديب بالأديب وقد رافقتها عناية الحكومة العراقية بالأدباء العرب والمفكرين في حقولها اليومية وموائدها السخية التي أعادت إلى الأذهان ذكرى الجفان العربية والقصاع التي كان يغالي بها بنو النجار أخوال الرسول «ص» في المدينة المنورة.

ومهما أطلت الكلام على النجف وروعة مجاليه ومعاهده، فإن وراء الكلام نبعاً لا يغيض لدى الأحباب، وكيف يغيض في النجف الأشرف وفيها كل ما يوحي بالأدب والحكمة ويشيع التجلة والروعة، وقد عرفنا من بعيد بيوتها العلمية التقليدية كابراً عن كابر كاشف الغطاء والجواهري والشبيبي والحبوبي والشرقي وبحر العلوم وغيرهم ممن أنبتت بيوتهم مواهب في الشعر والنثر وتوارثت الأصالة والجزالة في التعبير والتفكير، وفي أكثر البيوت العلمية النجفية مكتبات كبرى فيها المخطوط والمطبوع بالمئات والألوف.

على أن المتحدث بروعة النجف وتأثيرها في الحياة العلمية والأدبية ينبغي له أن لا ينسى التنويه بوطنية النجفيين وزعمائهم في الثورة على الاحتلال الأجنبي، وجلهم من العلماء الذين كرموا أنفسهم ووطنهم بالجهاد من أجله ولم يتخذوا العلم وسيلة للمكاسب والظهور.

ولولا الشوق إلى مقام الحسين بطل كربلاء لطال استماعنا للشعر والبيان في حفل النجف وعلمائه الكرام ولامتد تطوافنا في بعض الأسواق المسقوفة والمكتبات الحافلة، وقد تركنا النجف الأشرف معتزين بزيارة الإمام صاحب المقام الذي عزز مكانتها وأضفى عليها روعة من مجده وتقواه.

رحلة
الشيخ محمد مرعي الأنطاكي*

---

* ولد سنة ١٣١٤هـ في قرية من قرى أنطاكية، ثم درس في الأزهر ونال شهادات راقيـة وعاد إلى بـلاده، ثم عين قاضي القضاة. وقد أخذنا رحلته هذه من كتابه لماذا اخترت مذهب الشيعة ص٣٨.

مدينة النجف الأشرف

ثم عرجت على النجف الأشرف وكنت فيها تحت رعاية سيدنا ومولانا المفدى آية الله العظمى وحجته الكبرى المرجع الديني العظيم حامي الشيعة ومحيي الشريعة الإمام المجاهد سيد الطائفة السيد المحسن الحكيم الطباطبائي دام ظله الظليل[1].

وقد اجتمعنا مدّة إقامتنا في النجف الأشرف (جامعة العلوم الإسلامية الكبرى) بطائفة كبيرة من أعلامه الأعاظم أئمة المجتهدين ورجال العلم والدين، منهم سماحة المرجع الديني الكبير فقيه أهل البيت وهاديهم آية الله العظمى وحجته الكبرى الإمام المجاهد السيد مرزه عبدالهادي الشيرازي؛ وسماحة المجتهد الكبير والمرجع الشهير آية الله العظمى السيد محمود الشاهرودي، وسماحة المجتهد الكبير والمرجع الشهير آية الله العظمى الإمام المجاهد السيد أبو القاسم الخوئي، وسماحة المجتهد الكبير والمرجع الشهير آية الله العظمى الإمام السيد الحسين الحمامي، وسماحة المجتهد الكبير والمرجع الشهير آية الله العظمى السيد مرزه آغا الإصطهباناتي، وسماحة المجتهد الكبير والمرجع الشهير الإمام المجاهد الشيخ محمد الحسين كاشف العطاء وسماحة المرجع العظيم آية الله الشيخ محمد الحسن المظفر (وشقيقيه الحجتين الآيتين محمد الحسين ومحمد الرضا» وسماحة المرجع آية الله المجاهد السيد محمد البغدادي، وسماحة آية الله المجاهد الشيخ آغا بزرك الطهراني

---

(١) الإمام المحسن هو اليوم سيد العلماء الأعلام وأشهر الفقهاء العظام علم الشيعة ومعز الشريعة الإمام الأكبر والمصلح الأعظم صاحب المواقف الإسلامية الكبرى الذي كرس حياته الشريفة لخدمة الشريعة الغراء وقد أنقذ العراق بإصدار فتواه الشهيرة ضد الشيوعيين الملحدين أمد الله في حياته العزيزة ومتعنا بأيامه المجيدة ولا زال سراجاً وهاجاً في جبين الإسلام ومناراً مبيناً في غرة التاريخ.

صاحب الموسوعة الكبرى «الذريعة إلى تصانيف الشيعة» وسماحة الحجة الكبرى بطل الجهاد الشيخ عبد الحسين أحمد الأميني، وسماحة العلامة المجاهد أبو الفضائل والمكارم شيخنا المبجل الحاج الشيخ نصر الله الخلخالي، وغير هؤلاء من زعماء الدين ومراجع المسلمين دامت بركاتهم فإنهم جميعاً بالغوا في إكرامي وتعظيمي ورفعوا منزلتي وحفظوا شؤوني ورجعت من عندهم مسروراً فرحاً.

رحلة
العلامة الشيخ حسن طراد*

---

* عالم معروف في لبنان وشاعر رقيق. له مواقف إصلاحية مشهورة في ميدان العمل الإسلامي.

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين نبينا محمد بن عبدالله وعلى آله الطاهرين وصحبه المنتجبين.

وبعد: إن رحلة كل شخص هادف في الحياة وانتقاله من بلدٍ إلى آخر من أجل تحقيق غاية سامية وهدف رفيع ـ تبدأ أولاً في عالم النفس والفكر قبل أن تتمثل على الصعيد الخارجي بالتحرك المادي الجسمي ـ من مكان إلى آخر ـ وما سأحرره بقلم الذاكرة على صفحة الواقع في مجال إبراز الصور الحية التي عشتها حال انطلاقتي التاريخية على درب رحلتي النجفية. يأتي شرحاً واضحاً لما أشرت إليه من بدأ الرحلة الهادفة أولاً في عالم النفس الداخلي قبل بروزها على الصعيد الخارجي فأقول:

شاءت الإرادة الإلهية أن يكون لي شرف الانطلاق مع ركب الثقافة الدينية والتحرك في الطريق الموصل إلى المنهل العذب الصافي الذي يتسابق إليه الظامئون إلى رشف ماء المعرفة الصحيحة من منبع الحقيقة الصافية وإذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه وكان من أبرز أسباب انطلاقي في هذا السبيل هو الرغبة الجامحة والإرادة الثابتة التي دفعتني إلى الانصراف عن الاستمرار ومتابعة السير في طريق الثقافة العصرية المعهودة التي ينشدها الكثيرون تمهيداً لنيل الشهادات الراقية الموصلة إلى الوظائف الرفيعة من أجل تأمين المستقبل القريب في هذه الحياة الدنيا من الناحية الاقتصادية بعيداً عن التفكير في تأمين المستقبل الأخروي البعيد بسلوك المنهج المؤمِّن له مع القريب بمقتضى كونه النجح القويم والصراط المستقيم المرسوم من قبل الله سبحانه الذي شرعه للإنسان من أجل أن يتوصل بتطبيقه إلى الكمال والسعادة في

الدنيا والآخرة كما يوحي بذلك قوله تعالى: **﴿ولو أن أهل القرى أمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾**.

وحيث كنت منذ الصغر أعيش أجواء الرسالة الإسلامية وأؤمن بما يترتب على دراسة علومها النافعة وتطبيق تعاليمها العادلة، من السعادة والتقدم في مختلف المجالات الحياتية مضافاً إلى ما يسببه ذلك من تأمين المستقبل الأخروي الأهم الذي خلق الله سبحانه الإنسان وأوجده في دنيا الحاضر من أجل قيامه بما يفيده حاضراً ومستقبلاً دنيوياً وأخروياً.

أجل: إن انفتاحي فكرياً وروحياً على الآفاق الرسالية الرحبة ـ سبب لي رحلة فكرية ونفسية انطلقت بها إلى أفاق الحوزة العلمية النجفية حيث يرقد هناك بطل الإسلام الخالد باب مدينة علم الرسول الأعظم (ص) ـ وقد نتج عن هذه الرحلة الفكرية والحركة النفسية في طريق الهدف المجيد الحميد ـ تحول في أسلوب التعامل مع الدروس التي كانت تُعطى لي مع رفاقي في المدرسة العصرية ـ حيث كنت أولي العناية التامة لاتقان القواعد العربية واستحضار الدروس الدينية التربوية وكل ما له دخل في استيعاب الدروس العلمية الحوزوية التي عقدت العزم على تلقيها في المستقبل القريب بمعونته تعالى. وقد تمثل ذلك جلياً بعكوفي على حفظ الأجرومية في النحو أثناء العطلة الصيفية وقد توفقت لحفظها كلها غيباً. كما توفقت لدراسة القطر خلال عطلة صيفية أخرى واستحضرت أبوابه كلها بفهم واتقان الأمر الذي سبب لي التفوق على رفاقي كلهم في مادة القواعد العربية يومذاك وبعد أن طويت المرحلة اللازمة من الثقافة العصرية لاستيعاب العلوم الحوزوية رجح لي الكثير من أبائي الروحيين ـ علمائنا الأفاضل ـ التفرغ لدراسة هذه العلوم على يد علمائنا الأجلاء الفضلاء فعملت بنصيحتهم وعكفت على الدراسة الحوزوية بتفرغ كامل ومثابرة مستمرة دائبة لا تعرف الملل والفتور حتى طويت مرحلة دراسات المقدمات المعهودة بتريث واتقان كما ذكرت ذلك بصورة تفصيلية في ترجمة حياتي الدراسية التي قدمت للطبع ضمن سلسلة موسوعة النجف الأشرف، وبعد طي هذه المرحلة التمهيدية من الدراسة الحوزوية ـ رجح لي أستاذي الجليل حجة الإسلام المغفور له السيد هاشم معروف وهو آخر أستاذ لي في لبنان ـ أن انطلق إلى الحوزة النجفية لإكمال

شوط الدراسة هناك وهنا بدأت الرحلة الخارجية إلى الحوزة العلمية في النجف الأشرف سنة ١٩٥٤م الموافق ١٣٧٤هـ بصحبة الوالدة رحمها الله وعندما وصلت معها إلى بلدة الرمادى العراقية اصطدمت بمشكلة صعبة سببت لي صدمة نفسية عنيفة هزت كياني من الأعماق وذلك بإرجاع الوالدة من هذه البلدة وعدم السماح لها بأي وجه، بالانطلاق إلى حيث الغاية والمقصد. وسببُ ذلك سفرُها بجواز سفر صدر مشتركاً بينها وبين الوالد رحمه الله لعزمه أول الأمر على السفر معنا إلى النجف الأشرف ثم عدل عن ذلك لسبب طارىء ولم نكن مسبوقين بعدم سماح قانون السفر العراقي بالسفر وحدها بجواز مشترك، وقد تمثلت صعوبة هذه المفاجأة المؤلمة بمجموع أمرين أحدهما عاطفي مثير بسبب إرجاعها ومنعها من متابعة السير نحو هدفها المنشود وأمنيتها العزيزة الغالية التي انطلقت لأول مرة لإدراكها. وهي التشرف بزيارة المراقد المشرفة هناك في العراق وخصوصاً مرقد الإمام علي عليه السلام ويضاعف ألم الصدمة أن إرجاعها إلى الوراء كان بعد أن طوت مسافة بعيدة وتحملت في طريقها مشقة شديدة. والأمر الثاني منطقي واقعي يؤكد الأول وهو الخوف عليها من الضياع بعد رجوعها إلى دمشق بسبب غربتها وعدم معرفتها بطرقها ومواقف السيارات الناقلة إلى بيروت مع عدم وجود المساعد الأمين والناصر المعين. وهكذا شاء لي القدر القاسي أن أصاب بهذه الصدمة النفسية القوية وأنا في طريق غاية سامية لا تُنال إلا بالصبر على المتاعب والثبات أمام النكبات والمصائب وعدم الرجوع من طريقها والتراجع عن إدراكها مهما كانت الصعوبات ومهما كلفت من تضحيات. ومن هنا تابعت المسير إلى الأمام صابراً على ألم الصدمة ومتحملاً المعاناة النفسية مع العناء الجسمي مردداً بلسان الحال قول الشاعر:

لأستسهلنَّ الصعب أو أدرك المنى ... فما انقادت الآمال إلا لصابر

وأخيراً جعل الله لي وللوالدة من بعد عسر يسرا حيث يسر لها من ساعدها على الرجوع إلى لبنان لتسافر من جديد بصحبة الوالد إلى العراق. وكان وصولهما أولاً إلى كربلاء بمناسبة زيارة الأربعين وتوفقت للاجتماع بهما هناك لحضوري من النجف الأشرف إلى مدينة كربلاء بمناسبة الزيارة المذكورة، وبعدها رجعت معهما إلى النجف لننزل في ضيافة فضيلة الأخ العزيز الوفي الشيخ أحمد قصير. وكان وصولي

إلى النجف في المرة الأولى عصراً وتشرفت أول وصولي إليها بدخول الصحن الشريف للمقام العلوي من أجل التبرك ولو بالمرور العابر السريع لعدم سنوح الفرصة بالمبادرة إلى دخول الحضرة المقدسة، ومن هناك انطلقت بصحبة بعض الأخوان ليدلني على منزل فضيلة الشيخ أحمد المذكور.

وبعد حط الرحال في ضيافة هذا الأخ الكريم بدأتُ البحث معه عن غرفة في إحدى المدارس الدينية المؤسسة لسكنى طلاب العلوم الحوزوية. وحيث كان الطلاب في ذلك التاريخ كثيرين جداً إلى درجة اضطر معها أولياء هذه المدارس لأن يسكنوا في الغرفة الواحدة أكثر من طالب. أجل لهذا السبب لم أظفر بالمسكن المطلوب في هذه المؤسسات المباركة وتمت الموافقة على السكنى في غرفة مستقلة مبنية فوق مدفن مُعَدٍ وموقوف لأن يدفن فيه أفراد عائلة آل ياسين وهم عائلة علمية محترمة منهم آية الله العظمى الشيخ محمد رضا آل ياسين (قده) وأخوه حجة الإسلام المغفور له الشيخ مرتضى وكلاهما مدفون في هذا المكان. ورغم أن العنوان المعروف به هذا المكان يقتضي بطبعه الزهد في السكنى فيه من الناحية الاعتبارية ولكن الحرص على حفظ الوقت واستفراغ الجهد في سبيل تحقيق الهدف المقصود اقتضى غض النظر عن الاهتمام بالقضايا الاعتبارية في سبيل المهمة الجوهرية ونويت الإقامة فيه لتكون دراستي تامة بالاستيعاب والاستحضار الذي يَسهُلُ تحصيله في الجو الهادىء والمكان المستقل ومضت على إقامتي فيه مدة سنه ونصف تقريباً واقتضت المصلحة بعد ذلك مغادرته إلى غرفة مستقلة في مدرسة مجاورة لحرم الإمام عليه السلام تسمى بمدرسة البروجردي الكبرى وكان حصولها بالسعي المشكور الذي بذله يومذاك حجة الإسلام المغفور له السيد إسماعيل الصدر (قده)، أستاذي في أصول الكفاية والرسائل. وبعد الظفر بالمكان المناسب بدأ البحث عن الأستاذ المناسب الواجد للكفاءة العلمية التي تساعده على إعطاء الدروس الراقية بالأسلوب العلمي النافع والبيان الواضح. وقد ساعد التوفيق الإلهي على إدراك هذه الأمنية في شخص المرحوم حجة الإسلام السيد الصدر المذكور. وقد درست على يده الكفاية بجزئيها والرسائل كلها خلال مدة أربع سنوات. هذا في علم الأصول.

وأما الفقه فقد توفقت للظفر بالأستاذ الناضج فيه القادر على إعطاء درسه حقه تحقيقاً وتوضيحاً وهو العلامة الجليل حجة الإسلام الشيخ محمد تقي الجواهري

فرج الله عنه وعن سائر المعتقلين معه، وقد درست على يده اللمعة والمكاسب. وبعد الانتهاء من دراسة السطوح في هذه الكتب الراقية على يد هذين الأستاذين الجليلين. تفرغت لدراسة خارج الفقه والأحوال على يد زعيم الحوزة العلمية آية الله العظمى السيد الخوئي(قده)، وخارج الأصول أيضاً على يد العلامة الحجة السيد إسماعيل الصدر وبعد انتقاله إلى مدينة الكاظمية ـ شرعت بأخذ درس الخارج في الأصول على يد أخيه المحقق آية الله الشهيد السعيد السيد محمد باقر الصدر (قده).

وحيث أن موضوع هذه الكتابة هو رحلتي النجفية، فقد رأيت من المناسب أن أضيف إليها الحديث عن رحلتين قمت بهما داخل العراق أيام دراستي في النجف الرحلة الأولى كانت إلى بلدة الشنافية العراقية من أجل شراء قطعة أرض في النجف الأشرف، وفي منطقة الجديدة، من صاحبها الذي كان مقيماً في هذه البلدة ـ وكان الإقدام على هذه الخطوة من أجل تأمين المسكن الذي تمس الحاجة إليه بعد الزواج، وكنت يومذاك لا أزال أعزب الأمر الذي يساعد على الاقتصاد في المصرف وتوفير ما يصرف في سبيل بناء المسكن بعد شراء الأرض. وأخيراً تم بعون الله الشراء وبعده البناء وتأمين المنزل الذي وفر لي الراحة والاستقرار والاستغناء عن الاستئجار الذي يسبب الكثير من المعاناة. ولا أزال أذكر كلمة قالها المرحوم أستاذي الصدر الكبير[1]، بمناسبة سفري إلى البلدة المذكورة لشراء الأرض واضطرني ذلك لأن أترك حضور درس الرسائل: قال يومذاك معقباً على ذلك بما حاصله: هذه هي المرة الوحيدة التي يغيب فيها فلان عن مجلس الدرس بعد مدة طويلة.

والرحلة الثانية كانت إلى بلدة حي وائل في شمال العراق بصحبة الخطيبين السيد حسن الشخص والشيخ أحمد الهندي. لحضور الاحتفال الديني الذي أقامه ودعا إليه أهل البلدة بمناسبة ميلاد الحسين عليه السلام وكان المقرر أولاً المشاركة في احتفال واحد ولذلك كان المعد له قصيدة واحدة لدى كل واحد منا نحن الثلاثة. وألقى كل واحد منا قصيدته في الاحتفال العام المدعو إليه، وبعده فوجئنا بتقديم دعوة أخرى للمشاركة في احتفال آخر لنفس المناسبة وفي الليلة الثانية وحيث اقتضت المصلحة العامة والهامة تلبية هذه الدعوة ولا مجال لدى الرفيقين لأن يعد

---

(١) هو حجة الإسلام السيد إسماعيل قده، الأكبر سناً من أخيه الشهيد الصدر قده.

كل واحد منها قصيدة جديدة للاحتفال الجديد. فقد أصبح إعداد ذلك محصوراً بي ومقصورًا علي، لـذلك تـوكلت على الله سبحـانه واستعنت بلطفـه وبركـة المناسبـة ونظمت في نهار الليلة الأولى، القصائد الثلاث المطلوبـة وألقى كل واحـد منا شعـراً جديداً في احتفال الليلة الثانية وحيث أن مناسبات أهل البيت توحي بالأفكار المشرقة وتلهم الشاعر الكثير من المعاني الرفيعة والصور الرائعة على وجه السرعة والارتجال، فقد نظمت قصيدة جديدة بعد فراغي من إلقاء قصيـدتي وانشغال المشـتركين بـإلقاء كلماتهم وقصـائدهم، وكـان مضمونها الإشـادة بأريحيـة أهل البلد، وتشجيعهم عـلى الاستمرار والانطلاق في طريق إحياء الشعائر الدينية، وخصوصًا الحسينية منها، وقد ألقيت هـذه القصيدة في نهايـة الاحتفال، وبعـد الانتهاء من الاحتفال الثاني دُعينـا للسهرة وتناول طعام العشاء في منزل أحد المؤمنين الأخيار المعروفين بالنبل والشهامة والكرم والسماحة. الأمر الـذي هز مشـاعري وأوحى لي بقصيـدة جديـدة من وحي تلك السهرة المؤنسة السعيدة.

والـذي أود أن أختم بـه الحـديث عن رحلتي إلى النجف الأشرف هـو لفت النظر إلى أن المقصود الأساسي من هذا الحـديث الذي قـدمته للقـارىء الكريم هـو التركيز على النقاط الحية والجوانب الموضوعية التي اقترنت بهذه الرحلة ليستلهم منهـا درسـاً وعبرة تضيء لـه الدرب لينـطلق فيه عـلى هدى وبصـيرة نحو الهـدف العلمي عندما يعزم على تحقيقه وينطلق في طـريقه. فحـادثة إرجـاع الوالـدة وتحمل صـدمته العنيفة وعدم الرجوع معها بدافع العاطفة والانفعال، يستفـاد منها ومما عوجلت بـه من التجمل بالصـبر الجميل والإصرار عـلى متابعـة السير في طـريق الهدف الكبير، درس في الجَلَد والصبر على المكروه في سبيل إدراك الهدف المحبوب، قال الشاعر:

لا تحسـب المجـد تمـراً أنت آكـله   لن تبـلغ المجـد حـتى تلعـق الصـبرا

كما يستفاد درس آخـر في التفاؤل وتـوقع حصـول الفرج بعـد الشدة واللقـاء الحلو بعد الفراق المر، كما حصل لي بعد ذلك حيث توفقت للالتقاء بـالوالـدين معاً وتحقق السرور بعد الحزن. ويستفاد من الرضا بالسكنى في تلك الغـرفة رغم وجـود المنفـر العـاطفي في نـظر الكثيرين، درس في المـوضـوعيـة، والإخـلاص للهــدف والتضحية في سبيل تحقيقه لأن الغاية السامية الغالية تستلزم أن يدفـع طالبهـا الثمن

الغالي قال الشاعر:

تـريـديـن إدراك المعـالي رخيصـةً؟ ولا بـد دون الشهـد من إبـر النحـل

ويستفـاد من قضيـة شراء الأرض والتضحيـة بـأخـذ الـدرس بسبب السفـر والتغيب مرة واحدة من أجله، درس في حفظ الـوقت وعدم صرفـه في غير تحصيـل العلم ونحوه من الأهداف السامية إلا إذا كان ذلك الغير مقدمة مساعدة على إدراكه والـظفر بـه وحيث كان تـأمين المسكن من أهم الأسبـاب الممهـدة للتفـرغ الكـامـل والتحصيل العلمي الأفضل، كان السعي في هذا السبيل تحركاً نحو الهدف وانطلاقاً في سبيله الأمـر الـذي دفعني للتضحيـة بـالحضـور لـدرس واحـد في سبيـل تحصـل الحضـور الذهني مـع الجسمي مستقبلاً، من أجـل تحصيل الـدروس الكثيرة بتـوجه واتقان.

ويستفاد من قصة مشـاركتي في الاحتفال الحسيني وتـوفيق الله سبحانـه لي لأن أنـظم خمس قصائـد خلال فـترة قصيرة، درس إيمـاني يقوي الثقـة بحصول التـأييـد الإلهي والتوفيق للقيام بعمل كبير وكثير في الوقت القصير عندما يختار الإنسان المؤمن الهدف الراجح والعمل الصالح ويخلص لله في قصده ويتوكل عليه لإنجاحه ويتحرك في طريق إدراكه، كما يستوحي ذلك من صريح قوله تعـالى: **﴿ومن يتوكـل على الله فهو حسبه﴾** قال الشاعر:

تـوكـل عـلى الـرحمن في الأمـر كله فـما خـاب حقـاً من عليـه تـوكـلا

أخي القارىء العزيز: إن كل ما حررته لك في هـذه الصفحات كـان حديثـاً حول موضوع خاص وهي الرحلة والتحرك من مكان إلى آخر سواء كان هذا المكان داخلياً كعالم النفس والذهن كما تقدم في صدر الحديث أم خارجياً يتحرك فيـه الجسم من نقطته مكانية محددة إلى أخرى، وبوحي المناسبة أحب الإشارة إلى الرحلة العامة الشاملة لكل الكـائنات في هـذا العالم، وهي رحلتهـا وتحركهـا في عالم الـزمان منـذ اللحظة الأولى التي يخرج فيها الكائن من ظلمة العدم إلى نور الوجـود، نحو النهـاية المحددة له بالتقدير الإلهي. قال سبحانه: **﴿كل من عليها فـان﴾** **﴿كل نفس ذائقـة المـوت﴾**. وإذا أردنا أن نحـدد طرفي البـداية والنهـاية بـالنسبة إلى الإنسـان، جسد مادي محسوس، فإن المهد هو الحد الأول الواضح لطرف البداية، واللحد هـو الحد

الثاني الأوضح لطرف النهاية. وقد أشار الإمام علي عليه السلام إلى التحرك والسير في طريق الزمن إلى المقر الأخير الذي ينتهي إليه الكائن الحي بقوله عليه السلام: أنفاس المرء خطاه إلى أجله، وبقوله أيضاً: ما مضمونه: يا ابن آدم إذا كنت في إدبار والموت في إقبال فما أسرع الملتقى، وإلى هذا المعنى أشرت ببيتين هما مطلع قصيدة نظمت في الخمسينيات بمناسبة وفاة الوالدة (ره) وهما ما يلي:

ماذا تريد من الحياة وتأمل   والموت نحوك كل يوم يقبل
يسعى إليك وأنت تسعى نحوه   يحدو كما حكم القضاء المنزل

وحيث إن السيرة العقلانية تقتضي أن يعد المسافر لنفسه ما يحتاجه من الزاد ونحوه مما يضطر إليه في طريق سفره وفي مكان استقراره الذي يسافر إليه. فهي تقتضي ذلك وتدعو إليه بطريق أولى، بالنسبة إلى سفره الكبير في طريق عمره، ورحلته الطويلة الشاقة، إلى مقره الأخير وقد بين الله سبحانه نوع الزاد واللباس اللذين يضطر إليهما الإنسان في طريق هذه الرحلة العامة وفي الدار الأخرى التي تنتهي رحلته هذه إليها ليستقر فيها. وهو زاد التقوى ولباسها قال سبحانه: **﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾**، وإذا كانت التقوى عبارة عن فعل الواجبات وكلها مصالح وفوائد، مع ترك المحرمات وجميعها مضار ومفاسد ندرك أن هذا الزاد النافع الرافع يفيدنا في طريق رحلتنا الحياتية كما يفيدنا في دار حياتنا الأبدية وهذا ما أراد الله سبحانه منا أن نوفره لأنفسنا لكي ننال به سعادة الدارين قال سبحانه: **﴿وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾** وروي عن النبي (ص) قوله: ليس منا من ترك آخرته لدنيا، ولا من ترك دنيا لآخرته، ونقل عن الإمام علي عليه السلام قوله: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا، ونقل هذا عن ولده الحسن عليه السلام، وختاماً أسأل الله سبحانه التوفيق وحسن العاقبة لي ولجميع إخواني المؤمنين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

حسن طراد

٢٥ - ١٠ - ١٩٩٣م

١٠ - ٥ - ١٤١٤ هـ

رحلة طالب علم
للسيد عباس الموسوي (أبو علي)*

---

* علّامة فاضل له مؤلفات عديدة ويهتم بالخدمات الاجتماعية من مواليد ١٩٤٥م ببلدة النبي شيث في البقاع ـ لبنان. وهذه الأسطر مأخوذة من رحلته الموسعة وقد اقتطفنا منها ما يناسب هذا المجلد.

ما قبل الرحلة:

كانت ولادتي في بلدة النبي شيت هذه البلدة الطيبة في أواخر سنة ١٩٤٥ ميلادية ولا أريد أن أذكر ما جرى لنا وعلينا ولكن بكلمة واحدة عشنا كما يعيش كل المسلمين في المنطقة من حرمان وضياع فلم نعرف الكهرباء ولا الماء ولا أي شيء من سبل الحياة الناعمة إلا من جمال الطبيعة وحسنها التي أودعها الله هذا الجمال وأغدق عليها هذا الكمال.

درسنا في مدرسة البلدة الصغيرة ذات الأربع غرف وتدرجنا حتى حصلنا على الشهادة الأولى ولما لم يكن لنا صف تستقبلنا فيه المدرسة هبطنا إلى رياق فكنا في كل صباح تحملنا السيارة لنتلقى دروسنا وترجعنا عصراً وهكذا حتى أتممنا مرحلة الدروس التكيملية ونلنا شهادتها.

ولما كان العجز سمة عامة توقفنا عن الدراسة وفكرنا في إكمالها فلم نجد إلا الهجرة إلى بيروت وهي بالنسبة لابن القرية مهجر بعيد وخصوصاً في تلك الأوقات ولقد شاء الله لنا أن نرى بيروت أيام عزها ومجدها وذلك سنة ١٩٦٣ ميلادية فكنا نعمل بالنهار وندرس في معهد في رأس النبع مساء حتى أكملنا السنة نهائياً وفي صيف ذلك العام عدت لزيارة الأهل ورؤيتهم.

من التوفيق:

وفي جلسة عائلية أخذت منا الأحاديث كل سبيل حيث رحنا نتحدث عن

الحياة وما فيها وما ينفع ويضر وما ينكر من الخير والشر وتحدثنا عن سير دراستنا وعملنا وفي لحظة واحدة تقفز إلى ذهن أخي السيد أحمد حفظه الله فكرة يعرض من خلالها علي إذا كان بإمكاني أن أذهب إلى النجف الأشرف لأتعلم في حوزتها وأتخرج منها عالماً. . . وفوراً وبدون تردد وافقت. . فأمهلني يوماً أو يومين لكي أفكر في الموضوع جيداً وأدرسه بهدوء وبرودة أعصاب وبعد اليومين كانت الموافقة.

مقدمات الرحلة:

لما كانت المنطقة خالية من العلماء إلا من بعضهم حيث يقيم المقدس الشيخ حبيب آل إبراهيم في بعلبك ومشايخ آل الخطيب في تمنين التحتا ولم نعرف كيف نتوصل إلى دخول النجف والتعرف على أبوابها أخذنا نفكر في السبيل إلى ذلك وتوفقنا برؤية شيخ جديد قد قصد النجف وقضى فيها بضعة أشهر وهو يريد العودة إليها قريباً فزرناه في منزله واستفهمنا منه عما يُطلب منا وما يجب علينا وهل بإمكاننا أن نكون معه في الطريق فأرشدنا إلى كل ذلك جزاه الله خيراً. . .

باشرنا بمعاملة السفر فهيأنا الجواز وبعض ما نحتاجه ونحن سعداء بأننا سنرى العلماء ونغرف من العلم ونتزود للآخرة ونزور الإمام علي عليه السلام.

العمامة الخضراء:

أنا ابن التاسعة عشرة من العمر لم تر عيناي عالماً من السادة الأشراف قط وإن كنت قد رأيت مرة أو مرتين شيخاً عالماً وعرفت أنه يلبس العمامة البيضاء المكورة على رأسه أما ماذا يلبس السيد العالم على رأسه فاعرف على وجه الإجمال أنه يلبس العمامة ولكن لا أعرف ما تحمله من لون، ومن يعيش معنا في الأجواء مثلنا في الجهل لم يعرفوا هم أيضاً ما يلبس السيد العالم وهذا يدل على الحرمان وعلى الفقر العقلي والتخلف الإسلامي وبالتالي يقع على العلماء أن يبحثوا عن أي مسلم في أقاصي الأرض حتى يتعرفوا عليه ويعرِّفوه ليس على زيهم وملابسهم وإنما على الإسلام والدين، فإن من يجهل علماءه يجهل دينه لأن عن أيديهم تؤخذ الحقيقة وعن طريقهم يفهم المسلم معالم الإسلام والدين. . .

وبعد جلسة تقرر أن نأخذ عمامة بيضاء ثم نصبغها بما يناسب السادة العلماء وفعلاً اشترينا عمامة بيضاء وتقرر بعد خلاف في اللون الذي دار بين كونه أسود أو أخضر تقرر أن يكون اللون الأخضر وتم صبغها باللون الأخضر وعندما أردنا السفر أخبرْنا شيخنا الذي نحن برفقته فضحك حتى امتلأ ضحكاً وقال: إن السادة العلماء يلبسون العمامة السوداء ولكن كانت خضرة العمامة قد سبقت سوادها...

السفر والعودة:

خرجنا من البلدة قاصدين النجف الأشرف بتاريخ ٢٥/١٠/ ١٩٦٤... وقد تقرر سفرنا أن يكون من الشام بسيارة صغيرة فركبنا السيارة وأخذت تقطع بنا الصحراء ونحن تارة نغفو وأخرى نصحو حتى وصلنا نقطة الرطبة في أول الحدود العراقية فنزل السائق ومعه الشيخ وأما أنا فبقيت في السيارة ولم يمض إلا وقت قصير حتى يأتي السائق ويخبرني بأنه لا بد من العودة إلى لبنان لأحصل على تأشيرة دخول إلى العراق وكان الشيخ قد غفل عن إعلامنا بها ووجوب تحصيلها قبل السفر..

كانت بالنسبة لي مفاجأة صعبة لم أقدر على القفز فوقها وكان لا بد من العودة ولكن من أين الوسيلة في هذه الساعة المتأخرة من الليل التي قاربت الحادية عشرة؟ ومن أين لي وأنا الذي لم تعركني الحياة ولم تعلمني من قساوتها؟ ولكن مهما تكن الصعوبات فأنا أمام أمر واقع لا بد من معالجته وبعد مضي برهة من الزمن توفقنا بسيارة شحن قاصدة الأردن فركبنا بها حتى وصلنا إلى الحدود الأردنية فأرشدونا إلى فندق هناك فقضينا به ليلتنا ثم قبل أن تظهر الشمس كنا قد ركبنا سيارة وقصدت الشام ومنها إلى بيروت...

لم أعد إلى البلدة لأخبر الأهل... لقد كنت أشعر بالخجل إنْ عُدت إليهم هذه العودة بعد الوداع والتوديع ولذا قصدت بيروت مباشرة فأخذت تأشيرة لدخول العراق وغادرت منها إلى الشام ومن هناك ركبت سيارة من الموقف الذي ركبت منه أول مرة وتوجهت إلى العراق.. وبعد يومين من العذاب دخلنا النجف الأشرف...

شعوري الخاص:

عندما دخلت النجف اعتراني شعور خاص حيث إني ولأول مرة تكتحل أجفاني بالعمائم البيضاء والسوداء بهذا العدد والكثرة وكنت عندما أمرّ عليهم أجد من الأدب أن أسلم عليهم وأحترمهم ولم أعرف أن الكثرة في كل شيء ـ في أغلب الأحيان ـ تفقد بهجتها وقد تفقدها قيمتها. . .

ورأيت أنوار الإمام علي والحضرة العلوية المقدسة فشدتني من أعماق نفسي، . . أخذتني الدهشة وأنا لأول مرة أراها حيث المنائر الذهبية التي تناطح السحاب وحيث القبة الذهبية التي تأخذ بالألباب وما أعظمها مفاجأة عندما دخلت الروضة فوجدت الضريح المقدس. . إنها صورة نفسية وعاطفية يعجز القلم عن وصفها. . .

جامعة النجف:

التقيت بسماحة السيد علي الموسوي بعد وصولي إلى النجف وهو قريبنا وقد سبقنا بحوالي السبعة أشهر وكما قيل من كان أكبر منك بيوم أعرف منك بسنة فرحب بقدومي ثم تكلم مع السيد محمد كلانتر عميد الجامعة فاستجاب ودخلنا جامعة النجف حيث سلموني مفتاح إحدى الغرف. . .

وجامعة النجف هذه تقع في أول النجف ـ في منطقة حي السعد ـ وقد شادها من ماله الخاص كما سمعنا دون أن يدفع من الحقوق الشرعية فيها فلساً المحسن البار الحاج محمد تقي اتفاق وهو من المؤمنين الإيرانيين وقد رأيناه في بعض زياراته إلى النجف حيث كان طلاب الجامعة يعقدون له جلسة تكريم لأياديه البيضاء الكريمة وقد تمتع بطيبة خلق وكرم سجايا. . . وكان يبدو عليه التقى والورع وقد سمعنا عن إحسانه وكرمه الشيء الكثير. . .

وجامعة النجف تتكون من ثلاثة طوابق إنها طراز جميل وهندسة بديعة لها بابان عند واجهتها من أحدهما تدخل السيارة الخاصة بنقل الطلاب ومن الآخر تخرج ولكن بشكل نصف دائري. .

وعلى يمين الداخل مكتبة ضخمة كنا نطالع بها كسائر طلاب الجامعة وأما عن يسار الداخل فتجد مسجداً ليس خاصاً بالجامعة وإن كان من ضمن تصميمها وفي داخل بنائها ومن توابعها.

وتدخل بعد هذا فتجد نفسك أمام مدخل رائع الجمال إنه بشكل قبة ذو تعاريج فنية وقد تزين بالكاشي المكتوب عليه جامعة النجف الدينية. . .

وعندما تدخل من هذا الباب تجد نفسك أمام باحة واسعة ضخمة وفي وسطها حديقة صغيرة وعلى الجوانب الأربعة غرفٌ مبثوثة الواحدة بجانب الأخرى. . .

إنها غرف داخلية ترى الشمس من الباحة وفضائها وهناك صف من الغرف خلف هذه الغرف يفصلها ممر وتلك الغرف تستقبل الشمس مباشرة وتطل على الشارع العام الذي يفصلها عنه حديقة جميلة من جميع جوانب الجامعة. . .

وفي الجامعة سرداب بُني خصيصاً للطلاّب حماية لهم من حر العراق الشديد وقد التجأنا إليه خلال فترة إقامتنا في الجامعة وكان يخفف عنا نسبة ضئيلة لأنه لم يأخذ العمق اللازم الذي تعورف عليه في سراديب النجف. . . وفي الجامعة أيضاً دورة حمامات لكل جهة وهناك مطبخ كبير أيضاً. .

أما الغرفة التي ستكون هي القاعدة التي يأوي إليها كل طالب فهي غرفة واسعة نظيفة مفروشة بسجادة جيدة ولها خزانة يضع الطالب كتبه وملابسه وحاجياته. . . وبعبارة موجزة إنها غرفة لائقة وجاهزة وتضمن للطالب الاستقرار والراحة. . .

بقيت إقامتنا في الجامعة ما يزيد عن السنتين كانت فترة جيدة من حياتنا التقينا فيها عن قرب بالإيرانيين والأفغانيين والهنود والباكستانيين وكان لنا منهم أصحاب وأحباب طيبون وأمناء. . .

وأما الدراسة فيها فقد كانت منظمة ودقيقة ويكفي للطالب فيها أنه يُكفى مؤنة التعب والنصب في سبيل تهيئة المدرسين فقد أخذت الجامعة على عاتقها هذا الأمر فكانت هي التي تتولى ما تحتاج من الأساتذة وما كان على الطالب إلا أن يحضر

درسه ويتفرغ له بكل جهده وطاقته وقد توفقنا فيها بأساتذة من خيرة أساتذة الحوزة علماً وأخلاقاً وتديناً ومحافظة. . .

لقد استلمنا مفتاح الغرفة التي تعينت من نصيبنا وما بقي علينا إلا أن نلتحق بحلقة من حلقات الدراسة والمتعين على المبتدىء أن يعود إلى حلقة (قطر الندى) كتاب النحو لابن هشام وهو كتاب له قيمته الفنية والعلمية فدرسناه على يد الشيخ جعفر القوچاني الذي رحل بعد ذلك إلى بلدة شمسطار ليقيم فيها شيخاً ما يقارب الخمس سنوات والذي بعد رحيله حللنا نحن محله. . .

ودرسنا منهاج الصالحين لآية الله العظمى الحكيم الذي كنا نقلده، في عرض واحد مع القطر. . .

ثم بعد أن انتهينا من هذه المرحلة أردنا أن ندرس شرائع الإسلام في الفقه للمحقق الحلي وكتاب المنطق للشيخ محمد رضا المظفر وكتاب ألفية ابن عقيل. . .

أما في شرح ابن عقيل والشرائع فقد تكفل لنا بهما الأستاذ العلامة الشيخ محمد هادي معرفة من أساتذة الحوزة ومؤلفيها وقد كان يملك أسلوباً جيداً رائعاً جعلنا نرغب في درس الألفية من خلال قراءته لأبياتها، فكان إذا قرأ النظم استأنسنا بالقراءة وكدنا أن نفهم المقصود بدون شرح. . . كان يملك أسلوباً حلواً مرغباً وكذلك في الشرائع. . .

وأما في المنطق فقد تولى تدريسنا فيه سماحة العلامة الشيخ أحمد البهادلي مؤلف كتاب (محاضرات في العقيدة) وقد كان من أطيب أساتذتنا ومن أشدهم غيرة علينا وحرصاً على إفادتنا وبالإضافة إلى ذلك كان محبوباً للطائفه الحلوة ونكاته الأدبية والاجتماعية الجميلة وقد كنا نشعر بالقرب منه مع احترامنا له وتقديرنا وهذا قلما يشعر به تلامذة نحو أساتذتهم وقطعنا هذه المرحلة وكان معها خروجنا من الجامعة وانقطاعنا عنها ولم يكن ذلك إلا رغبة في حرية أكثر وانطلاقٍ أوفر حيث كنا نشعر ونحن فيها أننا مقيدون بجملة شروط تقيدنا وتمنعنا عن كثير من رغباتنا وقد كانت هذه الفترة بحق فترة انغلاق على النفس وعدم انفتاح على الحوزة ككل وعلى

اللبنـانيين بشكل خـاص حيث كانت المـدرسة اللبنـانية مـركزاً يلتقي فيهـا الجميـع وأشعر الآن أنها كانت فترة ضرورية استفدنا خلالها روحياً ودراسياً ولها يعود الفضـل في انضباطنا والتزامنا وقد كان لسماحة السيـد محمد كـلانتر عميـدها الكـريم أعظم الأثـر في توجيهنـا وتدريبنـا وتوفيـر ما نحتـاج إليه من مـدرسين فجزاه الله ألف خيـر وخير. . .

كانت في الجامعة تتوفر كل أسباب الراحـة الماديـة والمعنويـة والعلمية ولكن الإنسان بطبعـه يحب التغيير واكتشـاف الجديـد ويجب أن ينتقل من مكـان إلى آخر كما ينتقل قهراً عنه من الفتـوة إلى الشباب فـالمشيب ولذا كنت أرغب في الخـروج منها وقررت أن أخرج فاخترت أن أكون مع الأخوة اللبنانيين في المدرسة القائمة في منطقة الجـديدة التي هي أقـرب إلى قلب النجف من الجامعـة وفعلاً خـرجت إليها وأخذت مع بعض اللبنانيين غرفة سكنا فيها بعد أن نقلنـا بضاعتنـا التي لا تزيـد عن حـاجة طـالب علم، . . فرشـة ولحافـاً وبعض الكتب ولا ننسى ما يحتـاجه المجـرد الذي يتولى إعالة نفسه ومن الواجب عليه أن يهيىء حوائجه بيده من ملعقـة وسكين وصحنين وكبـايـة شـاي وبعض مخلفـات مـا زوّدنـا بـه الأهـل من كشـك ومـربى وزيتون. . .

المدرسة اللبنانية:

انتقلنا إلى المدرسة اللبنانية وكان أغلب الطلاب اللبنانيين يقيمـون فيها وحتى المتزوجون كان لهم صلة بها يترددون عليها ويجتمعون بطلابها وقد يتبـاحثون معهم ويروّحون أنفسهم بجلسة قصيرة يتذاكرون بها بعض الأمور المفيدة. . .

وقد كان انتقالي هذا يضعني أمام مسؤولية تهيئـة الأساتـذة وهذه الصعـوبة لم تطل حتى وجدنا من يدرسنا (مختصر المعـاني) الكتاب المعـدّ لموضـوع الفصاحـة والبلاغة وكتاب (أصول الفقه) للشيخ محمد رضا المظفر المعد لأصول الفقه وكتاب شرائع الإسلام للمحقق الحلي وأتذكر أن شيخنا الذي كان يتولى تدريسنا المختصر كان متزوجاً وبيته في داخل النجف ويعبرون عنها (الولاية) فكان موعد الـدرس قبل شروق الشمس فعلينا أن نقطع المسافة من المدرسة اللبنانية الكائنـة في (الجديـدة)

إلى قلب النجف وكان ذلك فيه كثير من المشقة وخصوصاً في أيام الشتاء والبرد الشديد وبالأخص أنه لا يوجد وسيلة نقل غير عربة يجرها حصانان وتسمى في اصطلاحهم (ربل) فكان من المتعين علينا إما إن نقطع المسافة مشياً وهذا يكون في أغلب الأحيان إذا استيقظنا في وقت مبكر كي نوفر الأجرة وإلا (فالربل) لا بد منه. . .

كان أستاذ المختصر من الأخوة الإيرانيين الذين يجيدون العربية ولا يحكي مظهره عن مخبره ولكن ولله أقولها أنه كان من أبرع من درسنا عندهم في هذا الكتاب وقد استفدنا منه فوائد كبيرة وعظيمة لا أزال أذكر بعضها إلى الآن وكأنه أمامي يشرح العبارة ويوضحها ويبيّن مدلولها ومفادها ويأتي على جميع جوانبها. . .

وأما درس أصول الفقه فلقد تنقلنا فيه على أيدي الكثيرين حتى انتهينا منه. . . وكذلك كتاب (شرائع الإسلام).

وبعد أن انتهينا من هذه الكتب ابتدأنا بدراسة اللمعة الدمشقية للشهيد الثاني.

العودة الأولى:

اشتاقت البلاد إلى أهلها كما يقولون ودب الحنين إلى الأهل والوطن فقررنا أن نزور الأهل والأقارب ونجدد بهم عهداً ونطل من خلال رحلتنا على بلادنا التي أحببناها وأحببنا العيش فيها فعدنا في شهر أيار من سنة ١٩٦٧ ميلادية بعد أن قضينا ما يقارب السنتين ونصف السنة.

عدنا إلى البلدة وقد كان يوماً عظيماً بل أياماً عظيمة لا أزال أعيش ذكراها. . . لقد زحفت كل البلدة للسلام عليّ وبقيت شهراً بكامله أستقبل المهنئين ومن باب الشيء بالشيء يذكر أقول عندما كنت طالباً مبتدئاً كان هذا الاستقبال ولكن بعد أن تقدمت علمياً وغبت أربعة عشر سنة أضحى زوارنا قليلون لا يعادلون ربع أو خمس من استقبلنا أول مرة وفي حزيران من تلك السنة رغبت في العودة إلى النجف لإكمال دراستي بعد أن انتهيت من زيارة لبنان فقررت أن لا تطول العطلة

أكثر من شهر فلذا غادرت البلدة إلى سورية وكان ذلك في الخامس من حزيران فانطلقنا صباحاً من الشام في سيارة صغيرة وبعد أن قطعنا الحدود السورية ودخلنا الأردن كانت الحرب قد وقعت بين إسرائيل وبين مصر والأردن وسورية وقد شاهدنا في منطقة المفرق من بلاد الأردن كيف كانت مطاردة الطائرات بعضها لبعضها ووقعنا في خطر شديد مما دعا السائق إلى العودة إلى سورية ومنها عدنا إلى لبنان واستمرت عطلتنا وقتها إلى تشرين الأول. . .

عدنا إلى النجف وكلنا شوق ورغبة إلى الدرس. . إننا نريد أن نتعلم ونتفقه ونجمع من المعلومات ما يكفي حاجة الناس التي تنتظرنا والتي سنعود إليها والتي تعقد الأمل علينا. . .

ومن مقتطفات هذه الرحلة الدراسة على الشهيد الصدر «قدس سره».

دراستنا على يد الشهيد الصدر:

من الأساتذة الذين تشرفنا بدرسهم وحضرنا عليهم أستاذنا الفذ علم الأمة وحامل علم الأئمة نابغة الزمان الفيلسوف الرباني الشهيد الثالث بحق آية الله السيد محمد باقر الصدر قدس سره. .

دخلنا إلى النجف سنة ١٩٦٤ ميلادية وفي وقتها كانت شهرة السيد الصدر قد ملأت العراق وانتشرت في أرجاء العالم الإسلامي وخصوصاً من خلال كتابيه العظيمين اقتصادنا وفلسفتنا حيث فتح من خلالهما قلوب الناس إلى الإسلام واستقطب عن طريقيهما كل التطلعات الشابة المنفتحة وتبيَّن من خلال الكتابين أن الإسلام يملك الحل لكل مشاكل المجتمع وبمقدور هذا الدين أن يستوعب الحياة وما فيها ويفسرها ويعيش فيها. . .

كانت مدرسة السيد الصدر نموذجاً عالياً وانفتاحاً على الحياة بكل ما للانفتاح والسعة من معنى. .

محاضرات المناسبات:

لم نكن على اتصال بالسيد الصدر في ابتداء دخولنا النجف إلا بمقدار ما

يسمح لطالب جديد لا يملك من القدرة والمعارف إلا النزر القليل فلذا كنا نقتصر على زيارته لنستمع من نصائحه ومواعظه وبعد مدة من الزمن أتيح لنا وعرفنا أن السيد يلقي في المناسبات الإسلامية بعض المواضيع التي تخص الذكريات الإسلامية ولذا كنا نتوجه إلى مقبرة الإيرواني حيث كان يجتمع بعض تلامذة السيد والمستفيدين وقد كانت أولى المناسبات التي عرفّتنا على السيد عن قرب.

كانت مناسبات إسلامية رائعة يشبعها السيد تحليلاً ونقداً وتفنيداً. كان يطل من خلالها ويجعلنا نطل على نموذج جديد من الدراسة والمناسبة، لقد جعلنا نعيش الإسلام في أهم أحداثه ومعالمه ونتعرف على شؤونه وشجونه.. وبالحقيقة كان يفتح لنا الطريق إلى التفكير في تاريخنا ورجالنا والأحداث التي مرت... كان يفتح مدرسة جديدة لا تعرفها النجف إلا عند بعض رجالاتها التي انصرفت إليها وأما ان تعيشها الحوزة بجميع عناصرها أو بأغلب عناصرها فهذا لم يكن وهذا ما أراده السيد وأحب أن يكون..

وقد كانت محاضرات السيد يتيمة في النجف ينتظرها عارفوه وطلابه ومن يريدون الاستفادة والعلم منه... كانوا ينتظرون هذه المناسبات للحضور عنده والاستفادة مما يلقيه عليهم وقد كنتُ شخصياً أرغب فيها وأنتظرها وأتمنى لو تدوم كدرس منفرد مستقل يُعطي من الاهتمام ولو جزءاً يسيراً مما يعطي غيره من الدروس..

من هنا كانت نقطة البداية مع أستاذنا الشهيد ومنها انطلقنا لحضور درس الأصول ـ درس الخارج ـ حيث كان يلقيه في مقبرة تابعة للصحن الشريف وفي مسجد الجواهري وقد عشنا مع دروسه ما يزيد على الخمس سنوات كانت أحسن أيامنا وأشدها فائدة وبركة.. حيث كان الشهيد يحلل المطالب ويطرح الاحتمالات كلها في المسألة ثم يبتديء بعد عرضها بردها واحداً بعد الآخر حتى يبطل الجميع ما عدا ما يتبناه من الآراء.

أسلوب فريد:

وفي الحوزة العلمية منهاج فذ وطريقة علمية رائعة لم تصل إليه أعظم الجامعات وتتبناه إلا في العصور المتأخرة إنها مسألة البحث العلمي والمنهاج العلمي. .

إن طريقة العلماء في التدريس ـ وخصوصاً في درس الخارج ـ الدروس العالية في مصطلح العصر تأخذ في نظرها وفي أي مسألة كانت تأخذ المسألة المطروحة ثم تذكر جميع الاحتمالات في المسألة وتنقل جميع الأقوال فيها وبعد عرضها بهذا الأسلوب تأتي إلى إبطال الآراء كلها ما عدا الرأي المتبنى من قبل صاحبها وتسد جميع المنافذ إلا ما يراه طارحها وبهذا الأسلوب يبني الاستدلال على اليقين وترتفع جميع الاحتمالات وتبطل وهذا الأسلوب تتبعه الحوزات العلمية ويتمشى عليه العلماء.

والسيد الشهيد كان من أبرع اساتذتنا في هذا الفن. كان يستعرض المسألة المبحوث فيها ويشققها ويحللها ويذكر الاحتمالات الواردة فيها ثم يختار رأياً يتبناه و يبتديءبإبطال الآراء الأخرى والاحتمالات الباقية. . وقد كان يمتاز الشهيد بأسلوبه العربي الفصيح والبيان الواضح السلس السهل وقد عشنا أزهى أيامنا العلمية يوم كنا نحضر عليه دروسه ونرتشف من كأسه العلمي السليم. .

درس الفقه:

كان حضورنا لدرس الفقه على يد الشهيد الصدر متأخراً عن حضور درس الأصول بحوالي السنة وقد كان يلقيه في مسجد الشيخ الطوسي ـ شيخ الطائفة ـ وكان درسه صباحاً بعد درس السيد الأستاذ الخوئي حيث كنا نقصده للاستفادة منه وقد كان السيد الشهيد على طريقته في درس الأصول يستعرض المسألة ثم يطرح الاحتمالات الواردة فيها والأقوال التي وردت على ألسنة العلماء ثم يأخذ في بحثها ورد ما لم يكن صحيحاً بنظره وهكذا.

وأتذكر:

وفي يوم من الأيام وبينما كنا نستمع إلى درس الفقه قال الشهيد كلمة لا أزال أتذكرها وكأنها حية أمامي قال بعد جملة كلام إن الفقه في يدي كالعجينة يريدانه في الفقه صاحب خبرة ودراية وقد كان حقاً كذلك كنت تجد المسألة بتشعباتها واحتمالاتها والأقوال فيها كنت تراهاا أمام السيد كلقمة سهلة المنال لم يتوقف في مسألة ولم يتعثر في جواب ولم يتردد في حكم. . أختصه الله بعبقرية فذة يشهد له بها كل زملائه ومعارفه وصولاً إلى أساتذته ومدرسيه. .

درس التفسير:

كان السيد الشهيد مجدداً للحوزة من جميع جوانبها وفاتحاً لها باب الحياة من أوسع ما يكون. . لقد عاش في النجف بجسمه ولكنه مع العالم وتقدمه بكل عقله. . كان يعيش الإسلام في تطور الحياة وفي سعتها وعمقها وحضارتها. . . كان يريد أن يخلق من الحوزة ما يشد الناس إليها ليس على مستوى الفقه والأصول فحسب بل على كل مستويات الحياة وتشعباتها واختلاف درجاتها. . إنه يريد أن يجعل من العالم مؤرخاً ومفسراً وفقيهاً وأصولياً وأديباً واجتماعياً ولذا قرر قبل نهاية العطلة الصيفية أن يلقي علينا دروساً في التفسير الموضوعي وقد كانت على ما أتذكر أربعة عشر درساً قد كتبناها وهو يلقيها ولا تزال مسجلة في دفاترناالتي لم نقدر على حملها من العراق في الظروف الصعبة التي غادرنا فيها حيث كنا نخاف على أنفسنا من أنفسنا فكيف نستطيع حمل كلمات الشهيد في أوراق ودفاتر. .

التفسير الموضوعي:

يمتاز النابغة أنه لا يخضع لموازين الناس وعاداتها وتقاليدها وما درجوا عليه. . انه يخترق الساحة ليأتي بشيء جديد ويحرق الباطل بأوراق الحق التي يملكها وقد كان الشهيد من هذا النوع من العباقرة فلذا لم يسمع لما تحكيه الناس عنه ولما تقوله عن مقامه. . إنه يدرّس التفسير وهذا موضوع مهمل في النجف لم تتعود عليه الحوزة ولم يدرج في برنامج دراستها فلذا أراد الشهيد أن

يقول للحوزة أن كتاب الله له حق عليك وأنا سأسقط هذا الواجب عنك وأتحمل هذا الحق.. شرع الشهيد في درس التفسير الموضوعي ولم يعد يستوعب مسجد الشيخ الطوسي لكثرة من حضر الدرس.. كنت تجد كل طالب يحضر الدرس يحضر ومعه ورقة وقلم لكتابة ما يملي الشهيد أو مسجلة لتسجيل ما يحكي وهكذا دواليك..

كانت أربعة عشر درساً ليس في عمري بل في عمر النجف أروع منها وأشد بركة وأتذكر أن الدرس الرابع عشر والأخير كان درسَ موعظةٍ لنا، ودعنا السيد فيه وبكى وأبكانا جميعاً وزهدنا في الدنيا ورغبنا في الآخرة وأضحت كلمته التي يقولها: «من منا كان له ملك هارون الرشيد ولم يقتل موسى بن جعفر» أضحت كلمة يضرب بها المثل.. درس فيه الوداع.. دمعة من الأستاذ يقابلها دموع من الطلاب.. حتى تحول المسجد إلى صرخة واحدة وكأننا في مجلس عزاء.. لا.. لن أنسى ذلك الدرس ولن أنسى أستاذنا الشهيد..

رحلة التيجاني*

* الكاتب المعروف محمد التيجاني السماوي وهذه الرحلة مستلة من كتابه ثم اهتديت.

السفر إلى النجف

أعلمني صديقي ذات ليلة بأنّنا سنسافر غداً إن شاء الله إلى النجف، وسألته وما النجف؟ قال: إنّها مدينة علمية فيها مرقد الإمام علي بن أبي طالب، فتعجبت كيف يكون للإمام علي قبر معروف.

لأنّ شيوخنا يقولون أنّه لا وجود لقبر معروف لسيدنا علي، وسافرنا في سيّارة عمومية حتّى وصلنا إلى الكوفة وهناك نزلنا لزيارة جامع الكوفة وهو من الآثار الإسلامية الخالدة، وكان صديقي يريني الأماكن الأثرية ويزوّرني جامع مسلم بن عقيل وهانيء بن عروة ويحكي لي بإيجاز كيف استشهدا، كما أدخلني المحراب الذي استشهد فيه الإمام علي، وبعدها زرنا البيت الذي كان يسكنه الإمام مع ابنيه سيدنا الحسن وسيدنا الحسين، وفي البيت البئر التي كانوا يشربون منها ويتوضأون بمائها، وعشت لحظات روحيّة نسيت خلالها الدنيا وما فيها لأسبح في زهد الإمام وبساطة عيشه وهو أمير المؤمنين ورابع الخلفاء الرّاشدين.

ولا يفوتني أن أذكر الحفاوة والتواضع اللذين شاهدتها هناك في الكوفة فما مررنا بمجموعة إلاّ وقاموا إلينا وسلّموا علينا، وكأنّ صديقي يعرف الكثير منهم ودعانا أحدهم وهو مدير المعهد بالكوفة إلى بيته حيث إلتقينا بأولاده وبتنا عندهم ليلة سعيدة، وشعرت وكأنّي بين أهلي وعشيرتي، وكانوا إذا تكلّموا عن أهل السنّة والجماعة يقولون: «إخواننا من السنّة» فأنست بحديثهم وسألتهم بعض الأسئلة الاختباريّة لأتيقّن من صدق كلامهم.

تحولنا إلى النجف وهي تبعد عن الكوفة حوالي عشرة كيلو مترات وما أن وصلنا حتّى تذكّرت مسجد الكاظمية في بغداد فبدت المآذن الذهبية تحيط بقبّة من

الذهب الخالص ودخلنا إلى حرم الإمام بعد قراءة الإذن بالدخول كما هي عادة الزوّار من الشيعة، ورأيت هنا أعجب مما رأيت هناك في جامع موسى الكاظم، وكالعادة وقفت أقرأ الفاتحة وأنا أشكّ في أنّ هذا القبر يحوي جثمان الإمام علي، وكأنّي اقتنعت ببساطة ذلك البيت الذي كان يسكنه في الكوفة وقلت في نفسي حاشا للإمام علي أن يرضى بهذه الزخرفة من الذهب والفضّة بينما يموت المسلمون جوعاً في شتّى بقاع الدنيا، وخصوصاً لّما رأيت فقراء في الطريق يمدّون أيديهم للمارة طلباً للصدقة فكان لسان حالي يقول: أيها الشيعة أنتم مخطئون، اعترفوا على الأقلّ بهذا الخطأ فالإمام علي هو الذي بعثه رسول الله لتسوية القبور، فما لهذه القبور المشيّدة بالذهب والفضّة إنّها وإن لم تكن شركاً بالله فهي على الأقلّ خطأ فادح لا يغفره الإسلام.

وسألني صديقي وهو يمدّ إليّ قطعة من الطين اليابس هل أريد أن أصلّي، وأجبته في حدّة: نحن لا نصلّي حول القبور! قال: إذاً انتظرني قليلاً حتّى أصلّي ركعتين، وفي انتظاره كنت أقرأ اللّوحة المعلّقة على الضريح وأنظر إلى داخله من خلال القضبان الذهبية المنقوشة وإذا به مليء بالأوراق النقدية من كل الألوان من الدرهم والريال إلى الدينار والليرة وكلّها يلقيها الزوّار تبرّكاً للمساهمة في المشاريع الخيرية التابعة للمقام وظننت لكثرتها أنّ لها شهوراً، ولكنّ صديقي أعلمني في ما بعد أنّ المسؤولين عن تنظيف المقام يأخذون كل ذلك في كل ليلة بعد صلاة العشاء.

خرجت وراءه مدهوشاً وكأنّني تمنّيت أن يعطوني منها نصيباً أو يوزّعوها على الفقراء والمساكين وما أكثرهم هناك.

كنت ألتفت في كل اتّجاه داخل السور الكبير المحيط بالمقام حيث يصلّي جماعات من الناس هنا وهناك وينصت آخرون إلى بعض الخطباء الذين اعتلوا منبراً وكأنّي سمعت نواح بعضهم في صوت متهدّج.

ورأيت جموعاً من الناس يبكون ويلطمون على صدورهم وأردت أن أسأل صديقي، ما بال هؤلاء يبكون ويلطمون، ومرّت بقربنا جنازة وشاهدت بعضهم يرفع

الرّخام في وسط الصحن وينـزل الميّت هناك، فظننت أنّ بكاء هؤلاء لأجل الميّت العزيز عليهم.



لقاء العلماء

أدخلني صديقي إلى مسجد في جانب الحرم مفروش كلّه بالسجّاد وفي محرابه آيات قرآنية منقوشة بخط جميل، ولفت انتباهي مجموعة من الصبيان المعمّمين جالسين قرب المحراب يتدارسون وكل واحد في يده كتاب، فأعجبت لهذا المنظر الجميل ولم يسبق لي أن رأيت شيوخاً بهذا السنّ أعمارهم تتراوح ما بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة وقد زادهم جمالاً ذلك الزي فأصبحوا كالأقمار، سألهم صديقي عن «السيد» فأخبروه بأنّه يصلّي بالناس جماعة، ولم أفهم من هو «السيد» الذي سألهم عنه غير أنّني توقعت أنّه أحد العلماء.

وعرفت فيما بعد أنّه السيد الخوئي زعيم الحوزة العلمية للطائفة الشيعية.

مع العلم بأنّ لقب «السيد» عند الشيعة هو لقب لكل منحدرٍ من سلالة النبي (ص)، ويرتدي «السيد» العالم أو طالب العلوم الدينية عمامة سوداء، وأما العلماء الآخرون فيرتدون عمامة بيضاء ويلقّبون بـ «الشيخ» وهناك نوع من الأشراف الذين ليسوا بعلماء فلهم عمامة خضراء.

طلب إليهم صديقي أن أجلس معهم ريثما يذهب للقاء «السيد» ورحّبوا بي وأحاطوني بنصف دائرة وأنا أنظر في وجوههم وأستشعر براءتهم ونقاوة سريرتهم وأستحضر في ذهني حديث النبي (ص) حيث قال: «يولد المرء على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصرّانه أو يمجّسانه» وقلت في نفسي: أو يشيّعانه.

سألوني من أي البلاد أنا، قلت: من تونس، قالوا: هل يوجد عندكم حوزات علمية؟ أجبتهم: عندنا جامعات ومدارس، وانهالت عليّ الأسئلة من كل جانب، وكلّها أسئلة مركّزة ومحرجة، فماذا أقول لهؤلاء الأبرياء الذين يعتقدون أنّ في العالم الإسلامي كلّه حوزات علمية تدرّس الفقه وأصول الدين والشريعة

والتفسير، وما يدرون أنّ في عالمنا الإسلامي وفي بلداننا التي تقدّمت وتطوّرت، أبدلنا المدارس القرآنية بروضات للأطفال يشرف عليها راهبات نصرانيات فهل أقول لهم إنّهم ما زالوا «متخلّفين» بالنسبة إلينا؟.

وسألني أحدهم: ما هو المذهب المتبع في تونس؟ قلت: المذهب المالكي، قال: ألا تعرفون المذهب الجعفري: فقلت: خير إن شاء الله، ما هذا الاسم الجديد؟ لا، نحن لا نعرف غير المذاهب الأربعة وما عداها فليس من الإسلام في شيء.

وابتسم قائلاً: عفواً، إنّ المذهب الجعفري هو محض الإسلام، ألم تعرف بأنّ الإمام أبا حنيفة تتلمذ على يد الإمام جعفر الصادق»؟ وفي ذلك يقول أبو حنيفة: «لولا السنتان لهلك النعمان»، سكتُّ ولم أبدِ جواباً، فقد أدخل عليّ اسماً جديداً ما سمعت به قبل ذلك اليوم ولكنّي حمدت الله أنّه ـ أي إمامهم جعفر الصادق ـ لم يكن أستاذاً للإمام مالك وقلت نحن مالكية ولسنا أحنافاً.

فقال: إنّ المذاهب الأربعة أخذ بعضهم عن بعض فأحمد بن حنبل أخذ عن الشافعي والشافعي أخذ عن مالك وأخذ مالك عن أبي حنيفة وأبو حنيفة أخذ عن جعفر الصادق وعلى هذا فكلّهم تلاميذ لجعفر بن محمد، وهو أوّل من فتح جامعة إسلامية في مسجد جدّه رسول الله وقد تتلمذ على يديه أكثر من أربعة آلاف محدّث وفقيه، وعجبت لهذا الصبي الذكي الذي يحفظ ما يقول مثل ما يحفظ أحدنا سورة من القرآن، وقد أدهشني أكثر عندما كان يسرد عليّ بعض المصادر التاريخية التي يحفظ عدد أجزائها وأبوابها، وقد استرسل معي في الحديث وكأنّه أستاذ يعلّم تلميذه، وشعرت بالضعف أمامه، وتمنّيت لو أنّي خرجت مع صديقي ولم أبق مع الصبيان، فما سألني أحدهم عن شيء يخصّ الفقه أو التاريخ إلاّ وعجزت عن الجواب؛ سألني من أقلّد من الأئمة؟ قلت: الإمام مالك! قال: كيف تقلّد ميتاً بينك وبينه أربعة عشر قرناً، فإذا أردت أن تسأله الآن عن مسألة مستحدثة فهل يجيبك؟ فكّرت قليلاً وقلت: وأنت جعفرك مات أيضاً منذ أربعة عشر قرناً فمن تقلّد؟ أجاب بسرعة هو والباقون من الصبية: نحن نقلّد السيد الخوئي فهو إمامنا.

ولم أفهم أكان الخوئي أعلم أم جعفر الصادق، وبقيت معهم أحاول تغيير

الموضوع فكنت أسألهم عن أي شيء يلهيهم عن مسألتي فسألتهم عن عدد سكّان النجف وكم تبعد النجف عن بغداد وهل يعرفون بلداناً أخرى غير العراق، وكلّما أجابوا أعددت لهم سؤالاً غيره حتى أشغلهم عن سؤالي لأنّي عجزت وشعرت بالقصور، ولكن هيهات أن أعترف لهم وإن كنت في داخلي معترفاً إذ أنّ ذلك المجد والعزّ والعلم الذي ركبني في مصر تبخّر هنا وذاب، خصوصاً بعد لقاء هؤلاء الصبيان عرفت الحكمة القائلة:

فقل لمن يدّعي في العلم فلسفة عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء

وتصورت أنَ عقول هؤلاء الصبيان أكبر من عقول أولئك المشايخ الذين قابلتهم في الأزهر وأكبر من عقول علمائنا الذين عرفتهم في تونس.

ودخل السيد الخوئي ومعه كوكبة من العلماء عليهم هيبة ووقار، وقام الصبيان وقمت معهم، وتقدّموا من «السيد» يقبّلون يده، وبقيت مسمّراً في مكاني، ما إن جلس «السيد» حتى جلس الجمع وبدأ يحيّيهم بقوله: «مسّاكم الله بالخير» يقولها لكل واحد منهم فيجيبه بالمثل حتى وصل دوري فأجبت كما سمعت، بعدها أشار عليّ صديقي الذي تكلّم مع «السيد» همساً، بأن أدنو من «السيد» وأجلسني على يمينه وبعد التحية قال لي صديقي: أحكِ للسيد ماذا تسمعون عن الشيعة في تونس.

فقلت يا أخي كفانا من الحكايات التي نسمعها من هنا وهناك، والمهم هو أن أعرف بنفسي ماذا يقول الشيعة، وعندي بعض الأسئلة أريد الجواب عنها بصراحة.

فألحّ عليّ صديقي وأصرّ على أن أروي «للسيد» ما هو اعتقادنا في الشيعة، قلت: الشيعة عندنا هم أشدّ على الإسلام من اليهود والنصارى لأنّ هؤلاء يعبدون الله ويؤمنون برسالة موسى (ع)، بينما نسمع عن الشيعة أنّهم يعبدون عليّاً ويقدّسونه، ومنهم فرقة يعبدون الله ولكنهم ينزلون عليّاً بمنزلة رسول الله ورويت قصّة جبريل كيف أنّه خان الأمانة حسب ما يقولون وبدلاً من أداء الرسالة إلى علي أدّاها إلى محمد (ص).

أطرق «السيد» رأسه هنيهة ثم نظر إليّ وقال: نحن نشهد أن لا إله إلّا الله

وأنّ محمداً رسول الله صلّى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وما عليّ إلاّ عبد من عبيد الله والتفت إلى بقية الجالسين قائلاً ومشيراً إليّ: أنظروا إلى هؤلاء الأبرياء كيف تغلّطهم الإشاعات الكاذبة، وهذا ليس بغريب فقد سمعت أكثر من ذلك من أشخاص آخرين، فلا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم، ثم التفت إليّ وقال: هل قرأت القرآن»؟ قلت: حفظت نصه ولم أتخطّ العاشرة من عمري.

قال: هل تعرف أنّ كلّ الفرق الإسلامية على اختلاف مذاهبها متّفقة على القرآن الكريم، فالقرآن الموجود عندنا هو نفسه موجود عندكم.

قلت نعم هذا أعرفه.

قال: إذاً ألم تقرأ قول الله سبحانه وتعالى: **﴿وما محمّد إلاّ رسول، قد خلت من قبله الرسل﴾**[1].

وقوله أيضاً: **﴿محمّد رسول الله والذين معه أشدّاء على الكفار﴾**[2].

وقوله: **﴿ما كان محمّد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيّين﴾**[3].

قلت بلى أعرف هذه الآيات قال: فأين هو علي؟ إذا كان قرآننا يقول بأنّ محمداً هو رسول الله فمن أين جاءت هذه الفرية؟ سكتّ ولم أجد جواباً، وأضاف يقول: وأمّا خيانة جبريل «حاشاه فهذه أقبح من الأولى، لأنّ محمد كان عمره أربعين سنة عندما أرسل الله سبحانه إليه جبريل (ع)، ولم يكن عليّ إلاّ صبيّاً صغيراً عمره ستّ أو سبع سنوات، فكيف يا ترى يخطيء جبريل ولا يفرّق بين محمد الرجل وعلي الصبي؟

ثم سكتّ طويلاً بينما بقيت أفكّر في أقواله وأنا مطرق أحلّل وأتذّوق هذا الحديث المنطقي الذي نفذ إلى أعماقي وأزال غشاوة عن بصري وتساءلت في داخلي كيف لم نحلّل نحن بهذا المنطق.

---

(١) سورة آل عمران آية ١٤٤.

(٢) سورة الفتح: آية ٢٩.

(٣) سورة الأحزاب: الاية ٤٠.

أضاف «السيد الخوئي» يقول: وأزيدك بأنّ الشيعة هي الفرقة الوحيدة من بين كل الفرق الإسلامية الأخرى التي تقول بعصمة الأنبياء والأئمة، فإذا كان أئمتنا سلام الله عليهم معصومين عن الخطأ وهم بشر مثلنا، فكيف بجبريل وهو ملك مقرّب سمّاه ربّ العزّة بـ«الروح الأمين».

قلت: فمن أين جاءت هذه الدعايات؟

قال: من أعداء الإسلام الذين يريدون تفريق المسلمين وتمزيقهم وضرب بعضهم ببعض وإلّا فالمسلمون أخوة سواء كانوا شيعة أم سنّة فهم يعبدون الله وحده لا يشركون به شيئاً، وقرآنهم واحد ونبّيهم واحد وقبلتهم واحدة، ولا يختلف الشيعة عن السنّة إلّا في الأمور الفقهية كما يختلف أئمة المذاهب السنّية أنفسهم في ما بينهم فمالك يخالف أبا حنيفة، وهذا يخالف الشافعي وهكذا..

قلت: إذاً كل ما يحكى عنكم هو محض افتراء قال: أنت بحمد الله عاقل وتفهم الأمور وقد رأيت بلاد الشيعة وتجوّلت في أوساطهم فهل رأيت أو سمعت شيئاً من تلك الأكاذيب؟ قلت: لا لم أسمع ولم أر إلّا الخير وإنّي أحمد الله سبحانه أن عرّفني بالأستاذ منعم في الباخرة، فهو السبب في مجيئي إلى العراق وقد عرفت أشياء كثيرة كنت أجهلها فضحك صديقي منعم قائلاً: ومنها وجود قبر للإمام علي، فغمزته واستدركت قائلاً: بل تعلّمت أشياء جديدة حتى من هؤلاء الصبيان وتمنّيت لو أتيحت لي الفرصة وتعلّمت مثلهم في الحوزة العلمية هنا.

قال «السيد»: أهلاً وسهلاً، إن كنت تريد طلب العلم فالحوزة على ذمّتك، ونحن في خدمتك، ورحّب الحاضرون بهذا الاقتراح وخصوصاً صديقي منعم الذي تهلّل وجهه.

قلت: أنا متزوج وعندي ولدان: قال: نحن نتكّفل بكل مستلزماتكم من سكن ومعاش وكل ما تحتاجون إليه والمهم هو طلب العلم، فكّرت قليلاً وقلت في نفسي ليس من المعقول أن أصبح تلميذاً بعدما قضيت خمس سنوات وأنا أستاذ أمارس التعليم وتربية النشء؛ وليس من السهولة أن أتّخذ قراراً بمثل هذه السرعة.

شكرت السيد الخوئي على هذا العرض وقلت سوف أفكّر في الموضوع بجدّ

بعد رجوعي من العمرة بحول الله ولكنّي في حاجة إلى بعض الكتب، فقال السيد: أعطوه الكتب، ونهض جمع من العلماء وفتحوا عدّة خزانات وما هي إلاّ لحظات حتى وجدت أمامي أكثر من سبعين مجلداً فكل واحد جاءني بدورة من الكتب وقال: هذه هدّيتي، ورأيت أنّه لا يمكنني حمل هذا العدد الكبير معي خصوصاً وأنّي متوجّه إلى السعودية الذين يمنعون دخول أي كتاب إلى بلادهم خوفاً من تفشّي بعض العقائد التي تخالف مذهبهم ولكنّي ما أردت التفريط بهذه الكتب التي لم تر عيني مثلها في سابق حياتي.

فقلت لصديقي وللحاضرين بأنّ طريقي طويل يمرّ بدمشق والأردن إلى السعودية وفي العودة سيكون أطول فسأمرّ بمصر وليبيا حتى الوصول إلى تونس، وزيادة على ثقل الحمل فإنّ أغلب الدول تمنع دخول الكتب، فقال «السيد» أترك لنا عنوانك ونحن نتكفّل بإرسالها إليك، واستحسنت هذا الرأي وأعطيته بطاقة شخصية بها عنواني في تونس، وشكرت فضله، ولّما ودّعته ونهضت للخروج، نهض معي قائلاً: أسأل الله لك السّلامة وإذا وقفت على قبر جدّي رسول الله فبلّغه منّي السلام وتأثّر الحاضرون وتأثّرت كثيراً وأنا أنظر إلى عينيه تدمعان، وقلت في نفسي حاشا لله أن يكون هذا من المخطئين حاشا لله أن يكون هذا من الكاذبين، إنّ هيبته وعظمته وتواضعه تنبيء حقّاً أنه من سلالة الشرف، فما كان منّي إلاّ أن أخذت يده وقبّلتها رغم ممانعته.

وقام الجميع لقيامي وسلّموا عليّ، وتبعني بعض الصبية من الذين كانوا يجادلونني وطلبوا منّي عنواني للمراسلة فأعطيتهم إيّاه

اتّجهنا من جديد إلى الكوفة بدعوة أحد الذين كانوا في مجلس السيد الخوئي وهو صديق منعم اسمه أبو شبّر، نزلنا في بيته وسهرنا ليلة كاملة مع مجموعة من الشبّان المثقّفين وكان من بينهم بعض طلبة السيد محمد باقر الصدر فأشاروا عليّ بمقابلته وتعهدوا بأنّهم سيرتبون لقائي مع حضرته في اليوم التالي، واستحسن صديقي منعم هذا الاقتراح ولكنّه تأسّف لعدم إمكانية حضوره لأنّ له شغلاً في بغداد يستلزم حضوره، واتّفقنا على أنّ أبقى في بيت السيد أبو شبّر ثلاثة أيام أو أربعة ريثما يعود منعم، الذي غادرنا بعد صلاة الفجر وقمنا نحن للنوم وقد

استفدت كثيراً من طلبة العلوم الذين سهرت معهم وتعجّبت من تنوّع العلوم التي يتلقّونها في الحوزة فهم زيادة على العلوم الإسلامية من فقه وشريعة وتوحيد يدرسون العلوم الاقتصادية والعلوم الاجتماعية والسياسية، والتاريخ واللغات وعلوم الفلك وغير ذلك.



لقاء مع السيد محمد باقر الصدر

اتّجهت بصحبة السيد أبو شبّر إلى بيت السيد محمد باقر الصدر وفي الطريق كان يلاطفني ويعطيني بسطة عن العلماء المشهورين وعن التقليد وغير ذلك، ودخلنا على السيد محمد باقر الصدر في بيته وكان مليئاً بطلبة العلوم وأغلبهم من الشبّان المعمّمين وقام السيد يسلّم علينا، وقدّموني إليه فرحّب بي كثيراً وأجلسني بجانبه وأخذ يسألني عن تونس والجزائر وعن بعض العلماء المشهورين أمثال الخضر حسين والطاهر بن عاشور وغيرهم، وأنست بحديثه ورغم الهيبة التي تعلوه والاحترام الذي يحوطه به جلساؤه، وجدت نفسي غير محرج وكأنّي أعرفه من قبل واستفدت من تلك الجلسة إذ كنت أسمع أسئلة الطلبة وأجوبة السيد عليها، وعرفت وقتها قيمة تقليد العلماء الأحياء الذين يجيبون عن كل الإشكالات مباشرة وبكل وضوح، وتيقّنت أيضاً من أنّ الشيعة مسلمون يعبدون الله وحده ويؤمنون برسالة نبينا محمد (ص) وسلم، إذ كان بعض الشكّ يراودني والشيطان يوسوس لي بأنّ ما شاهدته قبل هو تمثيل، وربّما يكون ما يسمّونه بالتقية، أي أنّهم يُظهرون ما لا يعتقدون، ولكن سرعان ما يزول الشك وتضمحلّ تلك الوساوس، إذ لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يتّفق كل من رأيتهم وسمعتهم وهم مئات على هذا التمثيل ثم لماذا هذا التمثيل؟ ومن هو أنا، ما يهمّهم من أمري حتّى يستعملوا معي هذه التقية ثم هذه كتبهم القديمة التي كتبت منذ قرون والحديثة التي طبعت منذ شهور وكلّها توحّد الله وتثني على رسوله محمّد كما قرأت ذلك في مقدّماتها، وها أنا الآن في بيت السيد محمد باقر الصدر المرجع المشهور في العراق وفي خارج العراق وكلّما ذكر اسم محمّد صاح الجميع في صوت واحد: «اللهم صلّ على محمد وآل محمد».

وجاء وقت الصّلاة وخرجنا إلى المسجد وكان بجوار البيت وصلّى بنا السيد محمد باقر الصدر صلاة الظهر والعصر، وأحسست بأنّي أعيش وسط الصحابة الكرام فقد تخلّل الصلاتين دعاء رهيب من أحد المصلّين، وكان له صوت شجي ساحر وبعدما أنهى الدّعاء صاح الجميع «اللهمّ صلّ على محمد وآل محمد» وكان الدعاء كلّه ثناءً وتمجيداً على الله جلّ جلاله ثم على محمّد وآله الطيبين الطاهرين.

وجلس السيد في المحراب بعد الصلاة.

وأخذ بعضهم يسلّمون عليه ويسألونه سرّاً وعلانية وكان يجيب سرّاً عن بعض الأسئلة التي فهمت أنّها تتطلّب الكتمان لأنّها تتعلّق بشؤون خاصّة، وكان السائل إذا حصل على الجواب يقبّل يده وينصرف، هنيئاً لهم بهذا العالم الجليل الذي يحل مشاكلهم ويعيش همومهم.

رجعنا بصحبة السيد الذي أولاني من الرعاية والعناية وحسن الضيافة ما أنساني أهلي وعشيرتي وأحسست بأنّي لو بقيت معه شهراً واحداً لتشيّعت لحسن أخلاقه وتواضعه وكرم معاملته، فلم أنظر إليه إلاّ وابتسم في وجهي وابتدرني بالكلام، وسألني هل ينقصني شيء، فكنت لا أغادره طيلة الأيام الأربعة إلاّ للنّوم، رغم كثرة زوّاره والعلماء الوافدين عليه من كل الأقطار، فقد رأيت السعوديين هناك ولم أكن أتصوّر بأنّ في الحجاز شيعة، وكذلك علماء من البحرين ومن قطر ومن الإمارات ومن لبنان وسوريا وإيران وأفغانستان ومن تركيا ومن أفريقيا السوداء وكان السيد يتكلّم معهم ويقضي حوائجهم ولا يخرجون من عنده إلاّ وهم فرحون مسرورون، ولا يفوتني أن أذكر هنا قضية حضرتها وأعجبت في كيفية فصلها، وأذكرها للتاريخ لما لها من أهميّة بالغة حتى يعرف المسلمون ماذا خسروا بتركهم حكم الله.

جاء إلى السيد محمد باقر الصدر أربعة رجال أظنّهم عراقيين عرفت ذلك من لهجتهم، كان أحدهم ورث مسكناً من جدّه الذي توفّي منذ سنوات وباع ذلك المسكن إلى شخص ثان كان هو الآخر حاضراً، وبعد سنة من تاريخ البيع جاء أخوان، وأثبتا أنّهما وارثان شرعيان للميّت، وجلس أربعتهم أمام السيد وأخرج كل

واحد منهم أوراقه وما عنده من حجج وبعدما قرأ السيد كل أوراقهم وتحدّث معهم بضع دقائق حكم بينهم بالعدل، فأعطى الشاري حقّه في التصرّف بالمسكن وطلب من البائع أن يدفع للأخوين نصيبهما من الثمن المقبوض، وقام الجميع يقبّلون يده، ويتعانقون، ودهشت لهذا ولم أصدّق، وسألت أبا شبّر، هل انتهت القضية؟ قال: «خلاص كلّ أخذ حقّه»، سبحان الله! بهذه السهولة، وبهذا الوقت الوجيز، بضع دقائق فقط كافية لحسم النّزاع؟ إنّ مثل هذه القضية في بلادنا تستغرق عشر سنوات على أقل تقدير ويموت بعضهم، ويواصل أولاده بعده تتبّع القضية ويصرفون رسوم المحكمة والمحامين ما يكلّفهم في أغلب الأحيان ثمن المسكن نفسه، ومن المحكمة الابتدائية إلى محكمة الاستئناف ثم إلى التعقيب وفي النهاية يكون الجميع غير راضين بعدما يكونون قد أنهكوا بالتّعب والمصاريف والرشوة، والعداوة والبغضاء بين عشائرهم وذويهم، أجابني أبو شبّر، وعندنا أيضاً نفس الشيء أو أكثر فقلت: كيف؟ قال: إذا رفع الناس شكواهم إلى المحاكم الحكومية، فيكون مثل ما حكيت أما إذا كانوا يقلّدون المرجع الديني ويلتزمون بالأحكام الإسلامية، فلا يرفعون قضاياهم إلاّ إليه فيفصلها في بضع دقائق كما رأيت، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يعقلون؟ والسيد الصدر لم يأخذ منهم فلساً واحداً، ولو ذهبوا إلى المحاكم الرسميّة لتعرّت رؤوسهم.

ضحكت لهذا التعبير الذي هو سارٍ عندنا أيضاً وقلت: سبحان الله! أنا لا زلت مكذباً ما رأيت، ولولا ما شاهدته بعينيّ ما كنت لأصدّق أبداً، فقال أبو شبّر: لا تكذب يا أخي فهذه بسيطة بالنسبة إلى غيرها من القضايا التي هي أشدّ تعقيداً وفيها دماء، ومع ذلك يحكم فيها المراجع ويفصلونها في سويعات، فقلت متعجّباً: إذاً عندكم في العراق حكومتان، حكومة الدولة وحكومة رجال الدين، فقال: كلاّ عندنا حكومة الدولة فقط، ولكنّ المسلمين من الشيعة الذين يقلّدون مراجع الدّين، لا علاقة لهم بالحكومة، لأنّها ليست حكومة إسلامية فهم خاضعون لها بحكم المواطنية والضرائب والحقوق المدنية والأحوال الشخصية، فلو تخاصم مسلم ملتزمٌ مع أحد المسلمين غير الملتزمين فسوف يضطرّ حتماً لرفع قضيته إلى محاكم الدولة، لأنّ هذا الأخير لا يرضى بتحكيم رجال الدّين ـ أمّا إذا كان المتخاصمان ملتزمين فلا

إشكال هناك، وما يحكم به المرجع الديني نافذ على الجميع.

وعلى هذا الأساس تحلّ القضايا التي يحكم فيها المرجع في يومها بينما تظلّ القضايا الأخرى شهوراً بل أعواماً.

إنّها حادثة حركت في نفسي شعور الرّضى بأحكام الله سبحانه وتعالى وفهمت معنى قوله تعالى في كتابه المجيد:

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون،... ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون...﴾[1] صدق الله العظيم.

كما حرّكت في نفسي شعور النقمة والثورة على هؤلاء الظلمة الذين يبدّلون أحكام الله العادلة بأحكام وضعية بشرية جائرة، ولا يكفيهم كل ذلك بل ينتقدون بكل وقاحة وسخرية الأحكام الإلهية، ويقولون بأنّها بربرية ووحشية لأنّها تقيم الحدود فتقطع يد السارق وترجم الزّاني، وتقتل القاتل، فمن أين جاءتنا هذه النظريات الغريبة عنّا وعن تراثنا، لا شكّ أنّها من الغرب ومن أعداء الإسلام الذين يدركون أنّ تطبيق أحكام الله يعني القضاء عليهم نهائياً، لأنّهم سرّاق، خونة، زناة، مجرمون وقتلة.

ولو طبقت أحكام الله عليهم لاسترحنا من هؤلاء جميعاً وقد دارت بيني وبين السيد محمد باقر الصدر في تلك الأيام حوارات عديدة وكنت أسأله عن كل صغيرة وكبيرة من خلال ما عرفته من الأصدقاء الذين حدّثوني عن كثير من عقائدهم وما يقولونه في الصحابة رضي الله عنهم وما يعتقدونه في الأئمة الاثني عشر علي وبنيه، وغير ذلك من الأشياء التي نخالفهم فيها.

سألت السيد الصدر عن الإمام علي، ولماذا يشهدون له في الآذان بأنّه وليّ الله؟ أجاب قائلاً: إنّ أمير المؤمنين عليّاً سلام الله عليه وهو عبد من عبيد الله الذين اصطفاهم وشرّفهم ليواصلوا حمل أعباء الرسالة بعد أنبيائه وهؤلاء هم أوصياء الأنبياء،

(١) سورة المائدة: الآيات ٤٤ ـ ٤٥ ـ ٤٧.

فلكل نبي وصي وعلي بن أبي طالب هو وصيّ محمد، ونحن نفضّله على سائر الصحابة بما فضّله الله ورسوله ولنا في ذلك أدلّة عقلية ونقلية من القرآن والسنّة وهذه الأدلّة لا يمكن أن يتطرّق إليها الشكّ لأنّها متواترة وصحيحة من طرقنا وحتى من طرق أهل السنّة والجماعة، وقد ألّف في ذلك علماؤنا العديد من الكتب، ولمّا كان الحكم الأموي يقوم على طمس هذه الحقيقة ومحاربة أمير المؤمنين علي وأبنائه وقتلهم، ووصل بهم الأمر إلى سبّه ولعنه على منابر المسلمين وحمل الناس على ذلك بالقهر والقوة، فكان شيعته وأتباعه رضي الله عنهم يشهدون أنّه وليّ الله، ولا يمكن للمسلم أن يسبّ وليّ الله وذلك تحدّياً منهم للسلطة الغاشمة حتى تكون العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين، وحتّى تكون حافزاً تاريخياً لكل المسلمين عبر الأجيال فيعرفون حقيقة علي وباطل أعدائه.

ودأب فقهاؤنا على الشهادة لعلي بالولاية في الأذان والإقامة استحباباً، لا بنيّة أنّها جزء من الآذان أو الإقامة فإذا نوى المؤذّن أو المقيم أنّها جزء بطل أذانه وإقامته.

والمستحبّات في العبادات والمعاملات لا تحصى كثرتها والمسلم يثاب على فعلها ولا يعاقب على تركها، وقد ورد على سبيل المثال أنّه يذكر استحباباً بعد شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله، بأن يقول المسلم، وأشهد أنّ الجنّة حقّ والنار حقّ وأنّ الله يبعث من في القبور.

قلت: إنّ علماءنا علّمونا: أنّ أفضل الخلفاء على التحقيق سيدنا أبو بكر الصدّيق، ثم سيدنا عمر الفاروق ثم سيدنا عثمان ثم سيدنا علي رضي الله تعالى عنهم أجمعين؟ سكت السيد قليلاً، ثم أجابني.

لهم أن يقولوا ما يشاؤون، ولكن هيهات أن يثبتوا ذلك بالأدلّة الشرعيّة، ثم إنّ هذا القول يخالف صريح ما ورد في كتبهم الصحيحة المعتبرة، فقد جاء فيها: أن أفضل الناس أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ولا وجود لعلي بل جعلوه من سوقة الناس وإنّما ذكره المتأخرون استحباباً لذكر الخلفاء الراشدين.

سألته بعد ذلك عن التربة التي يسجدون عليها والتي يسمّونها «بالتربة الحسينية» أجاب قائلاً:

يجب أن يُعرف قبل كل شيء أنّنا نسجد على التراب، ولا نسجد للتراب، كما

يتوهّم البعض الذين يشهّرون بالشيعة، فالسجود هو لله سبحانه وتعالى وحده، والثابت عندنا وعند أهل السنّة أيضاً أنّ أفضل السجود على الأرض أو ما أنبتت الأرض من غير المأكول، ولا يصحّ السجود على غير ذلك، وقد كان رسول الله (ص) يفترش التراب وقد اتّخذ له خمرة من التراب والقش يسجد عليها، وعلّم أصحابه رضوان الله عليهم فكانوا يسجدون على الأرض، وعلى الحصى، ونهاهم أن يسجد أحدهم على طرف ثوبه، وهذا من المعلومات بالضرورة عندنا.

وقد اتّخذ الإمام زين العابدين وسيد الساجدين علي بن الحسين (عليهما السلام) تربة من قبر أبيه أبي عبد الله باعتبارها تربة زكية طاهرة سالت عليها دماء سيد الشهداء، واستمرّ على ذلك شيعته إلى يوم الناس هذا، فنحن لا نقول بأنّ السجود لا يصحّ إلا عليها، يل نقول بأنّ السجود يصحّ على أي تربة أو حجرة طاهرة كما يصحّ على الحصير والسّجاد المصنوع من سعف النخيل وما شابه ذلك.

قلت ـ على ذكر سيدنا الحسين رضي الله عنه ـ لماذا يبكي الشيعة ويلطمون ويضربون أنفسهم حتّى تسيل الدّماء وهذا محرّم في الإسلام، فقد قال (ص): «ليس منا من لطم الخدود وشقّ الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية».

أجاب السيد قائلاً: الحديث صحيح لا شكّ فيه ولكنّه لا ينطبق على مأتم أبي عبدالله، فالذي ينادي بثأر الحسين ويمشي على درب الحسين دعوته ليست دعوى جاهلية، ثم إنّ الشيعة بشر فيهم العالم وفيهم الجاهل ولديهم عواطف، فإذا كانت عواطفهم تطغى عليهم في ذكر استشهاد أبي عبدالله وما جرى عليه وعلى أهله وأصحابه من قتل وهتك وسبي، فهم مأجورون لأنّ نواياهم كلّها في سبيل الله، والله سبحانه وتعالى يعطي العباد على قدر نواياهم، وقد قرأت منذ أسبوع التقارير الرّسمية للحكومة المصرية بمناسبة موت جمال عبدالناصر، تقول هذه التقارير الرسمية بأنّه سجّل أكثر من ثماني حالات انتحارية قتل أصحابها أنفسهم عند سماع النّبأ فمنهم من رمى نفسه من أعلى العمارة ومنهم من ألقى بنفسه تحت القطار وغير ذلك، وأمّا المجروحون والمصابون فكثيرون، وهذه أمثلة أذكرها للعواطف التي تطغى على أصحابها وإذا كان الناس وهم مسلمون بلا شك يقتلون أنفسهم من أجل موت جمال عبد الناصر وقد مات موتاً طبيعياً، فليس من حقّنا ـ بناءً على مثل هذا ـ أن نحكم على أهل السنّة بأنّهم مخطئون.

وليس لأخواننا من أهل السنّة أن يحكموا على إخوانهم من الشيعة بأنّهم مخطئون في بكائهم على سيد الشهداء، وقد عاشوا محنة الحسين وما زالوا يعيشونها حتى اليوم، وقد بكى رسول الله نفسه على ابنه الحسين وبكى جبريل لبكائه.

ـ قلت ولماذا يزخرف الشيعة قبور أوليائهم بالذهب والفّضة وهو محرّم في الإسلام؟.

أجاب السيد الصدر: ليس ذلك منحصراً بالشيعة، ولا هو حرام فها هي مساجد إخواننا من أهل السنّة سواء في العراق أو في مصر أو في تركيا أو غيرها من البلاد الإسلامية مزخرفة بالذهب والفضّة وكذلك مسجد رسول الله في المدينة المنورة وبيت الله الحرام في مكّة المكرّمة الذي يُكسى في كل عام بحلّة ذهبية جديدة يصرف فيهاالملايين، فليس ذلك منحصراً بالشيعة.

قلت: إنّ علماء السعودية يقولون: إنّ التمسّح بالقبور ودعوة الصالحين والتبرّك بهم، شرك بالله، فما هو رأيكم؟ أجاب السيد محمد باقر الصدر:

إذا كان التمسّح بالقبور ودعوة أصحابها بنيّة أنّهم يضرّون وينفعون، فهذا شرك، لا شكّ فيه: وإنّما المسلمون موحّدون ويعلمون أنّ الله وحده هو الضارّ والنافع وإنّما يدعون الأولياء والأئمة (عليهم السلام) ليكونوا وسيلتهم إليه سبحانه وهذا ليس بشرك، والمسلمون سنّة وشيعة متّفقون على ذلك من زمن الرّسول إلى هذا اليوم، عدا الوهّابيّة وهم علماء السعودية الذين ذكرت والذين خالفوا إجماع المسلمين بمذهبهم الجديد الذي ظهر في هذا القرن، وقد فتنوا المسلمين بهذا الاعتقاد وكفّروهم وأباحوا دماءهم، فهم يضربون الشيوخ من حجّاج بيت الله الحرام لمجرّد قول أحدهم: السلام عليك يا رسول الله، ولا يتركون أحداً يتمسّح على ضريحه الطاهر، وقد كان لهم مع علمائنا مناظرات، ولكنّهم أصرّوا على العناد واستكبروا استكباراً.

فإنّ السيد شرف الدين من علماء الشيعة لّما حجّ بيت الله الحرام في زمن عبدالعزيز آل سعود، كان من جملة العلماء المدعوين إلى قصر الملك لتهنئته بعيد الأضحى كما جرت العادة هناك ولّما وصل الدور إليه وصافح الملك قدّم إليه هديّة وكانت مصحفاً ملفوفاً في جلد، فأخذه الملك وقبّله ووضعه على جبهته تعظيماً له وتشريفاً، فقال

له السيد شرف الدين عندئذ: أيها الملك لماذا تقبّل الجلد وتعظّمه وهو جلد ماعز؟ أجاب الملك، أنا قصدت القرآن الكريم الذي بداخله ولم أقصد تعظيم الجلد! فقال السيد شرف الدين عند ذلك: أحسنت أيها الملك، فكذلك نفعل نحن عندما نقبّل شبّاك الحجرة النبويّة أو بابها فنحن نعلم أنّه حديد لا يضرّ ولا ينفع، ولكنّنا نقصد ما وراء الحديد وما وراء الأخشاب نحن نقصد بذلك تعظيم رسول الله (ص)، كما قصدت أنت القرآن بتقبيلك جلد الماعز الذي يغلّفه.

فكبّر الحاضرون إعجابًا له وقالوا: صدقت، واضطرّ الملك وقتها إلى السّماح للحجّاج أن يتبركوا بآثار الرسول حتّى جاء الذي بعده فعاد إلى القرار الأول ـ فالقضية ليست خوفهم أن يشرك الناس بالله، بقدر ما هي قضية سياسية قامت على مخالفة المسلمين وقتلهم لتدعيم ملكهم وسلطتهم على المسلمين والتاريخ أكبر شاهد على ما فعلوه في أمّة محمد.

وسألته عن الطرق الصوفية فأجابني بإيجاز: بأنّ فيها ما هو إيجابي وفيها ما هو سلبي، فالإيجابي منها تربية النفس وحملها على شظف العيش والزهد في ملذّات الدنيا الفانية، والسموّ بها إلى عالم الأرواح الزكية، أمّا السلبي منها، فهو الانزواء والهروب من واقع الحياة وحصر ذكر الله في الأعداد اللفظية وغير ذلك، والإسلام ـ كما هو معلوم ـ يقرّ الإيجابيات ويطرح السلبيات ويحقّ لنا أن نقول بأنّ مبادىء الإسلام وتعاليمه كلّها إيجابية.

الشك والحيرة

كانت أجوبة السيد محمد باقر الصدر، واضحة ومقنعة ولكن أنّى لها أن تغوص في أعماق واحدٍ مثلي قضى خمسةً وعشرين عاماً من عمره على مبدأ تقديس الصحابة واحترامهم وخصوصاً الخلفاء الراشدين الذين أمرنا رسول الله بالتمسّك بسنّتهم والسير على هديهم، وعلى رأس هؤلاء سيدنا أبو بكر الصدّيق وسيدنا عمر الفاروق، وإنّي لم أسمع لهما ذكراً منذ قدمت العراق، وإنّما سمعت أسماء أخرى غريبة عني أجهلها تماماً، وأئمة بعدد اثني عشر إماماً، وإدّعاءً بأن رسول الله (ص) قد نصّ على الإمام علي

بالخلافة قبل وفاته، كيف لي أن أصدّق ذلك.

أي أن يتّفق المسلمون وهم الصحابة الكرام خير البشر بعد رسول الله ويتصافقوا ضد الإمام علي كرّم الله وجهه، وقد علّمونا منذ نعومة أظافرنا بأنّ الصحابة رضي الله عنهم كانوا يحترمون الإمام علياً ويعرفون حقّه فهو زوج فاطمة الزهراء وأبو الحسن والحسين وباب مدينة العلم، كما يعرف سيدنا علي حقّ أبي بكر الصدّيق الذي أسلم قبل الناس جميعاً وصاحب رسول الله في الغار ذكره الله تعالى في القرآن، وقد ولاّه رسول الله إمامة الصّلاة في مرضه وقد قال (ص): لو كنت متخذاً خليلاً لاتّخذت أبا بكر خليلاً، ولكن ذلك اختاره المسلمون خليفة لهم، كما يعرف الإمام علي حق سيدنا عمر الذي أعزّ الله به الإسلام وسمّاه رسول الله بالفاروق الذي يفرّق بين الحق والباطل كما يعرف حقّ سيدنا عثمان الذي استحت منه ملائكة الرحمن والذي جهّز جيش العسرة وسمّاه رسول الله بذي النورين، فكيف يجهل إخواننا الشيعة كل هذا أو يتجاهلونه ويجعلون من هؤلاء أشخاصاً عاديين تميل بهم الأهواء والأطماع الدنيوية عن اتّباع الحق فيعصون أوامر الرسول بعد وفاته وهم الذين كانوا يتسابقون لتنفيذ أوامره فيقتلون أولادهم وآباءهم وعشيرتهم في سبيل عزّة الإسلام ونصرته، والذي يقتل أباه وولده طاعةً لله ورسوله لا يمكن أن تغرّه أطماع دنيوية زائلة هي اعتلاء منصة الخلافة فيتجاهل أمر رسول الله ويتركه ظهرياً.

نعم من أجل كل هذا ما كنت لأصدّق الشيعة في كل ما يقولون رغم أنّي اقتنعت بأمور كثيرة، وبقيت بين الشك والحيرة، الشكّ الذي أدخله علماء الشيعة في عقلي لأنّ كلامهم معقول ومنطقي، والحيرة التي غمرتني فلم أصدّق أنّ الصحابة رضي الله تعالى عنهم ينزلون إلى هذا المستوى الأخلاقي فيصبحون بشراً عاديين مثلنا، لم تصقلهم أنوار الرسالة ولم يهذبهم الهدى المحمدي؟ يا إلهي كيف يكون ذلك؟ أيمكن أن يكون الصحابة على هذا المستوى الذي يقول به الشيعة؟ والمهم هو أنّ هذا الشكّ وهذه الحيرة هما بداية الوهن وبداية الاعتراف بأنّ هناك أموراً مستورة لا بدّ من كشفها للوصول إلى الحقيقة.

جاء الصديق منعم وسافرنا إلى كربلاء، وهنا عشت محنة سيدنا الحسين كما يعيشها شيعته وعلمت وقتئذ بأنّ سيدنا الحسين لم يمت، فالنّاس يتزاحمون ويتراصّون حول ضريحه كالفراشات ويبكون بحرقة ولهفة لم أشهد لهما مثيلاً، فكأنّ الحسين استشهد

الآن، وسمعت الخطباء هناك يثيرون شعور الناس بسردهم لحادثة كربلاء في نواح ونحيب، ولا يكاد السّامع لهم أن يمسك نفسه ويتماسك حتّى ينهار، فقد بكيت وبكيت وأطلقت لنفسي عنانها وكأنّها كانت مكبوتة، وأحسست براحة نفسية كبيرة ما كنت أعرفها قبل ذلك اليوم، وكأنّي كنت في صفوف أعداء الحسين وانقلبت فجأة إلى أصحابه وأتباعه الذين يفدونه بأرواحهم، وكان الخطيب يستعرض قصّة الحرّ وهو أحد القادة المكلّفين بقتال الحسين، ولكنّه وقف في المعركة يرتعش كالسّعفة ولّما سأله بعض أصحابه: أخائف أنت من الموت أجابه الحرّ، لا والله ولكنّني أخيّر نفسي بين الجنة والنّار ثم همز جواده وانطلق إلى الحسين قائلاً: هل من توبة يابن رسول الله، ولم أتمالك عند سماع هذا أن سقطّت على الأرض باكياً وكأنّي أمثّل دور الحرّ وأطلب من الحسين: هل من توبة يا ابن رسول الله، سامحني يا ابن رسول الله، وكان صوت الخطيب مؤثراً، وارتفعت أصوات الناس بالبكاء والنّحيب عند ذلك سمع صديقي صياحي وانكبّ عليّ معانقاً، باكياً وضمّني إلى صدره كما تضمّ الأم ولدها وهو يردّد يا حسين، يا حسين، كانت دقائق ولحظات عرفت فيها البكاء الحقيقي وأحسست وكأنّ دموعي غسلت قلبي وكل جسدي من الداخل وفهمت وقتها حديث الرسول: «لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً».

بقيت كامل اليوم مقبوض النفس وقد حاول صديقي تسليتي وتعزيتي وقدّم إليّ بعض المرطّبات ولكن شهيّتي انقطعت تماماً، وبقيت أسأله أن يعيد عليّ قصّة مقتل سيدنا الحسين، لأنّي ما كنت أعرف منها قليلاً أو كثيراً غاية ما هناك أنّ شيوخنا إذا حدّثونا عن ذلك يقولون أنّ المنافقين أعداء الإسلام الذين قتلوا سيدنا عمر وسيدنا عثمان وسيدنا علي هم الذين قتلوا سيدنا الحسين، ولا نعرف غير هذا الاقتضاب بل إنّنا نحتفل بيوم عاشوراء على أنّه من الأعياد الإسلامية وتخرج فيه زكاة الأموال وتطبخ فيه شتى المأكولات وأنواع الأطعمة الشهيّة، ويطوف الصبيان على الكبار ليعطوهم بعض النقود لشراء الحلويات والألعاب.

صحيح أنّ هناك بعض التقاليد والعادات في بعض القرى منها أنّهم يشعلون النار، ولا يعملون في ذلك اليوم ولا يتزوّجون ولا يفرحون، ولكن نسمّيها عادات وتقاليد بدون ذكر أي تفسير لها، ويروي علماؤنا في ذلك أحاديث عن فضائل يوم

عاشوراء وما فيه من بركات ورحمات إنه أمر عجيب!.

زرنا بعد ذلك ضريح العبّاس أخي الحسين، ولم أكن أعرف من هو وقد روى لي صديقي قصة بطولته وشجاعته، كما التقينا بالعديد من العلماء الأفاضل الذين لا أتذكر أسماءهم بالتفصيل سوى بعض الألقاب، كبحر العلوم والسيد الحكيم وكاشف الغطاء وآل ياسين والطباطبائي والفيروز آبادي وأسد حيدر وغيرهم ممن تشرّفت بمقابلتهم.

والحق يقال إنّهم علماء أتقياء، تعلوهم هيبة ووقار، والشيعة يحترمونهم كثيراً ويؤدّون إليهم خمس أموالهم، والتي بها يديرون شؤون الحوزات العلمية ويؤسسون المدارس والمطابع وينفقون على طلّاب العلم الوافدين من كل البلاد الإسلامية، إنّهم مستقلّون ولا يرتبطون بالحكّام من قريب أو من بعيد كما هو شأن علمائنا الذين لا يفتون ولا يتكلّمون إلّا برأي السلطة التي تضمن معاشهم، وتعزل من تشاء منهم وتنصّب من تشاء.

إنّه عالم جديد بالنّسبة إليّ اكتشفته، أو كشفه الله لي وقد أنست به بعدما كنت أنفر منه وانسجمت معه بعدما كنت أعاديه، وقد أفادني هذا العالم أفكاراً جديدة وبعث فيّ حُبَّ الاطلاع والبحث والدراسة حتى أدرك الحقيقة المنشودة التي طالما راودتني عندما قرأت الحديث الشريف الذي قال فيه رسول الله (ص): «افترقت بنو إسرائيل إلى إحدى وسبعين فرقة وافترقت النّصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمّتي إلى ثلاثةٍ وسبعين فرقة كلّها في النار إلّا فرقة واحدة».

فلا كلام لنا مع الأديان المتعددة التي يدّعي كل منها أنّه هو الحق وغيره الباطل، ولكن أعجب وأندهش وأحتار عند قراءة هذا الحديث، وليس عجبي واندهاشي وحيرتي للحديث نفسه ولكن للمسلمين الذين يقرأون هذا الحديث ويردّدونه في خطبهم ويمرّون عليه مرَّ الكرام بدون تحليل، ولا بحث في مدلوله لكي يتبيّنوا الفرقة الناجية من الفرق الضالّة.

والغريب أنّ كل فرقة تدّعي أنّها هي وحدها النّاجية وقد جاء في ذيل الحديث «قالوا من هم يا رسول الله؟ قال من هم على ما أنا عليه أنا وأصحابي» فهل هناك فرقة إلّا وهي متمسّكة بالكتاب والسنّة. وهل هناك فرقة إسلامية تدّعي غير هذا؟ فلو سئل

الإمام مالك أو أبو حنيفة أو الإمام الشافعي أو أحمد بن حنبل فهل يدّعي أي واحد منهم إلّا التمسّك بالقرآن والسنّة الصحيحة؟

فهذه المذاهب السنّية وإذا أضفنا إليها الفرق الشيعية التي كنت أعتقد بفسادها وانحرافها، فها هي الأخرى تدّعي أيضاً أنّها متمسّكة بالقرآن والسنّة الصحيحة المنقولة عن أهل البيت الطاهرين، وأهل البيت أدرى بما فيه كما يقولون.

فهل يمكن أن يكونوا كلّهم على حقّ كما يدّعون؟ وهذا غير ممكن لأنّ الحديث الشريف يفيد نقيض ذلك، أللهم إلّا إذا كان الحديث موضوعاً، مكذوباً، وهذا لا سبيل إليه لأنّ الحديث متواتر عند السنّة والشيعة، أم أنّ الحديث لا معنى له ولا مدلول؟ وحاشا لرسول الله (ص) أن يقول شيئاً لا معنى له ولا مدلول وهو الذي لا ينطق عن الهوى وكل أحاديثه حكمة وعبر.

إذاً لم يبق أمامنا إلّا الاعتراف بأنّ هناك فرقة واحدة على الحق وما بقي فهو باطل، فالحديث يبعث على الحيرة كما يبعث على البحث والتنقيب لمن يريد لنفسه النّجاة.

ومن أجل هذا داخلني الشكّ والحيرة بعد لقائي بالشيعة فمن يدري لعلّهم يقولون حقّاً، وينطقون صدقاً، ولماذا لا أبحث ولا أنقّب.

وقد كلّفني الإسلام بقرآنه وسنّته أن أبحث وأقارن وأتبيّن قال الله تعالى: **﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا﴾**(١) وقال أيضاً: **﴿الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب﴾**(٢).

وقد قال رسول الله (ص): «أبحث عن دينك حتى يقال عنك مجنون» فالبحث والمقارنة واجب شرعي على كل مكلّف.

بهذا القرار وبهذه العزيمة الصادقة واعدت نفسي وأصدقائي من الشيعة في العراق وأنا أودّعهم معانقاً ومتأسّفاً لفراقهم فقد أحببتهم وأحبّوني، وقد تركت أحبّاء أعزاء مخلصين ضحّوا بأوقاتهم من أجلي لا لشيء كما قالوا لا خوفاً ولا طمعاً، وإنّما ابتغاء

(١) سورة العنكبوت: آية ٦٩.
(٢) سورة الزمر: آية ١٨.

مرضاة الله سبحانه فقد ورد في الحديث الشريف «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك ممّا طلعت عليه الشمس».

وغادرت العراق بعد قضاء عشرين يوماً في ربوع الأئمة وشيعتهم، مرّت كأنّها حلم لذيذ يتمنّى النائم أن لا يستيقظ حتّى يستوفيه، غادرت العراق متأسّفاً على قصر المدّة. متأسّفاً على فراق الأفئدة التي أهوي إليها والقلوب التي تنبض بمحبّة أهل البيت وتوجهت للحجاز قاصداً بيت الله الحرام وقبر سيد الأولين والآخرين صلّى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين.





رحلات شعرية

رحلة السيد عليخان المدني*

يا صاح! هذا المشهد الأقدسُ   قرَّت به الأعين والأنفسُ
والنجف الأشرف بانت لنا   أعلامه والمعهد الأنفسُ
والقبة البيضاء قد أشرقت   ينجاب عن لألائها الحندس
حضرة قدسٍ لم ينل فضلها   لا المسجد الأقصى ولا المقدس
حلّت بمن حلّ بها رتبة   يقصر عنها الفلك الأطلس
تود، لو كانت حصا أرضها   شهب الدّجى والكنّس الخنس
وتحسد الأقدام منّا علـ   ـىٰ السعي إلى أعتابها الأرؤس
فقف بها والثم ثرى تربها   فهي المقام الأطهر الأقدس
وقل: صلاةٌ وسلامٌ على   من طاب منه الأصل والمغرس
خليفة الله العظيم الذي   من ضوئه نور الهدى يقبس

* السيد عليخان من أشهر رحالات القرن الحادي عشر ولد في المدينة وأمضىٰ غالبية حياته في الهند وقام بجولات كثيرة ثم استقر في إيران حيث وافاه الأجل هناك. له مؤلفات متعددة في حقل العلوم الشرعية والتراجم والآداب، ومنها رحلاته الشعرية إلى مكة والمدينة والنجف حيث اقتطعنا من رحلته الأخيرة هذه الأبيات (أدب الطف مجلد ٥ صفحة ١٨٤).

الشيخ حسين العشاري

وله من قصيدة في الإمام علي حينما زار قبره سنة ١١٨٥ وذكر المنازل التي قطعها من بغداد إلى النجف:

إليك توجهنا فلاحت لنا البشرى ... وتمت لنا الدنيا بجاهك والأخرى!
حبسنا على حر الهجير نفوسنا ... لأنا علمنا أن سنوردها بحرا!
ولم نصحب المسك الفتيت لعلمنا ... يكون ثراكم فوق أرداننا عطرا!
ولم نحمل الدينار علماً بأننا ... سنلقط من حصباء أرضكم تبرا!
وما قصدنا إلّا الحضور بحضرة ... على عرش بلقيس سما فضلها قدرا
ورؤية قبر قد تضمن سيّداً ... هو البحر سمته العباد لنا حبرا
محل حوى علماً وجوداً وسؤدداً ... إلى منتهى الدنيا تدوم له الذكرى
كريم نجار من لؤي بن غالب ... وصفوة عدنان ومن مضر الحمرا
ولما قصدناه تركنا عيالنا ... وأولادنا الأطفال والبلدة الزورا
إلى أن نزلنا (الخان) أول منزل ... ونمنا وصلينا بساحته الظهرا
ومن قبل عصر قد شددنا رحالنا ... وجئنا (لبئر النصف) والركب قد سرا
ومن بعد ذا جئنا إلى (الخان) بعده ... وبتنا به والنوم عن مقلتي فرا
ولما بدا الصبح المنير وأقبلت ... كتائبه تسعى برايته الشقرا
نهضنا وروينا جميع دوابنا ... بلطف وصلينا بجانبه الفجرا
وسرنا إلى (خان المحاويل) والهوى ... لجنب أبي السبطين يقدمنا شهرا
أقمنا به حتى أتى العصر فانثنت ... إلى (الحلة الفيحاء) رواحلنا تترى

نـزلنـا عـلى قـوم كـرام بهـا نشـوا … على الجود والأضياف في دورهم تقرى
ومن بعد ذا سرنا صباحـاً وعـندنا … من الشوق ما يستوعب السهل والوعرا!
ولما أتينا قـبر (ذي الكفـل) وانجلت … لنا عن طـريق القصـد بـاقعـة غـبرا
نـظرت تجـاه السـائـرين أشعـة … تبـين وتستخفي لنـا تـارة أخـرى
فزحزحت عن عيني الكرى ونظرت عن … نـواظـر عن صنعـا تلوح لها بصرى
وقلت: أتلك الشمس أرخت ثيـابها … وألقت عليهـا من أشعتهـا سـترا؟
أم انتشرت نـار الكليم لنـاظـري … على طـور سينـا والفؤاد بها أدرى؟
أم الـبرق في تلك العـراص تـلألأت … لـوامعـه حتى أبـان لنـا فجـرا؟
فراجعت خضر القلب عن درك ما أرى … يبـين لعـيني كـي أحيط بـه خـبرا
فقـال: إذا أخـبرتـك اليـوم سره … وأنت كليم القلب لم تستـطع صـبرا
فقلت: ولـو أخـبرتني لـوجـدتني … صبـوراً ولا أعصي لما قلتـه أمـرا
فقال: هو القصر المنيف الذي علت … عـلى القبـة الخضراء قبتـه الصفـرا!
هو المرقد السامي الشريف الذي حوى … محيـا أبي السبـطين والغـرة الغـرا
فـالق العصـا في بـابـه وأنخ بـه … قلوصـك وانزل عنـد همته الكـبرى!
فهـاجت بنا نـار الغرام وقـد جـرت … مـدامـع تصـلي نـارهـا مهجتي حـرا
ومـا ثَمَّ إلاّ أنـفس وجـوانـح … تـطير وأنعـام طـوت دونـه الـبرا
إلى أن أتت (خـان العقيل) خيـولنـا … وبتنـا بقـرب البئـر نستـوجب الـبرا
ولمـا رأينـا الفجـر سرنـا بسرعـة … إلى بلدة ضمت بها الحيدر الـطهرا

من وحي الرحلة المباركة
إلى النجف المقدسة

بقلم الشيخ حسن طراد

يا رحلة العمر يا إطلالة الأمل ... يا بسمة الفجر يا إشراقة المثل
أشرقت في النفس مصباحاً به انقشعت ... غياهب الوهن والإهمال والكسل
حيث العزيمة والإقدام قد بعثا ... روح التنافس والإخلاص في العمل
من أجل نيل مراد قد سما شرفا ... إلى العلاء لكي يسمو على زحل
علم الرسالة معراج به انطلقت ... فطاحل الفضل والتقوى بلا ملل
لا غرو إن صعدوا مجداً فرائدهم ... في العلم والحلم والتقوى الإمام علي
نفس النبي عُليٌّ شخص الرسول هدىً ... نوران قد سطعا بالفضل في الأزل
يا حوزة خلدت في الدهر ساطعة ... شمساً يضيء سناها أقومَ السبل
منها تخرج أبطال جهابذةٌ ... نالوا المراد بعزم العيلم البطل
وحصنوا الدين إيماناً ومعرفةً ... شعت تبدد ليل الجهل والخطل
أفكارهم سطعت أنوارهم لمعت ... أثارهم نطقت صدقاً بلا زلل
وتلك أثار طوسي الهدى برزت ... فجراً ينير سما الأديان والملل
ليبرز الحق معلوماً بلا شُبه ... ويرحل الغي مهزوماً على عجل
ويدركَ الناس أن الدين دون هدى ... ذرية الطهر طه غير مكتمل
(اليوم أكملت فيه دينكم) نطقت ... بما نسبت لهم في أوضح الجمل
ومنطق الحق يملي أن واحدهم ... بين البرية - جمع لاح في رجل
وحوزة العلم في وادي الغري أتت ... لكشف سر علاهم أبرز المثل
حيث المقام مقام الطهر حيدرةٍ ... روض يلوح لنا في أجمل الحلل
شعت بقبته الزهراء شمس هدى ... تجلو الظلام عن الأفكار والمقل
يمضي الزمان وصوت الحق منطلق ... منها يدوي بلا خوف ولا وجل

مـا كـان لله يحـمـيـه ويحـرسـه وما يخالفه يـرمـيـه بـالـعـلل
فصخـرة الحق لا تنهـار إن نـطحت لكن تصـد فـواهـا نـطحـة الـوعـل

حسن طراد

٢٥ ـ ١٠ ـ ١٩٩٣

١٠ ـ ٥ ـ ١٤١٤هـ

النجف في رحلات الغربيين*

* هذا المقال مستل من موسوعة العتبات المقدسة ج٦ ص٢٠٠ وقد كتبه الأستاذ جعفر الخياط من خلال وقوفه على المصادر الأجنبية، وقد اقتطعنا منه ما يناسب البحث.

المقدمة

حينما تطور الأحوال في أوروبا، واتسع نطاق النهضة الحديثة فيها، بتأثير الكثير من العوامل والمؤثرات المعروفة في التاريخ اتجهت الأنظار إلى الشرق وراح البحارة البرتغاليون والتجار البنادقة يمخرون عباب البحار ويطوحون في البراري والقفار للوصول إلى الهند وما حولها من البلاد. ولم ينته القرن السادس عشر للميلاد حتى أخذ عدد غير يسير من الأوروبيين، ولا سيما البنادقة، يتجهون إلى هذه الجهات بقصد المتاجرة والتبشير ويمرون بالعراق باعتباره جسراً أرضياً يربط الشرق بالغرب. وكانوا في طريقهم هذا ينزلون في خانات بغداد أو «بابل»، ويمرون بالنجف، أو يتلبثون في الزبير. وكانت النجف بحكم موقعها الكائن على حدود البادية، ومركزها الديني والاجتماعي الفريد في بابه، تقع في طريق الكثير من القوافل التي تأتي من الغرب عن طريق حلب وتستهوي الكثير من المسافرين في تلك الأيام فيمرون بها أو يتوقفون فيها مدة من الزمن. ويبدو مما جاء في كتابات عدد من الرحالة الأوروبيين يومذاك أن القوافل التي كانت تسير بين حلب وأصفهان كان بوسعها أن تسلك خمسة طرق عامة معروفة، غير الطريقين اللذين كانا يمران بالأناضول فيربطان بين استانبول (أو أزمير) وإصفهان(١).

وقد كان أول هذه الطرق يبدأ بحلب، ويقع إلى يسار المتجه في الاتجاه الشمالي الشرقي، لكنه يمر بديار بكر وتبريز. وكان الطريق الثاني يتجه من حلب إلى الشرق رأساً فيحاذي بلاد ما بين النهرين، ويمر بالموصل فهمذان. أما الطريق الثالث فقد كان ينحرف أكثر من ذلك نحو الجنوب، ويجتاز بادية صغيرة ثم يمر بعانه والنجف وبغداد

(١) The Six Voyages of Tavernier Thorough Turkey into Asia.
رحلة جان بابتيست تافيرنييه، التي ترجم ما يخص العراق منها الأستاذان كوركيس عواد وبشير فرنسيس.

والبصرة. وكان الطريق الرابع يقع إلى يمين الذاهب إلى الجنوب الشرقي فيمر بالنجف وبغداد أيضاً، وكان هناك طريق خاص يخترق البادية الكبيرة بطولها نحو البصرة، وكانت القوافل التي تسلكه تمر بالنجف أحياناً، لكنه لم يكن يسلك إلا مرة واحدة في السنة أي حينها كان يقطعه تجار تركية ومصر لشراء الإبل.

ولا شك أن هذه الطرق هي التي كان يسلكها الرحالون الغربيون الذين أخذ تواردهم على هذه الجهات يكثر بحلول القرن السابع عشر، ولا سيما بعد أن ثبَّت البرتغاليون أقدامهم الاستعمارية في الخليج بإنشائهم قلعة هرمز العظيمة في ١٥٩٧.

رحلة تكسيرا*

* رحالة برتغالي كتب رحلته في وصف النجف باللغة البرتغالية وقد ترجمت إلى الإنكليـزية وطبعت في لندن سنة ١٩٠٢م.

الرحالة تكسيرا في النجف

ومن أشهر الرحالة الذين زاروا النجف في تلك السنين الخوالي الرحالة البرتغالي بيدرو تكسيرا الذي كتب رحلته بالبرتغالية في وصف الخليج والبصرة والنجف وكربلاء وبغداد وعانه. وقد ترجمت هذه الرحلة إلى الإنكليزية[1] وطبعت في لندن سنة ١٩٠٢.

وكان تكسيرا قد وصل إلى البصرة من الخليج في يوم ٦ آب ١٦٠٤، وبعد أن أقام فيها مدة تناهز الشهر غادرها متوجهاً إلى بغداد مع قافلة من القوافل عن طريق البادية وبعد أن غادر البصرة بسبعة أيام وصل إلى موقع في البادية يسمى «عيون السيد»، وهو يقول أنهم وجدوا في هذا الموقع آثار بلدة قديمة كبيرة مع عدد من النخيل وبعض الشجيرات. وبعد أن تركت قافلته (عيون السيد) وتابعت السير ثلاثة أيام أخرى بانت لهم من بعيد بحيرة واسعة الأرجاء متكونة من مياه الفرات في وسط البادية، ولا يخفى أنها «بحر النجف» على حد تعبير الناس في يومنا هذا.

وبعد مسيرة يومين مرت في أثنائها القافلة بأماكن تتوفر فيها المياه الغزيرة وتمتد من حولها حقول الشعير والقمح والقطن والخضراوات كما يقول تكسيرا، بانت لهم مدينة النجف من بعيد وكأنها تطل من موقعها العالي على بحر النجف نفسه. ثم وصلت القافلة إلى مكان في رأس البحيرة ونزلت في موقع مناسب يقرب منه، فاستضافها هناك رجل يقال له الشيخ علاوي، وقد أصبح صديقاً حميماً لتكسيرا على ما يظهر لأنه يسميه «صديقي العظيم». وفي هذه المرحلة يصف بحر النجف بقوله إنه يستمد ماءه من الفرات، ولذلك يلاحظ ازدياد مقاديره في مواسم الطغيان، وليس لهذه البحيرة شكل

---

(١) The Travels of Pedro Teixeira - Tr. by W. F. Sinclair & Ferguson,, London 1902.

معين لكنها تمتد بطولها حتى يبلغ محيطها خمسة وثلاثين إلى أربعين فرسخاً. وهناك فيما يقرب من منتصفها ممر ضحل تستطيع الحيوانات اجتيازه خوضاً في المواسم التي يقل فيها ماء البحر، ويقول كذلك أن هذه البحيرة كانت شديدة الملوحة، ولذلك كان يستخرج منها الملح الذي يباع في بغداد والمناطق المجاورة، ومع ملوحتها هذه كان يكثر فيها السمك بحجومه وأنواعه المختلفة، ولهذا يسميها الناس هناك بحيرة الرهيمة.

وقد وصلت قافلة تكسيرا إلى النجف مساء السبت ١٨ أيلول (٢٣ ربيع الثاني ١٠١٣هـ) فقصدت خاناً من الخانات الكبيرة التي كانت تشبه في شكلها ومنظرها العام الصوامع الموجودة في البلاد الأوروبية على حد قوله. وبعد أن يأتي في رحلته على الجوانب التاريخية المعروفة للمكان وكيفية دفن الإمام عليه السلام في هذه البقعة يأخذ بوصف الروضة المقدسة وبنائها وزخرفتها، لكنه لا يشير إلى القباب والمآذن بشيء وإنما يذكر أن البلدة كلها كانت تبدو فيها إمارات الخراب والإهمال بوضوح. فبعد أن كانت تحتوي على ستة آلاف إلى سبعة آلاف دار مبنية بإتقان في الغالب أصبحت حينما زارها لا يزيد عدد بيوتها على الست مئة فقط. وقد علم من بعض الناس أن إهمالها وانحطاط شأنها كان قد حصل بعد وفاة الشاه طهماسب الصفوي (توفي في ١٥٧٦ م أو ٩٨٤ هـ) الذي كان يرعاها ويعنى بشأنها عناية كبيرة.

ويقول أيضاً أن البلدة كانت محاطة بسور امتدت إليه يد الإهمال كذلك، فأصبحت تلاحظ فيه الثغرات في عدة أمكنة، وقد كانت البلدة تستقي ماءها من الآبار كما هو معروف، لكنه لم يكن عذباً يستسيغه الشارب، ولذلك كان على الذين يريدون الماء العذب الفرات أن يأتوا به من جدول خاص كان السلطان سليم قد حفره لإيصال الماء من الفرات إلى البلدة بواسطته، لكنه لم يصل إلا إلى مسافة عنها بالنظر لارتفاع موقعها. على أن (تكسيرا) يقول أنهم لم يستطيعوا استساغة هذا الماء أيضاً حينما وصلوا إليه لأنه كان كدراً متعفناً. ويقول كذلك أن البلدة كانت بها حاجة ماسة إلى الكثير من الأشياء المهمة كالخشب والأغنام والدجاج والحنطة والشعير والفاكهة والخضراوات، ولذلك كان يؤتى بها من الخارج على الدوام. وعلى هذا كان طعام السكان معظمهم ينحصر في التمر والحليب وخبز الحنطة والشعير. ومع أن بحيرة النجف يتيسر فيها السمك فإن سكان البلدة لم يكونوا يستفيدون منه إلا بمقدار قليل.

ومما يذكره عن النجف في تلك الأيام أيضاً أن أهاليها ذوو سحنة بيضاء في الغالب، وأنهم يحرمون الاختلاط بالنصارى واليهود. ويقول كذلك أن آثار الأسواق العامرة المبنية بالطابوق كانت ما تزال شاخصة للعيان، وأن الروضة الحيدرية كان فيها الكثير من النفائس الثمينة ومنها ثلاث ثريات من الذهب المطعم بالأحجار الكريمة. وكان عدد من الأمراء المسلمين والملوك قد أهدوها إلى الحضرة المطهرة. وليس من المستبعد أن تكون معالم العمران في الأسواق وغيرها، التي يشير إليها هذا الرحالة، ناشئة عما كانت عليه حالة النجف في ١٣٢٥م حينما زارها الرحالة المغربي المشهور ابن بطوطة فوجدها مكتظة بالسكان وعلى أحسن ما يكون عمراناً وازدهاراً، ووجد أسواقها جميلة نظيفة. فقد كان فيها من جهة باب الحضرة الخارجية أسواق للعطارين والطباخين والقصابين والخياطين، فضلاً عن «القيصرية» وأسواق العطور والفواكه.

ثم يتطرق (تكسيرا) في رحلته إلى ذكر الحكم في البلاد ويقول أن النجف كانت تخضع في تلك الأيام إلى الأتراك الذين كان يدفع لهم أميرها العربي شيئاً من الأتاوى. ولعله يقصد بذلك ناصر المهنا أمير جشعم الذي يقول عنه أنه كان يقيم بالقرب من كربلاء. ويذكر كذلك أن النجف كانت فيها حامية عسكرية قوامها خمسون جندياً من الأتراك، وأن هؤلاء لم يكونوا موجودين في البلدة يوم زارها هو لأنهم كانوا قد سحبوا إلى بغداد بسبب الحرب التي كانت ناشبة مع الإيرانيين، ولذلك كان السكان أحراراً فيما يفعلون، حتى أن قسماً منهم كان يرتكب الكثير من أعمال العنف والتعدي على الناس من دون خوف أو حياء. ويلاحظ أن المستر لونكريك[1] يتطرق في كتابه إلى ذلك الشيء نفسه عن نوع الحكم هذا. فهو يقول «.. غير أن قوات البادية التي يهمنا أمرها أكثر من هذا كانت لا تخرج عن كونها حلفين بدويين يمر من مناطقهما المسافرون من الخليج إلى حلب بعدة مراحل من طريقهم. فكان المير ناصر المهنّا في ١٦٠٤ (١٠١٣ هـ) «ملك» القسم الجنوبي الممتد من النجف إلى الفلوجة. وكانت بلدة النجف، ذات العصبية الدينية الدائمة، التي أفقدها انقطاع الخيرات عنها منذ موت الشاه طهماسب، معترفة بسلطة حاكم البادية هذا. وكانت كربلاء، وهي أوسع وأكثر حركة وليست بأقل من

(١) أربعة قرون الص ٣٧ من الترجمة العربية، ط ٢، ويؤيد هذا كذلك ريتشارد كوك في كتابه (بغداد مدينة السلام) الص ١٩٤.

أختها تعصباً، مركز ديرته الخاصة. وكان يلاقي المسافرين ـ من بغداد إلى الفلوجة، على بضعة أميال من العاصمة ـ وكلاؤه الذين يقبضون «الخاوة» له. وقد اعترف ناصر بولائه للسلطان. ومن المحتمل أن شيئاً من الهدايا التي كانت تقدم إلى الباشا في بغداد بين حين وآخر كانت تذكره بوجود مثل هذا «العبد الحقير». غير أن أوتوقراطيته في البادية، وجمعه للخاوة، والشدائد التي كان يصادفها المسافرون المارّون بديرته، وإرهابه للزوار كانت تقص لنا قصة أخرى، وكانت الحاميات التركية الصغيرة ترابط كالعادة في العتبات المقدسة، غير أن مكثهم فيها لم يكن إلا بسماح من الشيخ نفسه».

تعليق على أقوال تكسيرا

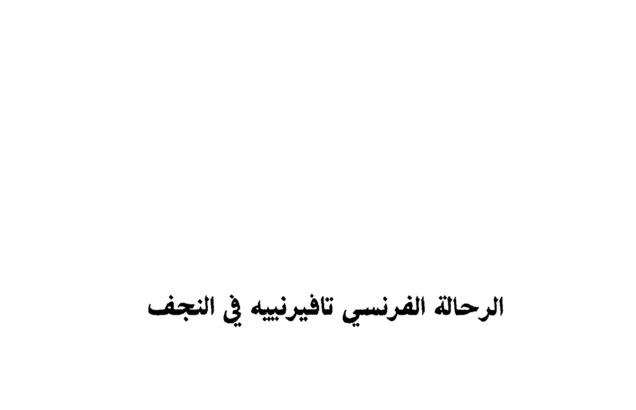
وتعليقاً على ما يذكره الرحالة تكسيرا عن مشكلة ماء النجف وصعوبة الحصول عليه في تلك الأيام، وعن الخراب الذي أصابها بسبب ذلك، لا أرى بداً من الإشارة هنا إلى أن المرحوم يعقوب سركيس كان قد نشر في العدد الثاني من مجلة الاعتدال النجفية للسنة ١٩٣٧ عريضة قديمة كان والي بغداد سنان باشا جيغالزاده قد رفعها في أوائل القرن السادس عشر للميلاد إلى السلطان مراد الثالث يذكر فيها له ما يقاسيه سكان النجف من قلة الماء الصالح للشرب وشرائها الحمل منه بخمس أو ست بارات، ويخبره بأن الكثيرين من النجفيين يومذاك قد اضطروا إلى الجلاء عن بلدتهم المقدسة لهذا السبب. ويذكر الوالي في العريضة قوله «.. وبعد أن كان في النجف ثلاثة آلاف دار عامرة لم يبق منها إلا عشرها وشربه الماء الأجاج وأكله خبز الشعير، مفضلاً هذه الحالة على الجلاء. فليس في النجف إلا الخطيب، والإمام، والفراش، والخدام، والموظفون وقليل غيرهم. ومن أسباب الهجرة أن هذه القصبة بعيدة عما هو معمور، وأن الأعراب المجاورين لها عتاة، وأن سورها قديم أكثره قد تهدم فأصبح كل أحد بوسعه دخولها من حيث أراد. فلا أمن من دخول الأعراب إليها على حين غرة، ومن غارتهم على القناديل الذهب والفضة وغيرها من التحف والنفائس..» وقد ناشد سنان باشا السلطان بأن ينقذ النجف من محنتها بحفر نهر خاص لها كما أنقذ السلطان سليمان القانوني مدينة كربلاء بحفره جدول الحسينية من قبل. وقد ذكر له بهذه المناسبة أن الخبراء والمهندسين بينوا له أن النهر يمكن حفره بسهولة، وأنه سيروي عدداً كبيراً من المزارع والحقول التي يمكن أن

تنتج في ثلاث سنوات محصولاً يفيض على النفقات.

على أن تشبثات الباشا المذكور لم تكن مثمرة على ما يظهر لأن مشكلة ماء النجف بقيت مستعصية إلى سنة ١٦٨٢. ومن جملة المستندات التاريخية التي تشير إلى ذلك الحجّة الشرعية التي نشرها يعقوب سركيس في المقال المشار إليه آنفاً، وهي مؤرخة بتاريخ ١١ شعبان ١٠٩٣هـ (١٦٨٢) م. فقد ورد فيها ما يلي: «أما بعد... فقد حضر مجلس الشرع الخطير شيوخ النهر الشهير المسمى النهر الشاهي الآخذ من مراد (أي الفرات في التعبير التركي) وحضر سكان قصبة الإمام علي كرم الله وجهه بأسرهم فقالوا بدون جبر ولا إكراه:

«كانت أراضي هذا النهر قد غدت بمثابة الموات بمرور الأيام والسنين لعدم عناية الحكام السالفين وقلة رغبتهم في أمور الخير، ولتسلط أهل البوادي على رعايا هذا النهر فأشرف على الخراب وتضرر أهله وكانوا على أهبة الهجرة. فقام والي بغداد إبراهيم باشا بتطهيره وحفره من صدره إلى مدينة الكوفة والمسافة بينهما اثنتا عشرة ساعة فجاء بأهاليه النازحة عنه وأسكنهم محالّهم وقطع دابر أهل التعدي. وقد أنفق على ذلك اثني عشر ألف غرش وخمسة وأربعين غرشاً فنجّى قصبة رابع الخلفاء علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من محنة الظمأ العظيمة، وذلك بتقريب الماء إليهم فكانوا في رفاهية وسكان قصبة الإمام علي هم مشغولون صباحاً ومساء بالدعاء للسكان».

شهود الحال: السيد عبد الرسول أفندي متولي قصبة الإمام علي، السيد منصور أفندي بن السيد حسين كمّونة، خطيب الجامع ملا حسين، الكليدار ملا محمود بن ملا طاهر، الشيخ إبراهيم بن فرج الله، الحاج إبراهيم بن خير الله، الخادم ملا حسين أفندي، المؤذن ملا علي رضا، محمد جلبي بن علي جلبي، السيد محمد كمال الدين، ملا.. بن ملا علي، ملا علي بن ملا محمود، الخادم الحاج حسن، السيد إبراهيم بن كمال الدين، وغيرهم ولم يذكرهم.



الرحالة الفرنسي تافيرنييه في النجف

الرحالة الفرنسي تافيرنييه في النجف

وبعد عشرين يوماً من هذا التاريخ كان الرحالة الفرنسي الشهير المسيو جان بابتيست تافيرنييه[1] نازلاً في منزل من منازل السفر في البادية يبعد عن حلب بمسافة عشرين يوماً، في طريقه إلى البصرة. وهناك علم من ثلاثة أعراب نزلوا في المنزل نفسه أنهم كانوا قد أرسلوا إلى حلب وغيرها من المدن بأخبار استيلاء السلطان مراد على بغداد. وقد مر هذا الرحالة في أثناء رحلته هذه بالنجف الأشرف، وكان آخر منزل له في البادية قبل وصوله إليها موقعاً يعتقد أنه (خان العطشان) الذي يصفه وصفاً تفصيلياً طريفاً يشير فيه إلى أنه يبعد عن الفرات بمسافة تزيد على العشرين فرسخاً، وهو يقول أن قافلته واصلت السير من هناك في اتجاه شمالي شرقي لمدة خمسة أيام وصلت بعدها إلى «بلدة صغيرة كانت تدعى سابقاً الكوفة والآن تعرف بمشهد علي»[2]، ولا شك أنه يخلط بقوله هذا بين النجف والكوفة. وهو يذكر شيئاً عن الضريح المطهر ويقول بأنه كانت تشاهد من حوله أربعة شمعدانات مضاءة، وقناديل مدلاة من السقف، من دون أن يشير إلى كونه استطاع الدخول إلى الحضرة أم لا، وفيما عدا القناديل والشمعدانات التي كانت تضاء في الليل والنهار، كان هناك قارئان يتلوان القرآن الكريم على الدوام.

ثم يتطرق إلى ماء الشرب في البلدة فيقول إنه ماء غير عذب يستقيه الناس من آبار أربع موجودة فيها، ويشير كذلك إلى وجود قناة جافة يظن أن الشاه عباس

---

(١) Jean Babtiste Tavernier.

(٢) العراق في القرن السابع عشر ـ كوركيس عواد وبشير فرنسيس، وهو ترجمة يختص بالعراق من رحلة تافيرنييه.

الصفوي كان قد مدها من الفرات إلى النجف، والأصح في كثير من المراجع أن القناة المذكورة كان الشاه إسماعيل الصفوي قد أمر بحفرها في بادىء الأمر غير أن الشاه عباس أمر بتطهيرها، ويقول المسيو تافيرنييه أيضاً أن الطعام كان شحيحاً في البلدة، وأنه لم يجد فيها غير شيء قليل من التمر والعنب واللوز مما كان يباع بأسعار عالية. ومما يذكره كذلك أن الزوار حينما كان يكثر وجودهم في مواسم الزيارات كان الشيخ يوزع عليهم عند الحاجة الرز المطبوخ بالماء والملح، والمضاف إليه شيء قليل من السمن.

ويشير تافيرنييه إلى موضوع يتطرق إليه عدد غير يسير من المؤرخين الأجانب والرحالة الآخرين، وهو موضوع منع الزوار الإيرانيين من زيارة النجف وغيرها من العتبات المقدسة في العراق من قبل الشاه عباس الصفوي. لأن الزوار كان لا بد لهم من أن يمروا ببغداد قبل الوصول إلى النجف، وهناك كان يترتب على كل منهم أن يدفع رسماً قدره ثمانية قروش. وكان هذا الرسم في نظر الشاه تحدياً وإهانة لرعيته وحكومته، ولذلك عمد إلى تعمير ضريح الإمام الرضا عليه السلام في مشهد خراسان ليكتفي الإيرانيون بزيارته وينصرفوا عن زيارة العتبات الأخرى، وقد اقتدى به ملوك إيران الذين جاؤوا من بعده أيضاً في كثير من الظروف والأحيان.

ويقول السر بيرسي سايكس في (تاريخ إيران)[1] أن عبقرية الشاه عباس وبراعته قد ظهرت في اضطلاعه بمهمة توحيد القبائل والأقوام المختلفة التي كانت تسكن إيران. وقد فعل ذلك في الغالب عن طريق تشجيع فكرة أن مشهد الإمام الرضا هو في الحقيقة المركز القومي الذي يجب أن يقصده الزوار الإيرانيون، وأنه فخر العالم الشيعي ومحط آماله. وليقرن القول بالعمل كان يكثر الزيارة هو نفسه لهذه العتبة المقدسة. وقد قطع في إحدى زياراته المسافة الطويلة الممتدة بين إصفهان والمشهد (٨٠٠ ميل) مشياً على الأقدام. وكان يقوم بمهمة إسراج الاف الشموع التي كانت تضيء الروضة المقدسة وتنظيفها

ومن بين الهدايا التي قدمها الشاه عباس هذا للمرقد الشريف قوسه الذي يحمل اسمه، وهو هدية لا يقدرها الإيرانيون حق قدرها على ما يقول سايكس. وقد كان

---

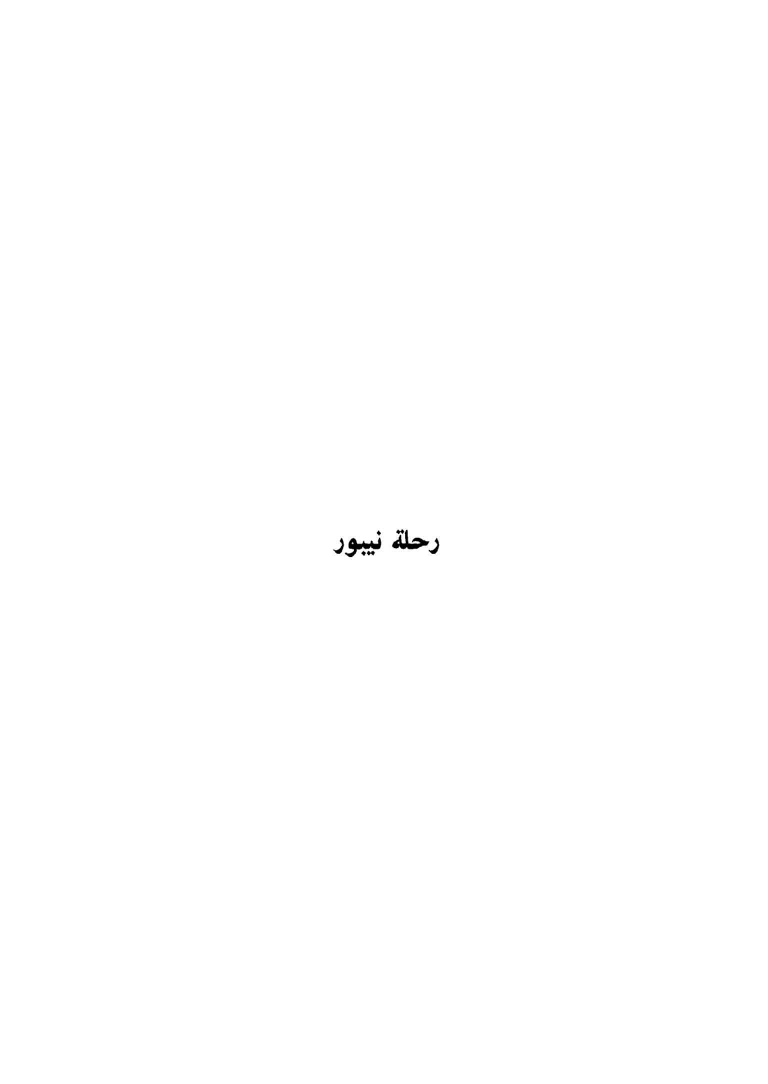
(١) الص ١٨١، ج ٢.

يزور النجف أيضاً ويتولى كنس الحضرة المطهرة التي تعود لجده الأكبر.

ويورد تافيرنييه كذلك، في معرض وصفه الحالة في بغداد، قوله «. . وتجارة المدينة رائجة، ولكنها ليست بما كانت عليه في أيام ملك إيران. لأنه عندما استولى عليها الترك اغتالوا كثيراً من أثرياء التجار، ومع ذلك فإن الناس ما زالوا يتوافدون على بغداد من كل حدب وصوب. ولا أدري أكان ذلك للتجارة أم للعبادة، فإن شيعة علي يعتقدون أن علياً عاش في بغداد. إن كل من يرغب في الحج إلى مكة براً عليه أن يمر ببغداد، وعلى كل حاج أن يدفع إلى باشا بغداد أربعة قروش»[1].

---

(١) العراق في القرن السابع عشر.



رحلة نيبور

مشاهدات الرحالة نيبور في النجف

على أن أهم ما يرد ذكر النجف فيه من كتابات الغربيين خلال تلك السنين ما كتبه الرحالة الألماني الشهير كارستن نيبور في رحلته[1] التي كتبها على أثر تجواله في البلاد العربية وسائر أنحاء الإمبراطورية العثمانية آنذاك. فقد جاء إلى العراق عن طريق الخليج سنة ١٧٦٥، بمناسبة اشتراكه في بعثة استكشافية علمية جهزها فردريك ملك الدانيمارك وبعث بها إلى هذه الجهات. وقد وصل البصرة في خريف تلك السنة، وتوجه منها إلى الحلة في إحدى السفن الصغيرة بالطريق النهرية. غير أنه ما وصل (لملوم)، التي كان يقيم فيها شيخ الخزاعل حتى ارتأى أن يترك السفينة ويسلك الطريق التي تذهب من لملوم إلى النجف الأشرف مارة (بالرماحية) وبعد مسيرة سبع ساعات ونصف على ظهور الخيل وصل (نيبور) وجماعته إلى (الرماحية) التي يقول عنها أنها بلدة تحتل رقعة كبيرة من الأرض، وتضم في داخل أسوارها العالية المبنية باللبن ما يقرب من أربعمائة بيت. وقد شاهد فيها جامعاً يؤمه الناس للصلاة، وحماماً عاماً بحالة جيدة جداً، وللبرهنة على ازدهار الحالة الاقتصادية فيها يشير إلى أن شيخ الخزاعل كان يتقاضى رسوماً كمركية طفيفة على البضائع التي كانت ترد إليها.

وقد توجه من الرماحية إلى النجف، التي يطلق اسم «مشهد علي» عليها لا غيره في يوم ٢٢ كانون الأول فوصل إليه مع خادمه وأحد (الملالي) بعد مسيرة سبع ساعات على ظهور الخيل، خلال حقول مزارع معمورة. ويذكر في رحلته أنه صادف في طريقه ما بين الرماحية والنجف أربع جنائز تنقل للدفن في وادي السلام، وهو يورد بالمناسبة إحصاء عن عدد الجنائز التي كانت تصل إليها من مختلف الأنحاء، فيقول إنه كان يتجاوز الألفين في السنة أي بمعدل سبع جنائز في اليوم الواحد. ويضيف إلى

---

(١) C. Neibur - Voyage en Arabic et en d'autres pays cireonvoisins (Amesterdam 1776).

ذلك قوله أن الذين كانوا يريدون الدفن بالقرب من الروضة المقدسة كان عليهم أن يدفعوا مبالغ كبيرة من المال، وأن الذين يدفعون مبالغ معتدلة كان يسمح لهم بالدفن في داخل أسوار البلدة. أما الذين كانوا يدفعون مبالغ زهيدة فقد كانوا يدفنون موتاهم في خارج السور، وهؤلاء كان يتراوح ما يدفعونه عن الجنازة الواحدة بين أربعة وثمانية «ستوفرات». وكانت ستون ستوفر تعادل «تالير» ألماني واحد، والتالير يساوي ثلاثة ماركات.

وبعد أن يأتي (نيبور) على ذكر الروضة والجامع وتعلق الشيعة المنتشرين في البلاد الاسلامية كلها بهذه البقعة المقدسة، يقول أنها تقع في منطقة مجدبة لا يتيسر فيها الماء بسهولة. ثم يشير إلى أن الماء الذي كان الناس يحتاجونه للطبخ والاغتسال كانوا يستقونه من قنوات خاصة تمتد في باطن الأرض، لكن الماء الصالح للشرب كان يؤتى به محملاً على ظهور الحمير من مسافة ثلاث ساعات.

ومما يذكره عن عمران البلدة أن جهة من جهاتها يكثر فيها الكلس، الذي كان يحرق للحصول على مادة البناء منه، وأن الخشب كان يندر وجوده ويرتفع ثمنه فيها. ولذلك كانت البيوت تشيد كلها بالطابوق والجص وتعقد سقوفها على شكل قبب وعقود، فتكون متينة البنيان عادة. ويشير كذلك إلى وجود منطقة منخفضة متسعة الأرجاء في خارج البلدة، يكسوها الملح، كان يسميها الناس «بحر النجف» وهو الاسم الحالي نفسه بطبيعة الحال.

ومما يتطرق إليه نيبور عن طبقات السكان قوله أن بعض سكانها كانوا من أهل السنّة، وإن العلاقة بين أهل السنة والشيعة في النجف وكربلاء كانت علاقة حسنة إلى حد غير يسير. على أنه يقول من جهة أخرى أن الشيعة كان لا بد لهم من أن يلتزموا جانب الهدوء لئلا يغضب عليهم الباشا في بغداد فيعمد إلى منع الزوار الإيرانيين من زيارة العتبات المقدسة، أو يفرض أتاوى باهظة عليهم. ويقدر (نيبور) عدد الزوار الذين كانوا يقصدون العتبتين المقدستين في المشهدين يومذاك بحوالي خمسة آلاف زائر في السنة. ومع أن العدد يبدو قليلاً للقارىء في يومنا هذا، فإنه غير بعيد عن الحقيقة بالنسبة لظروف السفر الشاقة وغيرها في تلك الأيام الخالية. ومما يذكره (نيبور) في هذا الشأن كذلك أن الزيارة ليس لها أيام معيّنة كما هي الحالة في الحج إلى مكة المكرمة،

ومع هذا فإن الشيعة يعتقدون بأن دعاءهم تزداد الاستجابة له في أوقات وأيام خاصة. ولذلك فهم يؤدون الزيارة في أيام رمضان المبارك، والعاشر من محرم الحرام، والسابع والعشرين من رجب، وغير ذلك.

ولم يفت (نيبور)، وهو الرجل العالم المدقق، أن يرسم مخططاً خاصاً لمشهد علي كما يسميه يشير فيه إلى معالم البلدة المهمة وشكلها العام فهو يشير قبل كل شيء إلى أنها كانت في تلك الأيام محاطة بسورٍ غير عامر يمكن الدخول إلى البلدة من عدة فجوات فيه، وأن هذا السور كان فيه بابان كبيران هما «باب المشهد» و «باب النهر» وباب ثالث يسمى «باب الشام» لكنه يقول أن الباب الأخير كانت قد سدت فتحته بجدار خاص من دون أن يذكر السبب في ذلك. ويضيف إلى هذا قوله أن الشكل الخارجي للبلدة يشبه شكل مدينة القدس، وأن سعتها تقارب سعة القدس أيضاً.

ويقول كذلك أن النجف كان فيها، عدا الجامع الكبير المشيد حول الضريح المطهّر، ثلاثة جوامع صغيرة أخرى، وقد عمد (نيبور) إلى تخطيط رسم خارجي عام للجامع الكبير، كما يسميه، وهو يذكر أن سقفه قد صرفت مبالغ طائلة على تزيينه وطليه بالذهب بحيث لا يمكن أن يوجد مبنى آخر في العالم أجمع يضاهيه بكلفة تسقيفه الباهظة. ولا شك أنه يقصد بذلك القبة العظمى المذهبة التي يقول إن نادر شاه الطاغية قد أنفق تلك المبالغ عليها ليكفر بها عن الأعمال الشريرة التي ارتكبها في إيران. فقد بلغت كلفة لوحة النحاس المربعة بالذهب مبلغاً يزيد تومان ذهب واحد (عشر تاليرات ألمانية). وهو يشيد كذلك بالمنظر الأخاذ الذي يبين للناظر إلى القبة المذهبة، ولا سيما حينما تسقط أشعة الشمس عليها، أو حينما تبين للرائي من بعد ستة أميال ألمانية على حد قوله.

ومما يذكره بالمناسبة أن القبة كان يعلو قمتها «كف علي» بدلاً من الهلال الذي كان يشاهد فوق القباب الموجودة في الجوامع التركيّة عادة.

ويستمر في وصف المظاهر الخارجية فيقول أن الجامع الكبير هذا كان محاطاً بساحة واسعة يقام فيها السوق كل يوم. وكان هناك بين يدي الباب الكبرى شمعدان كبير جداً يحمل عدداً كبيراً من الأضواء. وقد كانت تطل على هذه الساحة من جميع

الجهات بيوت السادة والخدم والتابعين للحضرة المطهرة، الذين كان يتجاوز عددهم المئة على ما قيل له.

أما بالنسبة لداخلية الحضرة وزينة جدرانها وسقوفها فهو يقول انه لم يستطع التقرب كثيراً من الجامع والدنو منه بحيث يشاهد شيئاً منها بنفسه. لأنه كان يخشى أن يجبر، لو فعل ذلك، على اعتناق الإسلام جرياً على العادة التي كانت متبعة مع غير المسلمين في هذا الشأن، ولم يكن يرغب أن يكلفه حب الاستطلاع مثل هذا الثمن الغالي على حد قوله. على أنه يذكران (الملاّ) رفيقه في السفر، وعدداً من شيعة النجف، قد أكدوا له أن الحضرة كان فيها أشياء ثمينة جداً ينبهر بها الناظرون. فقد كان هناك عدا القبة المذهبة والآيات القرآنية المطعمة بالميناء وكتابات كثيرة مكتوبة بحروف من ذهب، وعدد غير قليل من (الشمعدانات) الفضية والشمعدانات الذهبية المطعمة بالأحجار الكريمة. ويشير بصورة خاصة إلى ما قيل له عن خنجر من الطراز الهندي كان معلقاً في شباك الضريح المطهر، فإنه كان مرصعاً بأحجار كريمة نادرة لا تقدر بثمن. وقد قيل له إن أحد أسلاف (أورنك زيب) أمبراطور المغول في الهند كان قد أهداه على سبيل التبرك قبل بضع مئات من السنين. لكن الملاحظ في التاريخ أن أورنك زيب (وهو شاه جهان) نفسه تولى الحكم في ١٦٥٩ وتوفي في ١٧٠٧، وأن إمبراطورية المغول قد أسسها (بابر شاه) في الهند سنة ١٥٢٩. ولم يغفل نيبور عن الإشارة في رحلته إلى أنه كان من المعتاد في كل سنة أن يوفد والي بغداد رجُلاً من كبار ضباطه إلى النجف الأشرف للتحقق من وجود هذه الأعلاق النفيسة والتحف الثمينة التي كان يؤتمن عليها الكليدار، ويسأل عنها الباشا الوالي كذلك.

نيبور في الكوفة

ويظهر من رحلة نيبور أنه كان قد قصد الكوفة أيضاً وزارمعالمها خلال مدة وجوده في النجف. فإنه يشير إلى أهمية الكوفة القديمة في تاريخ

الإسلام، ويقول انها كانت خالية من السكان تقريباً حينما زارها. وقد شاهد في طريقه إليها مجرى كري سعده الجاف، الذي يعتقد أنه (اليالاكوباس) الذي حفره سكان العراق الأقدمون. لكن الذي لفت نظره بطبيعة الحال مسجد الكوفة الذي قتل فيه الإمام عليه السلام. وهو يقول إن هذا الجامع الكبير لم يبق منه شيء يذكر سوى الجدران، وبعض المعالم المشهورة، وقد عمد إلى رسم مخطط خاص له نشره في الرحلة وأشار فيه إلى الأسماء كما استقاها من الدليل النجفي الذي كان بصحبته.

ومن المواقع التي يشير إليها في الجامع باب الفيل، والسفينة، (والسقاخانه) والموقع الذي كان الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام يصليان فيه، والمحراب الذي كان يصلي إزاءه الإمام موسى الكاظم عليه السلام. كما يشير إلى الأعمدة الدالة على مقامات الأنبياء عيسى وموسى وإبراهيم الخليل، والموضع الذي من عادة الإمام السجاد عليه السلام أن يصلي فيه، والمكان الذي شيد فيه نوح أول بيت له بعد مغادرته السفينة على ما يعتقد، ومقام الإمام الصادق عليه السلام، وضريحي مسلم بن عقيل وهاني بن عروة. وقد علم نيبور من الكتابة التي كانت منقوشة على النباء المشيد فوق قبري مسلم بن عقيل وهاني أن (محمداً بن محمود الرازي) و(أبا المحاسن بن أحمد التبريزي) هما اللذان شيداه سنة ٦٨١ للهجرة.

ومما يذكره أيضاً أن السيدة عادلة خاتون بنت أحمد باشا الحاج حسن باشا، وزوجة الوالي سليمان باشا أبي ليلة، وكانت قد توفيت قبل وصول (نيبور) ببضع سنوات فقط، هي التي شيدت جدران مسجد الكوفة من ناحية الشمال الغربي، وهي التي أنشأت على حسابها الخاص بناية صغيرة ذات قبة قرب الجامع تخليداً لذكرى النبي نوح عليه السلام. وقد زار (نيبور) جامع السهلة أيضًا؛ وهو يقول إن الدليل قص عليه قصة تختص بالجامع لم يفهم شيئاً منها.

وقد غادر (نيبور) النجف في يوم ٢٥ كانون الأول ١٧٦٥ متوجهاً إلى الكفل بعد أن بقي فيها ثلاثة أيام. وآخر ما يذكره في هذا الشأن (مشهد

علي) لم يصل إليه أي أوروبي قبله هو. ولا شك أنه مخطىء في قوله هذا لأن الرحلات المطبوعة تشير إلى أن عدداً من الرحالين الأوروبيين قد زاروا النجف قبله أو مرّوا بها، وأهمهم تكسيرا البرتغالي ٦ آب(١٦٠٤) و(بيترو ديلا فاله) الإيطالي (١٦١٩) وتافيرنييه الفرنسي (١٦٣٩). لكنه في الحقيقة كان أحسن من كتب عنها، وأن المعلومات التي أوردها كانت أوسع مما كتبه غيره كما يلاحظ مما أوردناه في هذا البحث.

رحلة فونتانييه

النجف في ١٨٢٤ ـ ١٨٥٢

وفي سنة ١٨٢٤ (١٢٤٠ هـ) مر المسيو فونتانييه[١]، نائب القنصل الفرنسي في البصرة يومذاك، ببغداد وزار واليها داود باشا. وقد كتب في وصفها ما يشير به إلى النجف كذلك؛ فهو يقول «.. إن بغداد وقد مررت بها في ١٨٢٤ لم تكن بغداد الموصوفة في ألف ليلة وليلة وإنما لها طابعها الشرقي، فإنها أصبحت مجمعاً للمسلمين نظراً لوجود ضريح الإمام علي على مسافة منها، ولا شك أن وجوده يدعو شيعته إلى زيارته والقدوم إليه.. ويقال أن مئة ألف أجنبي يمرون سنوياً بمدينته (أي ببغداد) للذهاب إلى زيارة ضريح الإمام علي. وهذا الازدحام يجعل من أية نقطة في البر وسطاً تجارياً كبيراً» ولا بد من الإشارة بهذه المناسبة هنا إلى السائح الفرنسي أدريين دوبريه كان قد مر ببغداد أيضاً في ١٨٠٧ وأقام فيها مدة من الزمن فوصف أشياء كثيرة فيها بالتفصيل. وكان من جملة ما أشار إليه قوله أن عدد الزوار الذين كانوا يمرون ببغداد سنوياً في طريقهم إلى الزيارة في النجف وكربلاء كان يتراوح بين خمسة عشر ألف وعشرين ألف نسمة، وكان مرورهم من بغداد بهذا الشكل يؤثر على تجارتها ومصنوعاتها بطبيعة الحال[٢]. غير أن هذه الأحوال لا بد من أن تكون قد تبدلت حينما داهم بغداد والعراق الأوسط والجنوبي بأجمعه الطاعون الكبير في ١٨٣١، فدمرها وقضى على معالم الحياة فيها. فتسنى لعلي رضا باشا على أثره القضاء على داود باشا وتنحية المماليك عن الحكم إلى الأبد. وقد زار بغداد هذه الفترة الرهيبة، أي في

---

(١) V. Fontanier - Voyage dans L'Inde et le Golfe Persique.

(٢) Adrien Duprè - Voyage en Perse Fait dans les années 1807 - 9 en traversant la Natolie et le Mesopotamie (Paris 1819). الص ١٧٤ ج ١.

١٨٣٤، الرحالة الإنكليزي المستر بيلي فريزر فشهد آثار الخراب فيها ووصف في رحلته الطاعون وما خلفه في أرجائها وصفاً مخيفاً(١). ومما يقوله فريزر في الرحلة عن زوار العتبات المقدسة أن الطرق ما بين بغداد وبينها قد سدت في وجوههم، وأنهم صاروا يتعرضون للسلب والنهب بكثرة وبصورة مؤسفة. وهو يقول كذلك أن الكثيرين منهم كانوا يجازفون بالسفر إليها فيعودون إلى بغداد بعد أيام معدودة وقد سلبوا إلى حد العري، ومن دون أن يتسنى لهم الوصول إلى العتبات. ويشير إشارة عابرة إلى انقطاع حبل الأمن في النجف نفسها في أيام داود باشا واضطراره إلى سوق الجيش عليها. ولا شك أنه يقصد بذلك عصيان عباس الحداد وقتله مما أتينا على ذكره قبيل هذا.

وحينما تولى الحكم في بغداد نجيب باشا (١٨٤٢) كانت الخطة التي انتهجها في تصريف شؤون البلاد تستهدف القضاء على العشائر من دون رحمة وتفكيك كيانها بقدر المستطاع؛ ولذلك عرفت أيامه بالحملات العشائرية المتتالية، وقد سار في إحدى حملاته هذه إلى النجف كذلك فقمع اضطراباً كان ناشباً فيها على حد قول المستر (لونكريك)، وكان ذلك في عام ١٨٤٥. على أننا لاحظنا أن بعض المراجع العربية عن مثل (ماضي النجف وحاضرها) تجعل سير نجيب باشا لقمع الاضطرابات في النجف سنة ١٢٥٨ هـ (٨٤٢)، أي بعد أن انتهى من تنكيله بكربلاء وسكانها. لكن (لونكريك) يعود فيذكر حادثة مماثلة في النجف يومذاك لم تكن أحسن مما كانت في كربلاء، لأن فريقيها المتخاصمين، وهما الزكرت والشمرت، لم يعبأ بالباشا ولا بالسلطان، وكان كل شيء في المدينة يتم بموجب فتاوى المجتهدين النافذة ورغبات الرؤساء وقد أدى نزاع اعتيادي في البلدة سنة ١٨٥٢ إلى ثورة فخفت القوات التركية إليها؛ وبعد عراك شديد في الشوارع دام يوماً واحداً تمكن الأتراك من إنزال العقاب بالبلدة. ووقع مثل هذا الحادث في ١٨٥٤ كذلك، حينما بعث الوالي نامق باشا ضابطاً من قبله فدخل البلدة بالرغم من قوة الفريقين الموحدة.

---

(١) J. B. Fraser - Travels in Koordistan & Mesopotamia. (London 1840).
وقد ترجمه كاتب هذه السطور إلى العربية بعنوان (رحلة فريزر).



رحلة لوفتس

النجف في رحلة لوفتس

وفي ١٨٥٣ زار النجف رحالة إنكليزي يدعى لوفتس، وقد كان عضواً من أعضاء لجنة الحدود التي تجولت في منطقة الحدود العراقية الإيرانية في ١٨٤٩ فعملت على تثبيتها. وفي سفرة ثانية إلى العراق لأغراض علمية آثارية تجول في البلاد فكتب رحلته(١) المعروفة في وصف الموصل فبغداد فالفرات الأوسط فالبصرة فعربستان. وقد جاء إلى النجف الأشرف في صيف ١٨٥٣ من الحلة وفي معيته درويش باشا متصرف الحلة وطاهر بك الحاكم العسكري فيها، مع ثلة من الجنود الأتراك. ولذلك نراه يذكر شيئاً عن الكوفة التي وصل إليها من الكفل قبل وصوله إلى النجف بطبيعة الحال. فيورد عدداً من الروايات عنها، منها، أن موقع الكوفة كان هو الموضع الذي نزل فيه جبرائيل إلى الأرض فصلى لله عز وجل، ومنه انبثقت مياه الطوفان الطاغية على عهد نوح عليه السلام فاستقل فلكه هرباً منها. ويزعم العرب بالإضافة إلى دلك أن الحيّة حينما أغوت حواء نفيت إلى هذا المكان عقوبة لها؛ ومن هذا نشأت فكرة اتصاف أهالي الكوفة بالمكر والخداع. وبعد ذلك يأتي على ذكر الكوفة في أيام العرب، وأهمية الخط الكوفي، ومقتل الإمام عليه السلام فيها من قبل الخوارج؛ ثم يشير إلى أنها لم يبق منها في وقت زيارته لها (أي في ١٨٥٣) سوى عدد من التلول وبقايا جدار من جدرانها مع أنها كانت تمتد على ما يقال إلى ما يقرب من كربلاء (مسافة ٤٥ ميلاً).

وحينما ينتقل إلى ذكر النجف يقول أنها أسست على أنقاض مدينة الحيرة القديمة، التي نشأت الأسر العربية المالكة المعروفة فيها، ولا شك أنه يشير بذلك إلى

---

(١) Loftus, W. K. - Travels & Researches in Chaldeae & Susiaua, London 1857
الص ٤٦، الفصل السادس

المناذرة. وكانت الحيرة على حد قوله قد التجأ إليها خلال القرن الثالث للميلاد كثيرون من النصارى اليعاقبة هرباً من الاضطهاد والفوضى التي انتابت أحوال الكنيسة. وبهذه الوسيلة اعتنق ملك الحيرة ورعاياه الديانة المسيحية قبيل مولد النبي ﷺ. ويتطرق إلى فتح خالد بن الوليد للحيرة ويقول أنها فتحت بسهولة بعد قتل ملكها في المعركة، وبذلك فرضت عليها الجزية التي كان مقدارها (٧٠٠٠) قطعة ذهب في السنة. وتعد الحيرة أول بلد فتحه المسلمون خارج الجزيرة العربية؛ كما تعد الجزية التي فرضت عليها أول جزية فرضوها على أي بلد من البلاد الأجنبية.

ويصف لوفتس موقع النجف الجيولوجي وشكلها العام كذلك فيقول إنها تقع فوق هضبة من الحجر الرملي الميال إلى اللون الأحمر، وترتفع إلى أربعين قدماً فوق السهول المحيطة بها. وقد وجد أسوارها عامرة ممتازة، يحيط بها خندق عميق خال من الماء. ثم يتطرق إلى بحر النجف فيقول إنه يمتد نحو الجنوب الشرقي إلى مسافة أربعين ميلاً، وينشأ من نهايته السفلى نهران يقال لهما: شط الخفيف (Khufif) وشط العطشان. وحينما يطغى الفرات طغيانه السنوي المألوف يفيض إلى بحر النجف فتصبح المسافة الممتدة بينه وبين السماوة كلها قطعة واحدة من المياه، يطلق عليها «خور الله» أما ماء هذا البحر فيكون عذباً صالحاً للشرب حينما تصب فيه مياه الفرات، ويصبح ملحاً أجاجاً حينما تنقطع عنه، وعند ذلك يضطر الأهالي إلى جلب الماء من الكوفة.

ويبدو مما كتبه لوفتس أنه دخل الصحن الشريف بمعية درويش باشا وطاهر بك؛ وبحراسة من الجنود الأتراك المدججين بالسلاح. وهو يقول في هذا الشأن أنه كان من النادر أن تسنح لأي مسيحي الفرصة للدخول إلى أماكن عبادة المسلمين ولا سيما في مكان مقدس مثل مشهد الإمام علي. وحينما أبدى فكرة الدخول إلى طاهر بك وجد تشجيعاً منه على ذلك. ولما مرت جماعتهم بالسوق المؤدي إلى الصحن كان الناس على عادتهم الشرقية ينهضون للتحية؛ فيردونها لدرويش وطاهر لكنهم كانوا ينظرون شزراً إلى (الافرنج). وقد تجمع حشد من الناس وراءهم، وحينما قاربوا باب الصحن كانت النظرات التهديدية والهمسات الخافتة تدل على أنهم كانوا أناساً غير مرغوب فيهم. لكن الجند اصطف في مدخل الصحن فاجتازوا من بينهم دون تردد.

ويقول لوفتس أنه لا يمكن أن يصف الشعور الذي يخالج الناظر إلى جميع ما كان في داخل الجامع من زينة في البناء وتناسق في الألوان، لأن ما يراه كان لا بد من أن يولد انطباعاً خالداً في نفسه. ويصف شكل الصحن الشريف والضريح المطهر الموجود في وسطه، مشيراً إلى زينة القاشاني المحتوية على الرسوم المتناسقة للطيور والأوراق النباتية والكتابات المذهبة ثم يذكر أن أركاناً ثلاثة من أركان الصحن كانت تقوم فوقها مآذن ثلاث كسيت الاثنتان الأماميتان منها بالآجر المغلف بالذهب الذي يكلف تذهيب الواحدة منه مبلغ تومان واحد، أو ما يعادل باونين استرلينيين. وهذه مع القبة كانت تؤلف منظراً فخماً يعجز عنه الوصف.

وكانت القبة الكبرى المكسوة بالذهب وهي تتوهج في نور الشمس تبدو للرائي من بعيد وكأنها تل من الذهب يقوم من البراري الممتدة من حوله. كما كانت توجد بين يدي الضريح المطهر بركة من النحاس تزيد في جمالها أشعة الشمس المتراقصة فوق سطحها الصقيل اللماع الذي يكاد يحاكي سطح القبة نفسه في بهائه وتلألؤه.

ولم يدخل لوفتس إلى الحضرة، لكنه يذكر أن داخليتها كانت على النمط نفسه من البهاء والرونق الأخاذ. لأنه علم أن أرضيتها كانت مبلطة بقطع منتظمة من الأبريز المصفى، وأن عدداً غير يسير من الأعلاق الفنية المهداة من المسلمين المؤمنين كانت تزين الداخل كله.

ويذكر كذلك أن الصحن كانت تباع فيه أشياء وحاجات كثيرة، فيقارن ذلك بالمعبد في بيت المقدس الذي دخل إليه المسيح قبل ثمانية عشر قرناً فوجد الناس يبيعون فيه الثيران والأغنام، والصرافين يتاجرون بالعملة. وقد لفتت نظره على الأخص طيور الحمام الكثيرة كذلك.

ويقول لوفتس أنه حينما خرج مع جماعته بعد مدة غير طويلة لاحظ في السوق أن الوجوه كانت مكفهرة والجو مكهرباً، فأدرك السبب الذي حدا بطاهر بك إلى أن يأتي بالجند المسلح معه.

ولقدسية النجف هذه كان يقصدها الزوار الشيعة من جميع الأنحاء على حد قوله، وعلى هؤلاء كانت تعيش البلدة بأجمعها. وهو يقدر معدل عدد الزوار الذين

كانوا يفدون عليها في كل سنة بمقدار (٨٠,٠٠٠) شخص، كما يقدر عدد الجنائز التي كـان يؤتى بها للدفن بشيء يـتراوح بـين (٥٠٠٠) و(٨٠٠٠) جنـازة في السنـة وكـانت الجـثـث تنقل من بعيد على ما يقول بصناديق مغلفة باللباد الخشن، وتحمل على ظهور البغال، ولذلك كانت كل قافلة تصل إلى بغداد من إيـران على الأخص لا بـد من أن يكون من بين أحمالها عدد من هذه الصناديق التي كان منظرها مألوفاً في الطرق المؤديـة إلى النجف.

وكانت الأجور التي تفرض على دفن الجنائز تـتراوح ما بـين عشرة توامـين ومئتي تومان (خمسة إلى مئة باون استرليني)، وأكثر من ذلك أحياناً. وكثيراً ما كـانت الجنائـز تتكـدس خارج السـور مدة من الـزمن حتى يتم الانفاق عـلى الأجرة التي يتحتم عـلى الأقارب دفعها.

ثم يذكر أن توارد الزوار عـلى النجف بكثرة قـد أغناهـا غناء غـير يسير في تلك الأيام، كما يستدل من التوسـع التي طرأ عليهـا في تلك السنين والسـور الجديـد الذي أنشيء لهـا. وكذلـك يشير إلى أنـه وجد أن نهراً كـان يحفر لإيصـال الماء إلى البلدة من الفرات، وحل مشكلته، وإلى فضول أهالي النجف وتجمعهم حول الأجانب القادمـين من الخارج إلى حد أن البعض منهم كان يأتي بأهله ونسائه للتفرج عليهم.



رحلة رينتشارد كوك

في أواسط القرن التاسع عشر

ومما يذكره ريتشارد كوك[1] صاحب كتاب (بغداد مدينة السلام) عن النجف في هذه الحقبة من السنين أن الحكومة التركية مدت شبكة التلغراف إليها فربطتها وكربلاء بخط الفرات التلغرافي. وكانت قد تعاقدت في ١٨٥٧ مع الحكومة البريطانية على قيام المهندسين الإنكليز بإنشاء خط تلغرافي على نفقة الحكومة التركية. وبعد أربع سنوات ربطت بغداد بالعالم الخارجي بواسطة الخطوط التلغرافية، ثم أضيفت خطوط أخرى في السنوات التي أعقبت تلك المدة ما بين بغداد والخليج عن طريق الفاو، وما بينها وبين خانقين. وكان الفاو يمر بطريق الفرات، فمُد فرع منه إلى النجف وكربلاء.

وقد زار بغداد في ١٨٥٥، أي في عهد الوالي كوزلكلي رشيد باشا، سائح الماني مشهور ومستشرق يجيد العربية وقواعدها، يدعى (بيترمان)[2] فأقام فيها مدة تناهز الخمسة أشهر، وكتب كثيراً عما شاهده فيها فضمنه رحلته التي طبعها بالألمانية في لايبزيغ سنة ١٨٦٤. وهو يذكر فيها أن زوار النجف وغيرها من العتبات المقدسة كانوا يتواردون من إيران إلى بغداد باستمرار، وقد بلغ عددهم في تلك السنة حوالي ستين ألف زائر كما يستنتج من عدد التذاكر التي أصدرتها السلطات التي كانت مسؤولة عن الحجر الصحي يومذاك في خانقين.

وفي ١٨٦٩ (١٢٨٦ هـ) تعين في ولاية بغداد الوالي المصلح مدحت باشا، فعمل على تجديد الولاية وحكومتها وإدخال الحياة العصرية إلى البلاد. غير أنه اصطدم بأشياء كثيرة كانت تحول دون اقتران الكثير من أعماله بالنجاح الذي يعود

---

(١) Richard Coke - Baghdad the City of Peace, London 1935 الص ٢٧٤

(٢) H. Petermann.

بالمنفعة على البلاد، فقد كانت العقبة الكبرى في طريقه هذا عدم تيسر المال اللازم لمشاريعه، ولذلك فكر في جمعه بطرق ووسائل شتى. فكان من جملة ما فكر به في هذا الشأن أن يبيع التحف والنفائس الموجودة في خزانة النجف وغيرها من العتبات المقدسة، غير أنه لم يستطع تحقيق ذلك بطبيعة الحال. ويقول المستر لونكريك[١] في هذا المقام أنه لم يكن قادراً على تحقيق مشروع كان عزيزاً عليه، وهو بيع خزائن النجف وإنفاق مبالغها على الأشغال العامة. ويمكن أن نذكر بالمناسبة ما ورد في المراجع العربية عن بعض محاولاته المماثلة في الاصلاح. فقد أعلنت[٢] الحكومة التركية على عهده في أوائل محرم الحرام سنة ١٢٨٧ إعلاناً يمنع فيه إخراج مواكب العزاء الحسينية المعتادة ويحدّد نطاقها. وحينما قدم إلى بغداد ناصر الدين شاه في طريقه لزيارة النجف وسائر العتبات سنة ١٨٧٠ (٢٨ شعبان ١٢٨٧) مكث في العراق حوالي ثلاثة أشهر، وقد جرت خلال هذه المدة مفاوضات بينه وبين مدحت باشا حول الكثير من المسائل التي كانت معلقة بين البلدين. فكانت من جملة النقاط التي تم الاتفاق عليها قضية نقل الجثث من مسافات بعيدة ودفنها في النجف الأشرف.

فقد اشتُرط في ذلك، دفعاً للمحاذير الصحية، أن لا يسمح بنقل الجثث للدفن إلا بعد أن تكون قد قبرت في مواطنها أولاً ومرت عليها هناك سنة واحدة على الأقل[٣].

وبمناسبة ذكر الجنائز والزوار أرى من المناسب أن أثبت هنا ما ذكرته الرحالة الفرنسية المعروفة مدام (ديو لافوا) في رحلتها، وكانت قد جاءت إلى العراق في ولاية تقي الدين باشا الثانية على العراق سنة ١٨٨١ (١٢٩٩ هـ) مع زوجها عالم الآثار الفرنسي المسيو (مارسيل ديو لافوا). فهي تقول عن الجنائز «. . وفي حوالي الغروب ظهرت من بعيد بناية كبيرة من الآجر هي خان كبير شيده المحسنون بجهودهم ومالهم، وفيه بضع حجر واسعة معدة لاستراحة زوار العتبات المقدسة. . . ولما كان الجو بارداً لم نرّ بداً من اختيار إحدى تلك الحجر للنزول فيها، ولكننا ما كدنا نترجل

(١) الص ٢٨٥ س الترجمة العربية، ط ٢.
(٢) جريدة الزوراء ٤ محرم ١٢٨٦.
(٣) الص ٢٤٣ تاريخ العراق بين احتلالين ج ٧.

عن جيادنا حتى علت إلى أنوفنا عفونة أوشكت أن تزكمها، ولفتت نظري أشياء مركومة بعضها فوق بعض فتقدمت منها أتفحصها، وما كدت أمد يدي حتى ارتدت إليّ وكأنها قد مسها تيار كهربائي واضطربت أشد الاضطراب، فقد كانت هذه الأشياء المحترمة المركومة جثث موتى بعضها قد لفت في بساط أو سجاد وحزمت بحبال وبعضها في توابيت خشب يبدو من بين شقوقها اللحم الناشف المسود لهؤلاء الموتى، وعلى أثر هذا خرجنا سريعاً تاركين هذا الخان الغريب ونزلنا في محل يبعد عنه كثيراً لنقضي فيه ليلتنا. . وعلى رغم ابتعادنا عن الخان بمسافة ليست قليلة كانت رائحة العفونة تضايقنا كلما هب النسيم من جانبه. . والواقع أن دفن الموتى في النجف وسائر المراقد المقدسة أصبح عادة لفريق من المسلمين منذ أوائل عهد الإسلام. . »[1].

وتقول عن الزوار أنهم كانوا يتواردون من إيران على بغداد في طريقهم إلى الكاظمية والنجف، وكانوا عند دخولهم إليها من بابها الشرقي يتعرضون إلى الكثير من عبث الأطفال وهرجهم، وإلى الرمي بالحجارة في أغلب الأحيان.

ومع جميع الأذى الذي كان يصيبهم من ذلك كانوا لا يفكرون في يوم من الأيام بتقديم الشكوى إلى السلطات التركية أو إقامة أية دعوى في المحاكم، لأنهم كانوا يعلمون أنهم لا يحصلون على نتيجة ملموسة يتجنبون المصاعب بها. فالمسؤولون الأتراك كانوا يشجعون هذه الأعمال على حد قولها، وكانت كل شكوى تقدم من الزوار إليهم تقابل بالهزء والسخرية.

(١) الص ١٢٨ من الترجمة العربية عن الفارسية (بغداد ١٩٥٨).
Madame J. Dieulafoy - La Prese, La Chaldée, et la Susiane (Paris 1887)

رحلة جون بيترز

جون بيترز في النجف

على أن أهم من كتب عن النجف من الغربيين في تلك السنين الأستاذ الأمريكي (جون بيترز)[1] رئيس بعثة بنسلفانيا للتنقيب عن الآثار القديمة في نفّر (منطقة عفج)، التي زارها في سنة ١٨٩٠. فقد جاء إلى النجف من السماوة بعد أن كتب منها إلى (شاؤول) الصراف اليهودي في الحلة بتدبير شؤونه المالية وموافاته فيها. وهو يروي قبل أن يذهب إلى النجف حادثاً يتعلق بوضع الزوار في الطرق العامة في تلك الأيام. فبينما كان المستر بيترز يزورقائم مقام السماوة خليل بك في دائرته الرسمية إذ دخل عليهما رجل من زوار الهنود وهو نصف عاري، وأخذ يشكو بتوسل وخضوع ما فعل به رجال الأمن «الضابطية»، فقدأمسكوه في قارعة الطريق وسلبوا منه جميع ما كان عنده من مال ومعظم ألبسته وحاجاته.

ونظراً لمخاطر الطريق البري ما بين السماوة والنجف قرر المستر (بيترز) أن يسلك الطريق النهري برغم ما فيه من متاعب وصعوبات. فاستأجر طرادة من السماوة واستقلها مع خدمه وجماعته، وبعد أن سارت بهم في الفرات بضع ساعات سلكوا طريق شط العطشان حتى وصلوا إلى الشنافية. ومن هناك دخلوا بحر النجف، وبعد ساعات عشر وصلوا إلى جزيرة صغيرة في وسطه يقال لها «أم الرغلات» وفيها شاهدوا عدداً من الزوارق كانت تقل الكثيرين من الزوار الإيرانيين الذي نزلوا للمبيت. ثم أقلعوا منها قاصدين ساحل البحر المذكور حيث كانت توجد مزرعة صديقه الحاج (طرفه) شيخ مشايخ (عفج) ومن هناك دخلوا جدول المشرب، ثم نزلوا بعد ساعات في أبي صخير.

---

(١) Nippur or Explorations and Adventures on the Euphrates 1888 - 1890, London & New York 1897, Vol. II.

وحينما ركبوا الدواب وتوجهوا إلى النجف مروا في طريقهم بخرائب مدينتين كان اسم إحداهما «طعيرزات»، وهي على ما يعتقد موقع الحيرة القديمة ويفهم من كتابات بيترز أن النجف كانت تسد أبوابها عند الغروب، ولذلك أجهدوا أنفسهم في السير لئلا يتأخروا في الوصول إليها فتوصد أبوابها في وجوههم. لكن المكاري طمّنهم من هذه الناحية لأنهم كان بوسعهم أن يدخلوا إلى النجف من ثلمة يعرفها في السور فيما لو تأخروا في الوصول على أنهم لم يضطروا إلى ذلك في الأخير، لأنهم وجدوا عند وصولهم أن الأبواب كانت ما تزال مفتحة وعلموا من شاؤول الصراف، الذي كان ينتظرهم عند الباب، بأنه كان قد عرف بوصولهم إلى أبي صخير ورجا القائم مقام بأن يوعز بإبقاء الأبواب مفتحة حتى يتم وصولهم إلى النجف.

وأول ما يدوّنه بيترز عنها أنه كان يتوقع أن يلاقي صعوبة في الدخول إليها والتجول في أنحائها، بالنظر لما قرأه عنها وعن تعصب أهلها في رحلة لوفتس (المار ذكرها). لكنه وجد أن الأمر بعكس ما كـان ينتظر، لأنه استطاع التجول في البلدة بكل حرية وتمكن من تصوير مناظر عدة من بينها منظر الجامع الكبير نفسه.

وكان في معيته شخصان أرمنيان يدعيان: (آرتين) و(نوريان)، وقد استطاع خدامه العرب إدخالهما معهم إلى داخل الصحن والحضرة المطهرة كذلك، أحدهما بصفة زائر إيراني والآخر بصفة تركي من استانبول. ثم قص عليه (نوريان) جميع ما شاهده في الداخل. إذ قال له أنه أجبر على تقبيل السلسلة الكبيرة وجانبي الباب الكبير. وحينما دخل إلى الصحن المحاط بالأروقة ألفى الجدران مزينة بالقاشاني، والمرايا المنزلة بالفضة. ووجد أن مئذنتين كانتا مكسوتين بالذهب من علو قامة واحدة إلى القمة، كما وجد الضريح في الداخل تعلوه القبة الكبرى المذهبة بذهب يأخذ بالأبصار. وبعد أن خلع هـو ومن كان معـه أحـذيتهم دخلوا إلى الحضرة المطهـرة يصحبهم عـدد من الجنـود، ويتقـدمهم سيـد بعـمامـة خضراء. ثم يصف الزينة الفاخرة والقاشاني والفضة والمرايا التي كانت تدل كلها على فخامـة بربرية على حد تعبيرة. وتأتي كذلك كيفية أداء الزيارة وراء المزوّر ومسك الشباك، لكنه يقـول أنـه كان عـلى درجة متنـاهية من الاضـطراب والخوف من افتضـاح أمره. ولـذلك لم يستـطع ملاحظة جميع ما كان يريد أن يلاحظه بالتمام، وكذلك كان الآخرون ومن أجل هذا عزم عـلى الدخول إلى الزيارة في اليوم الثاني، لكنـه صادف في السـوق رجلاً من تجار بغداد يعـرفه تمـام

المعرفة فخشي من أن يشي به فلم يفعل.

ويقول (بيترز) أنه وجد النجف مدينة مزدهرة، يتراوح عدد نفوسها ما بين العشرين والثلاثين ألف نسمة. وقد ألفاها محاطة بسور متداع، مشرف على السقوط. وكانت البيوت، مثل السور، مبنية بالطابوق المستمد من خرائب الكوفة، ولذلك كانت الحمير تشاهد وهي تنقل هذا الطابوق يومياً من الكوفة إلى النجف. وكان ماء النجف أحسن ماء شربه (بيترز) في هذه البلاد! وقد كان يؤتى به إليها بقناة تمر من تحت الأرض. على أنه يقول أن طعم الماء المستقى من الآبار كان يغلب فيه طعم الكلس.

وبعد أن يشير إلى المساحة الكبيرة التي كانت تحتلها القبور فوق الهضبة الرملية في خارج السور، يأتي على ذكر الجنائز أيضاً ونقلها من مسافات بعيدة فيقول أن النجفيين مع كثرة ما يرد إلى بلدتهم من الجنائز على الدوام فإنهم لا تتسرب إليهم عدوى الأمراض، كما لوحظ بالفعل في أثناء انتشار الهيضة في العراق سنة ١٨٧٩. ويعلل ذلك بحصول نوع من المناعة عندهم مستنداً في ذلك على أقوال الأطباء. وهذا قول غير صحيح من الناحية العلمية بطبيعة الحال، لكن (بيترز) معذور فيه لأن نظرية العدوى والميكروبات العلمية لم تكن قد اكتشفت في تلك الفترة من الزمن.

ولما كان (بيترز) عالماً من علماء الآثار القديمة فإنه يعتقد بأن العرب في المنطقة الجنوبية يعيشون عيشة تشبه عيشة البابليين قبل أربعة آلاف سنة في كثير من الأشياء. ويقارن بين الطقوس الدينية القديمة والحالية، وبين ما يلاحظ في الوقت الحاضر من نقل الموتى ودفن جثثهم في الأماكن المقدسة، ومن وجود (الأكشاك) في أبواب الصحن لبيع الكثير من الحاجات واللوازم، وما كان يحصل في أبواب معبد (بيل) في (نُفَّر) من قبل.

وقد زار (بيترز) الكوفة أيضاً. وهو يقول أن الرحالة الذين جاؤوا إليها في بداية القرن التاسع عشر يشيرون إلى وجود الكثير من آثار البلدة العربية القديمة فيها لكنها لم يبق منها حينما زارها هو سوى بعض التلول والأساسات لأن طابوقها قد نقل كله للاستفادة منه في بناء أبنية النجف نفسها. ويذكر في كتابه أن هناك في غربي الكوفة نهراً مندرساً كبيراً يسمى «كري سعده». ويروي الخرافة التي تروى عن تسميته بهذا الإسم، وهي أن تاجراً غنياً من تجار البصرة كان قد أحب امرأة جميلة اسمها «سعدة» من أهالي المنطقة الكائنة ما بين هيت وعانه في شمال البلاد. وكانت هذه المرأة تهوى ضفاف الأنهر

المظللة، فاشترطت عليه حينما خطبها من أهلها أن تنقل إلى البصرة في طريق النهر الذي يمر بالأماكن التي يجللها الظل. فما كان منه إلا أن يحفر لها هذا النهر ويغرس الأشجار على ضفافه. ويعتقد بيترز أن «كري سعدة» هو الجدول الكبير الذي حفره (نبوخذ نصر) فمده من موقع يقرب من هيت إلى الخليج ليحيي به مساحات شاسعة من الأرض الموات.

وقد توجه بعد ذلك إلى كربلاء، بعد أن دفع أجور الخان وقيمة أكواز الماء التي شرب فيها لأنها قد تنجست بعد أن استعملها فاقتضى كسرها والاستغناء عنها. وفي خان الحماد الذي نزل ليستريح فيه وجد رجلاً من أهالي النجف يصطحب عدداً من الزوار الإيرانيين معه. فعلم منه أن خزائن النجف التي لا تقدر بثمن كانت تتألف في الحقيقة من خمس خزائن: واحدة للجواهر الثمينة والأعلاق النفيسة، وأخرى للأموال، وثالثة للسجاد والطنافس، ورابعة للأسلحة الفاخرة، وخامسة لأنواع «البهارات».



رحلة المسز رولاند ويلكنس

في أوائل القرن العشرين

وفي أوائل القرن العشرين جاءت إلى هذه البلاد سائحة إنكليزية تدعى المسز (رولاند ويلكنس) فلفت نظرها حينها كانت في طريقها من بغداد إلى الحلة لزيارة أطلال بابل سفر الزوار الإيرانيين بجماعات وقوافل خاصة. فهي تقول في كتابها[1] عن الرحلة إلى هذه الجماعات أنها مرت في طريقها إلى بابل بجماعات الزوار الإيرانيين الذين كانوا في طريقهم لزيارة الإمام الحسين في كربلاء، والإمام علي في النجف. وكان الكثيرون منهم يأتون من بلادهم مشياً على الأقدام، لكن بعضهم كان يركب البغال ويحمل معه فوق ظهورها حاجاته القليلة في أخراجٍ سفرية خاصة. وتقول كذلك أن هؤلاء الزوار كانوا يأتون معهم بالجنائز مشدودة بصورة مستعرضة فوق أظهر الحمير؛ لأن أمنية المؤمن الحق هنا أن لا يقتصر في أيام حياته على زيارة الأئمة فقط بل يطمح أيضاً في أن تقبر رفاته بسلام بعد الموت في الأرض المقدسة التي استشهد فيها الحسين وأبوه عليهما السلام.

وفي تقرير[2] عسكري مكتوم، أعدته رئاسة الأركان البريطانية العامة في ١٩١١، عن المنطقة الممتدة من بغداد إلى الخليج، يرد ذكر النجف بتفصيلات تفيد الأغراض العسكرية عنها. فقد ورد فيه أن النجف، أو مشهد علي، بلدة يبلغ عدد نفوسها زهاء (١٢٠٠٠) نسمة منهم عدد من الهنود المسلمين. وتصل إليها حوالي ستة آلاف جثة في السنة لتدفن في مقابرها نظراً لقدسية المكان ويرد في التقرير كذلك أنها تقع على مسافة

---

(١) Louisa Gebb (Mrs Roland Wilkins) - by Desert Ways to Baghdad, London 1908.

(٢) Military Report on the Region between Baghdad and the Persian Gulf - Prepared by the General Staff, 1911 (A 1551). الص ٣٠ و ٨٠

ثلاثين ميلاً عن الحلة، وتقوم على هضبة من الحجر الرملي ترتفع عن السهول المحيطة بها بحوالي مئة وخمسين قدماً(؟) وهي محاطة بأسوار يبلغ ارتفاعها خمسة وعشرين قدماً، وسمكها خمسة إلى ستة أقدام، من دون أن يحيط بها أي خندق، ويكوّن محيط الأسوار كله شكلاً مربعاً تقريباً، يضم في داخله كتلة كبيرة من البيوت المتحاشكة. وماؤها قليل يؤتى بالعذب منه بقرب من الجلد من فرع الهندية (الفرات) الكائن على بعد أربعة أميال عن البلدة، ويعتبر ماء الآبار ماء أجاجاً. وتعتمد البلدة في حاصلاتها على قبائل بني حسن وتوجد يها حامية عسكرية تتكون من فوج واحد.

أما طريق بغداد ـ النجف فقد كانت الأزواد وفيرة فيه على ما يرد في هذا التقرير ويبلغ عدد الزوار الذين يمرون فيه ما يزيد على الألفي زائر في اليوم خلال موسم الزيارة الذي يمتد لأربعة أشهر في السنة على ما يقول. وفي التقرير بعض التفصيلات عن الطريق الممتد ما بين النجف وكربلاء، ولا سيما عن الخانات المعروفة فهناك منزل خان النخيلة الذي يقول أنه يتألف من ثلاثة خانات وستة مقاهي، وآبار عذبة للماء، وعدد من الأكواخ البسيطة من دون أن تكون فيه بيوت. وكان منزل خان الحماد يتألف من عشرة خانات ومئة بيت وعدد من الآبار التي يصلح ماؤها للشرب. أما منزل خان المصلى فكانت فيه ثلاثة خانات وستة مقاهي من دون بيوت.

وفي اليوم السادس من آذار ١٩١١ كانت المس (غيرترود بيل) تتجول في البادية على مقربة من النجف في طريقها إلى بغداد. وكانت المس (بيل) هذه، التي أصبحت فيما بعد سكرتيرة دار الاعتماد البريطاني في بغداد وتحكمت بمقادير العراق مدة من الزمن، قد تجولت كثيراً في نجد وسوريا وبادية الشام والعراق فكتبت كثيراً عن جولاتها هذه ومما جاء في رسائلها[١] المعروفة عن جولتها في هذه الجهة أنها بينما كانت في طريقها إلى النجف في هذا التاريخ خطر ببالها أن تستقصي آثار اللخميين في تلك الجهات وتشاهد الكهوف الغربية التي قيل لها أنها موجودة في الأجراف المحيطة ببحر النجف من بعض الجهات، فاصطحبت معها إلى هناك الشيخ سلمان[٢] أحد شيوخ بني حسن. لكنها لا

---

(١) The Letters of Gertrude Bell - Selected & Edited by Lady Bell, London.

(٢) يغلب على الظن أنه الشيخ سلمان آل زجري.

تذكر شيئاً عما عثرت عليه في هذا الشأن.

وفي يوم ٧ مارت ١٩١١ وصلت إلى النجف بعد أن مرت في قسم من طريقها بقاع بحر النجف الجاف. وهي تصف في رسالتها المؤرخة ١٠/٣/ ١٩١١ البلدة بكونها بلدة مسورة تقوم على حافة الجرف المرتفع بجنب البحر الجاف، وتشير إلى القبة والمآذن والمقابر وقدسية البلد من دون أن تذكر شيئاً يستحق التدوين. لكنها تقول أنها نصبت خيامها خارج البلدة في الجهة الخالية من القبور، وذهبت لزيارة القائم مقام التركي الذي أمر مدير الشرطة بأن يرافقها للتجول فيها. وحينما عادت إلى خيمتها زارها عدد من المعممين[1] والرجال الرسميين على حد قولها. ولأجل المحافظة على مخيمها في الليل وضع ثلاثون جندياً لحراستها غير أنها لم يرقها ذلك فاحتجت بشدة وانسحب الجند. وهي تذكر في هذا الشأن أن الحراسة كان لا بد منها نظراً للحوادث الكثيرة التي كانت تحدث خلال الليل في منطقة القبور. لأن بعض الناس، ومنهم أفراد القبائل، كانوا يأتون بالجنائز ويحاولون دفنها تحت جنح الظلام تهرباً من الليرات العشر التي كانت تفرضها سلطات البلدة رسوماً للدفينة وكانت الدورية تطلق عليهم النار بسبب ذلك فيردون عليها بالمثل. وقد سمعت هي وجماعتها إطلاق النار في تلك الليلة مع ما صحبها من صراخ النساء وعويلهن عن بعد ثم خرجت في اليوم الثاني مع رجل من «الضابطية» لمشاهدة خرائب الخورنق فلم تجد فيها على ما تقول سوى بعض التلول، لكنها سرها أن تشاهد الموقع وما يحيط به.

وقد مرت المس بيل بالنجف مرة أخرى يوم ١٣ آذار ١٩١٤، حينما كانت عائدة من نجد في طريقها إلى بغداد. ولا تذكر شيئاً هنا عن النجف لكنها تقول أنها حينما خرجت من حائل كان بودها أن تسلك طريق الحج القديم إليها غير أنها علمت أنه لم يكن طريقاً آمناً فعدلت عن رأيها فسلكت الطريق الآخر وهو الطريق الغربي.

وفي صبيحة ٢٧ نيسان ١٩١٢ زار النجف الأشرف الأستاذ النمساوي

---

(١) أكثر الظن أن هؤلاء المعممين هم من تلك الفئة التي تستغل زيارة الأشخاص البارزين للنجف فتقصدهم على سبيل الاستجداء متذرعة بالشعر أو المسكنة فيسخون عليهم بالعطاء ظناً منهم أنهم من حملة العلم ومن رجال الدين.

ألواموسيل[١] لدراسة الأحوال الطبوغرافية في المنطقة كلها، فكتب شيئاً عن البلدة وما شاهده فيها. وقد دخلها من الباب الشمالية فألفى فيها سوقاً كبيرة تمتد في اتجاه جنوبي حتى تصل إلى الجامع الكبير، وهو يقول أن المنطقة الواقعة في غرب السوق كانت تعود إلى الشمرت والمنطقة الواقعة إلى الشرق منها كانت لفريق الزكرت. وعلم في البلدة أن أبرز رجل وأقوى شخصية فيها كان كليدار الحضرة المطهرة السيد جواد. ومما يذكره كذلك أن الأتراك كانوا قد شيدوا في النجف ثكنتين عسكريتين واحدة منهما في البلدة نفسها وأخرى في الضاحية الجنوبية الشرقية التي تسمى (الحويش) على حد تعبيره. وكان في الثكنتين معاً حينما زارها المسيو (موسيل) حوالي (٢٥٠) جندياً راجلاً وبغالاً من قوات الدرك (الجندرمة). أما البلدية فقد بنيت بنايتها فيما يقرب من الباب الشمالي الغربي وحينما استقل «الترامواي» وذهب إلى الكوفة شاهد المدافن على جهتي الخط، وهو يقول بالمناسبة أن المجلس البلدي في النجف هو الذي بنى خط الترامواي على حساب البلدية نفسها في سنة ١٩٠٩[٢].

وقد كتب المقيم البريطاني في بغداد سنة ١٩١٢ عن انتعاش الروح الوطنية في العراق بين مختلف الطبقات، وانتشار فكرة القومية العربية في بغداد والنجف وغيرهما فهو يقول أن الذي يلفت النظر هو الحرية المتزايدة التي أخذ يعرب عن نفسه فيها الشعور المعادي للاتحاد والترقي وللأتراك هنا، حيث كان هذا يعد خيانة عظمى من قبل. ويذكر كذلك أن الابن الأكبر للكليدار في النجف[٣] وعبد الرحمن الباجه جي كانا يرحبان بتشكيل حزب جديد يدافع عن مصالح العرب. ويقول المستر (فيليب آيرلاند) كذلك في كتابه عن العراق (الذي سنشير إليه كثيراً بعد هذا) أن مؤتمراً عربياً عقد في المحمرة خلال شهر مارت ١٩١٣، فحضره شيخ المحمرة نفسه، وشيخ الكويت، والسيد طالب النقيب، وموظف تركي كبير. فدار البحث فيه حول مستقبل العراق والحكومة الموجودة فيه فتم الاتفاق على قيام الرؤساء المذكورين ببذل الجهود لتحقيق مطاليب العراق في الاستقلال ثم أوفد الرسل إلى النجف وكربلاء لاستمداد التأييد منهما وتهيئة الناس

---

(١) Alois Musil - The Middle Euprates, New York 1927.

(٢) والمعروف أن الخط الحديدي قد أقامته شركة أهلية.

(٣) وهو يقصد به السيد محمد حسن الرفيعي الكليدار.

للحركة، كما أخبر القوميون العرب في بغداد واستانبول وسورية ومصر وغيرها بقرارات هذا المؤتمر.

رحلة السر رونالد ستورز

زيارة السر رونالد ستورز للنجف

وبينما كان الوضع الحكومي في النجف على مثل هذا زار بغداد رجل من رجال الانكليز الذين كان يتألف منهم «المكتب العربي» في القاهرة، المشرف على شؤون الاستخبارات البريطانية الخاصة بالبلاد العربية جمعاء، وهو (السر رونالد ستورز) الذي تعين فيما بعد حاكماً في القدس بمعية (هربرت صموئيل) المندوب السامي الصهيوني في فلسطين بعد احتلال الإنكليز لها. وأصبح بعد ذلك حاكماً عاماً في قبرص حينما نفي إليها الملك حسين على أثر ابعاده عن الحجاز، وفي روديسيا الشمالية كذلك. وكان الجنرال ستورز، وهو ملم بالعربية تمام الالمام، قد زار النجف في ١٩ مارس ١٩١٧ قادماً من كربلاء فاتصل ببعض وجوهها وعلمائها، ودوّن في كتابه[١] المعروف أشياء مهمة عنها في هذا الدور.

فهو يبدأ بوصف الطريق ما بين كربلاء والنجف ويقول أنه كان طريقاً سهلاً، وبعد أن تجاوز منتصفه مع صحبه بانت له من بعيد القبة المذهبة وهي تتوهج بلمعانها في نور الشمس. وحينما وصل إليها بعد الظهر خرج الألوف لاستقباله على ما يزعم، لا سيما وقد كانت الأسواق مغلقة بمناسبة حلول يوم المبعث[٢].

وقد مر بعد ذلك في السوق المؤدية إلى العتبة المقدسة، ومن هناك توجه إلى دار السيد عباس الكليدار. ويأتي على وصف البيت فيخص بالذكر منه السرداب الكبير الذي تنخفض الحرارة فيه بمقدار عشر درجات عن الخارج. وحينما صعد وقت

---

(١) Sir Ronald Storrs - Orientations, London, 1945.

(٢) أغلب الظن أن يوم وروده كان يوم ذكرى وفاة النبي أو أحد الأئمة وإلا فلم تجر العادة في إغلاق الدكاكين في الأعياد.

الغروب إلى سطح الدار القريبة من الحضرة المطهرة شاهد منه القبة والمآذن وبرج الساعة في الصحن عن قرب، وصوّر مناظر عدة من هناك على ضوء الشمس الغاربة، ثم استراح حتى دقت الساعة مشيرة إلى الثانية عشرة غروبية. وقد تذكر حينذاك ساعة كيمبرج أو (بيك بين) المشهورة. وبعد أن مل من مقابلة أعضاء المجلس البلدي وكبار الشيوخ على حد تعبيره ذهب إلى الفراش في التاسعة والنصف.

وقد استدعى إليه في صباح اليوم الثاني (٢٠ أيار) تجار الحرير والسجاد، ثم أحضر فتاح الفتال الذي نفحه بعشر روبيات برغم عدم براعته في مهنته. وتحدث مدة من الزمن مع الشيخ هادي[١] أحد شيوخ الجعارة فأنبه على ما كان يسمع عنه من تهريبه الطعام والأرزاق بواسطة عشائره إلى ابن رشيد حليف الأتراك في نجد، وهو يقول أنه فاتح شيوخ العشائر الآخرين بالموضوع نفسه وهددهم. وقد توجه إلى الكوفة على أثر هذا فقصد مع جماعته دار علوان الحاج سعدون شيخ بني حسن الذي يسيطر على الطريق الممتد من النجف إلى المسيب على حد تعبيره وقد حرضه خلال حديثه معه هناك على مهاجمة ابن رشيد ونهب العشرة آلاف جمل التي يملكها فتعهد هو ومن كان معه من الشيوخ الآخرين على تنفيذ ذلك..؟

وبعد تناول الغداء مروا بجامع الكوفة وشاهدوا ما فيه من آثار ومواقع مهمة، وفي معيتهم السيد عباس الكليدار، ثم عادوا إلى النجف ليرتاحوا في السرداب البارد. وفي الساعة الخامسة من عصر ذلك اليوم توجه السر (رونالد ستورز) مع رفيقه المستر (غاريوت)، لزيارة العلامة الأكبر السيد كاظم اليزدي الذي يمتد نفوذه من العراق إلى أصفهان. ويذكر ستورز في هذا الشأن أن الإنكليز لم يكونوا مطمئنين من موقف السيد تجاههم، وأنه كان قد رفض مبلغ المئتي باون الذي قدم إليه على سبيل الهدية من قبل. وكان المستر غاريوت الذي رافقه في السفرة من بغداد قد طلب إليه في هذه المرة أيضاً أن يتحايل على السيد اليزدي فيقدم له رزمة بألف باون هدية من الحكومة. فاستثقل هذه المهمة الصعبة، وكلف السر (رونالد ستورز) نفسه بأن يتولى المهمة عنه، فقبل بتحفظ. ودس الرزمة في جيبه ثم توجها إلى دار السيد، وهناك

---

(١) المقصود به السيد هادي زوين.

انتظر برهة من الزمن في خارج حجرته ريثما يخبر بحضورهما. فخرج لهما، وإذا به رجلاً متقدماً في السن يلبس «زبوناً» أبيض ويعتم بعمة سوداء، وقد تخضبت لحيته وأظافره بحنة حمراء لماعة. فحياهما من بعيد وأجلسهما على الحصيرة بجنبه خارج الحجرة. ويقول (ستورز) بعد أن تبحر في وجه السيد أنه أدرك في الحال السر في شهرته ونفوذه. فهناك قوة في سيمائه الواضحة وعينيه الرماديتين المتعبتين، وسلطان في وجوده وحديثه الخافت مما لم يجد له مثيلاً في أي مكان آخر من بلاد المسلمين.

ويذكر كذلك أنه بعد أن أثنى عليه وعلى مواقفه المشرفة، أخذ يسأله عما إذا كان هناك أي شيء يريدان أن يفعله الإنكليز له فبادره بقوله «حافظوا على العتبات الشريفة، حافظوا على العتبات الشريفة». فاعتبر (ستورز) أنه يقصد بذلك المحافظة على العتبات ومن فيها من جماعة العلماء والمجتهدين بوجه عام. ثم عاجله السيد بجملة أخرى طلب إليه فيها أن لا يعينوا في المدن الشيعية إلا الموظفين من أبناء الشيعة، وأن يطلقوا سراح بعض الشيعة الذين كانوا معتقلين ومنهم الدكتور مظفر بك، وأن يعينوا الميرزا محمد (وهو المحامي محمد أحمد الموجود حالياً في البصرة) قائمقاماً في النجف[١]. وفي هذه المرحلة بدا السيد اليزدي للسر (رونالد) وكأنه قد نزل من عليائه بعض الشيء، لأنه أنعم عليه كما يقول بجملة ثناء أعقبها بكلمة فارسية خاطب بها عالماً آخر كان موجوداً في مجلسه، وقد علم بعد ذلك أنه قال له أن الأتراك لو كانوا يسلكون مثل هذا السلوك لما أضاعوا تعلق العرب بهم مطلقاً. فما كان من السر رونالد إلا أن يعده بنقل توجيهاته ومشورته هذه إلى السر بيرسي كوكس في بغداد. وبعد تردد وإحجام طلب إلى السيد أن يختلي به وحده لمدة ثلاث دقائق فقط، ثم ذكره بوجود عدد لا يحصى من الفقراء الذين كانوا ينظرون إليه في إعاشتهم على الدوام، واسترحم منه بأن يمد يد المساعدة للإنكليز في هذا الشأن. وحينما مد (ستورز) يده لتقديم رزمة الباونات إلى السيد في هذه الأثناء دفع السيد الرزمة برفق مقرون بالعزم الأكيد وهو يعتذر عن قبولها. فلم يجد(ستورز) من اللياقة الإلحاح

(١) كان الميرزا محمد قد اشتغل مع الإنكليز قبل الحرب في منطقة الخليج، وجاء مع الحملة إلى العراق فعين معاوناً للحاكم السياسي في كربلاء.

على تقديمها، وعمد إلى فتح موضوع الشريف معه. وهو يقول أن السيد كان من المعجبين (بالشريف) والمؤيدين له. وبعد ساعة انقضت على هذا المنوال عزم السر (رونالد) على توديع السيد والعودة إلى المنزل، غير أنه قبل أن يفعل ذلك حاول تقديم الألف باون مرة ثانية إليه، لكنه رفضها من جديد بكل مجاملة وأدب. وهو يعتقد أن الشيء المهم الذي كان يعبأ به السيد هو الأنفة والآباء لا المال، وأنه لا بد أن يخضع في الأخير بطريقة مناسبة حينها يكون الدافع لذلك شيئاً لا مطعن فيه. وهذا موقف بعيد تمام البعد عما يحدث في مصر والحجاز في ظروف مماثلة على حد تعبيره.

وحينما عاد ستورز بعد ذلك إلى منزل مضيفه السيد عباس الكليدار طلب إليه أن يشاركه في تناول العشاء ويضحي بآداب المجاملة التي تدعوه إلى الوقوف في خدمة الضيف في أثناء تناول الطعام وهو يذكر بإعجاب أن السيد عباس وقف بعد ذلك للعناية لتقديم العشاء للسواق أيضاً على المائدة نفسها. ثم آوى إلى فراشه بعد مدة وقضى ليلة خالية من النسيم تماماً فوق السطح، وقد تسنى له خلالها أن يعجب بالهدوء التام والصمت الغريب الذي كان يلف النجف ما بين الساعة الثانية والرابعة بعد منتصف الليل وقبيل الفجر كذلك.

وقد غادر السر (رونالد) النجف صباح اليوم الثاني (٢١ أيار ١٩١٧) بعد أن وزع حوالي مئة وخمسين روبية على الخدم فيها. فمر عند خروجه منها إلى طريق كربلاء بالمقابر التي يدفع فيها الناس ستين باوناً لقاء السماح لهم بدفن موتاهم وهو يقول أنه سرّ تمام السرور لأنه ابتعد عن ضيق البيوت التي كانت تحتشد بالخمسين ألف نسمة من سكانها المحصورين بين جدرانها الضيقة من دون أن تتهيأ الفرصة لأن يقع نظرهم على أي نبات أخضر أو تشم أنوفهم الهواء النقي.



رحلة توماس لايل

لقد كتب عن النجف في هذه الفترة أناس آخرون من الإنكليز، وتطرقوا إلى شؤون الحياة الأخرى فيها غير الشؤون السياسية التي أتينا على شيء كثير منها حتى الآن. ومن هؤلاء رجل استعماري ينتمي إلى مدرسة (أرنولد ويلسن) وكيل الحاكم الملكي العام الذي أدت تصرفاته الطائشة إلى اندلاع نيران الثورة العراقية في ١٩٢٠، وهو المستر (أو الكابتن) (توماس لايل) وكان (لايل) هذا قد جاء مع الحملة البريطانية من الهند وأشغل وظيفة معاون حاكم سياسي في قزلرباط (السعدية) والشامية والنجف منذ ١٩١٨ إلى ١٩٢١، ثم اشتغل معاوناً لمدير الطابو في بغداد وحاكماً في محاكمها المدنية بعد ذلك. وقد كتب كتاباً عن العراق باسم (دخائل العراق)[١]، لكنه يفرد فيه فصلاً خاصاً للنجف والعتبات الشيعية المقدسة ويبحث في معظم صفحاته عن الشيعة ومعتقداتهم وأحوالهم الاجتماعية بوجه عام. ولم أجد بين الكتب الإنكليزية التي كتبت عن العراق كتاباً مثل هذا مشحوناً بالطعن والسب وإيراد المثالب، والمغالطات وسوء الفهم للكثير من أحوال العراق بوجه عام وأحوال الشيعة ومعتقداتهم بوجه خاص. ويستبان من تحامله الذي سأذكر شيئاً منه انه رجل موتور من العراقيين، لا سيما وقد كتب كتابه في أعقاب الثورة العراقية التي اندلعت نيرانها من النجف وما يحيط بها من مناطق الفرات الأوسط فأربكت خطط الإنكليز الأميرالية وأسقطت ويلسن وجماعته المنتمين إلى «مدرسة الهند» الاستعمارية البريطانية.

ومما يدل على ما جاء في الكتاب قوله في المقدمة[٢] «.. ولما كنت مقتنعاً اقتناعاً

---

(١) Lyelle, Thomas - The Inns & Outs of Mesopotamia, A. M. Philpot Ltd. London 1923.

(٢) تعمدنا أن نورد جانب السخط من أقوال الساخطين وما جرت به أقلامهم لكي نحافظ على أمانة النقل =

جازماً، من تتبعي الشخصي، أن العقيدة الاسلامية هي عقيدة غير تقدمية، مثبطة للهمم، ومدمرة لأية غريزة من غرائز المواطنة الحقة، والأماني الوطنية، فقد جهدت أن أبرهن في الكتاب على أن المسلمين والشيعة منهم غير صالحين بالكلية للحكم الذاتي ـ وسيبقون كذلك مدة من الزمن ـ الحكم الذاتي الذي لا يرغب فيه المسلم إلا لكونه وسيلة من وسائل التهرب من حكم النظام والقانون» ولا شك أن التطورات التي حصلت في البلاد الإسلامية كلها منذ ذلك التاريخ حتى اليوم تكفي للبرهنة على سخف هذا الرأي وهو يعتقد أن وجود عتبات الشيعة الأربع في العراق ـ أي النجف، وكربلاء، والكاظمية، وسامراء ـ يجعل من قسماته وأوصافه المميزة شيئاً فريداً في بابه، ويعتبر مفتاحاً لمعرفة أوجه الضعف والقوة في سكانه. ولذلك فهو يحصر مباحث كتابه معظمها في هذه العتبات وعقائد سكانها. لكنه مع جميع ما يحاول إيراده من مثالب لا يستطيع طمس الحقائق الناصعة في كثير من الأحيان والمناسبات.

ويبدأ (لايل) بوصف النجف ومعالمها، فيذكر أن عدد نفوسها يقدر بخمسة وأربعين ألف نسمة، ولما كان محيط سورها الخارجي يقل عن ثلاثة أميال في طوله فإن أحوال النفوس المحتشدة في داخله خير للمرء أن يتصورها من أن يحاول وصفها بالعيان. ويبلغ عدد الزوار الذين يمرون من أبوابها في بعض الأعياد الكبرى حوالي مئة وعشرين ألف شخص. وهو يشبه النجف في موسم الزيارات بأسفنجة كبيرة تمتص جميع هذا العدد من الزوار، وتقذفهم إلى الخارج بعد أربعة أو خمسة أيام وهم فارغي الجيوب ليجدوا طريقهم بوسيلة من الوسائل إلى إيران والهند والحجاز أو فلسطين على حد تعبيره. ثم يقول أن سكان النجف يجب أن يقسموا إلى طبقتين بارزتين، طبقة رجال الدين المحترفين وطبقة العوام الاعتياديين. ويعتبر النجف كلها جامعة دينية واحدة يبلغ عدد طلابها حوالي (٦٠٠٠) طالب. والنجفي الاعتيادي في نظره نتاج محيطه المشحون بالتعصب، وقد يكون غنياً لكنه لا بد له من أن يتظاهر بالفقر، وينظر

ـــــــــــــــ

= من جهة ولئلا نبقي شيئاً محجوباً التزاماً منا بمقتضيات الموسوعة التي تتطلب ثبت جميع النواحي وعرضها كما هي، على أن (لايل) هذا يعود بعد ذلك كما لو كان نادماً فيصف النجف وصفاً بشيء كثير من القدسية، أما صورة النجف الواقعية فسنأتي عليها في الأجزاء الأخرى من قسم النجف معروضة عرضاً تاريخياً سليماً بعد أن نكون قد أتينا على جميع الأقوال فيها.

إلى الزوار والبدو الذين يأتون للاكتيال وكأنهم فرائس شرعيون له. أما التاجر النجفي فهو من طراز التجار في القرون الغابرة، حينما كانت البضاعة تشحن بواسطة القوافل وتمر بأخطار لا حصر لها فلا يُعرف ربحها أو خسارتها إلا بعد عدد من السنين، ويكون أقل ربح لهم منها بنسبة مئة بالمئة. ويعتبر الزائر الإيراني المتشبع بالروح الدينية، والبدوي الذي يذهله حتى منظر البيوت، تحت رحمته على الدوام. ومن عاداته أنه يحتفظ بتنكة الدهن ثلاثين سنة في سردابه بأمل أن يرتفع سعرها قرشاً واحداً.

والدين في رأي المستر (لايل) يتخلل حياة المجتمع النجفي من جميع نواحيه. فهو ينظم (نفسولوجية) الناس فيه، ويسيطر على أفكارهم وأعمالهم، وينساب أبداً ودوماً مع التيارات الخفية المتخللة في عقلهم الباطن. وبوسع المرء مهما ابتعد عنهم أن يسمع «نوطته» المدوية في قلب ذاتيتهم واضحة جلية[1]. ثم يأتي على وصف رجال الدين، والحياة العلمية بتفصيلاتها وأحوالها المعروفة للجميع، بعد أن يعترف بأنها أقدس المدن الشيعية ومقر أعظم المجتهدين وأكبرهم على الدوام. كما يقارن ما بين الاجتهاد الموجود عند الشيعة والالتزام بالنصوص الدينية الأصلية لدى المذاهب السنية الأربعة، ويتطرق إلى نفوذ المجتهدين ومنزلتهم الكبيرة في العالم الإسلامي. ومما يذكره للبرهنة على هذا النفوذ الواسع قصة المجتهد الأكبر العلامة الميرزا حسن الشيرازي الذي أفتى بتحريم انحصار التبغ وإعطاء امتيازه إلى شركة روسية كافرة على حد تعبيره في أواخر القرن الماضي في إيران. ويذكر كيف أن تلك الفتوى قد أدت إلى إبطال الامتياز وتعويض الشركة الأجنبية عن خسارتها. ويعقّب على هذه القصة بقوله أن عالماً من علماء السنة لا يستطيع أن يفعل ذلك. ويشير كذلك إلى أن من حسنات الاجتهاد أن يسمح العلماء الشيعة بتناول الكحول المحرمة عند الضرورة وعند اعتباره دواءً شافياً للمرضى في بعض الحالات. ثم يعدد شروط الاجتهاد التفصيلية التي ينقلها عن كتابٍ لقس من المبشرين يدعى (أدورد سيل).

ولا ينسى المستر (لايل) الإشارة إلى وادي السلام الممتد خارج السور، الذي

---

(١) توماس لايل، الص ١٧ ـ ٢٢.

يـرقد في أرجـائه رقـدتهم الأبديـة الكثيرون من الملوك والـوزراء والوجهـاء والتجـار، والأغنياء والفقراء. ويشير إلى القراء الذين يقرأون القرآن على الكثير من القبور لينيروا ظلمتها الموحشة ببركته وروحانيته، فيقول أن الزائر لوادي السلام في أمسيات الخميس من كل أسبوع يجد حوالي ألفي قارىء من هؤلاء القراء الـذين يحصلون على قـوتهم من هذه المهنة المصـطبغة بـالتقى والورع. ولا يحصـل هؤلاء على الكثـير من هذه المهنـة، ولذلك فإنهم يتقاضون أيضاً حصتهم من الصـدقات التي يفـرقها المجتهـد الأكبر عـلى المحتاجين من الناس عادة.

ويـأتي بعد ذلـك على الـطرق الضيقة والبيـوت المحتشـدة في رقعـة صغـيرة من الأرض.

وأهم ما يذكره عنها مـا يشير بـه إلى السراديب النجفية المعـروفة التي يقـول أن المزية الفريدة في النجف وجود طبقة واحدة منها في كل بيت على الأقل، وقد تـوجد في بيوتها الكبيرة ثلاث أو أربـع أو خمس طبقات من هـذه السراديب أيضاً. ومـزية هـذه السراديب من الناحية العملية في رأيه أن المرء يتحتم عليه لبس المعطف حينما ينزل إلى ما تحت الطبقتين أو الثلاث منها، بينما تكون درجة حرارة الخارج في حدود الـ (١٢٥) بالمقياس الفهرنهايتي. وتتصل كثير من الدور بعضها ببعض عن طريق هـذه السراديب فتكون وسيلة للجرائم التي تقف مخيلة الرجل المتمدن مشدوهة مرتجفة تجاههـا على مـا يقول[١]. ويتطرق المستر (لايل) كذلك إلى وجود بئر واحـدة في كل بيت يبلغ عمقهـا مئة قدم، وفيها ماء أجاج يتسبب عنه الزحار (ديزانتري) أحياناً.

ومـع جميـع المغـالـطات والمثـالب التي يـوردهـا المسـتر لايـل حينـما يبحث عن الشخصيـة النجفية، وعـلاقة الشيعـة بالسنّـة، وجرائم المجتمـع، والمتعـة والـطلاق والقضـايا الجنسيـة، ووضع الإنكليـز في العراق مـع حقهم بالبقـاء فيه، فـإن الحقائق الناصعة عن الصوم والالتزام بطقوس الحـزن على الإمـام الحسين في محـرم، وشخصية الإمام علي عليـه السلام، لم يستـطع بكل مـا عنده من تعصب وتحيـز أن يطمسهـا أو يحجب نورها عن نظر القارىء.

---

(١) نعتقد أن الحكاية هذه تحمل تكذيبها بنفسها.

فقد كان الإمام علي في نظره ألمع الأئمة المسلمين وأعظمهم بمراحل. «وقال إنه قد عرف في شبابه وكهولته بالكثير من المآثر وأعمال البطولة التي تخلد شجاعته الفائقة في التاريخ وتبرر لقب «الأسد» الذي لقبه به النبي الكريم، كما عرف في شيخوخته بورعه وزهده ودماثة خلقه. ولا يسع المرء غير المتعصب إلا أن يعجب بشخصيته الملهمة المحبوبة للغاية، لما عرف عنه من إخلاص تام وتفان متناه لمعلمه وسيده النبي محمد. وقد أدى قتله بالطريقة التي قتل فيها إلى انتشار شهرته وذيوع صيته في الخافقين».

وقد كتب لايل في كتابه حوالي عشرين صفحة[1] عن محرم الحرام واستشهاد الإمام الحسين فيه، ومراسيم اللطم والضرب بالقامة والسلاسل إحياءً لذكراه وحزناً عليه مما يجري في النجف كل سنة. وهو يقول في هذا الشأن أن الحياة العاطفية المتطرفة عند العرب والمسلمين تجد متنفسها الكامل خلال الأيام العشرة الأولى من محرم. وإن يوم عاشوراء يعد من أقدس الأيام عند المسلمين لأن الله عز وجل خلق فيه آدم وحواء، والعرش والسماء، وجهنم ويوم الحساب، ولوح القدر والقلم والمعاد والموت. ومما يذكره عن ليلةٍ شهد فيها موكباً من مواكب «اللطمية» قوله «.. إن السكوت التام الذي كان يخيم على الجموع المحتشدة، والسماء الاستوائية العميقة التي كانت تحيط بكل شيء، وملاعبة النسيم لسعفات النخيل من وراء المحتفلين، والصوت الصبياني الرقيق المرتفع بالحداء المنطوي على قصة يشعر بفجيعتها المتناهية كل من يستمع إليها، قد رسمت كلها في مخيلتي صورة ليس من الممكن لي أن أنساها قط». ويصف جماعات «اللطّامة» فيعجب بجماعة خدام الحضرة المتكونة كلها من السادة، والتي كانت تحتوي على ما يقرب من مئتين وخمسين شخصاً. ويقول عن صوت اللدم على الصدور أنه صوت فريد في بابه ومفعم بالخوف الممزوج بحب الاستطلاع. وقد سمعه في ليلة من الليالي الهادئة وهو في سكان يقع على بعد ثلاثة أميال من النجف.

(١) الص ٥٧ ـ ٧٦.

أما «التشابيه» فيقول عنها إنها تمثل يوم عاشوراء، وتعتبر شيئاً موقراً جداً بعد جميع ما يحدث قبلها. لكنها تكون كثيرة الواقعية في بعض فصولها، لأن الجمهور يسلك كما لو كان كل ما يجري أمامه معركة حقيقية تقع بين يديه. ولذلك فإن الذي يقوم بدور يزيد لا بد من أن تكون له أعصاب من حديد لأن الجمهور يصبح مخيفاً بتهديداته. ويأخذ بعد هذا بوصف جميع ما يحدث كما هو معروف لدى الجميع في هذه البلاد.

وفي إحدى المناسبات دعا كليدار النجف المستر (لايل) ليصطحبه إلى الصحن فيشهد معه دخول موكب السادة وخدام الحضرة إليه، وكان ذلك في العاشرة والنصف من مساء اليوم التاسع من محرم الحرام. فجلسوا ينتظرون في الساحة الخالية من وجود أي نوع من أنواع الضياء في كل مكان، عدا النجوم التي كان يبدو بعضها متلألئاً في كبد السماء الصافية الخالية من القمر. وبعد الصمت الذي ظل مخيماً على الجميع مدة من الزمن دخل الموكب تتخلله أربعة مشاعل ضخمة، تحيط بكل منها جماعة من السادة المعروفين لديه. وقد كانوا من جميع الطبقات والأعمار على حد قوله، من الأولاد الصغار إلى الرجال الملتحين والمسنين الذين أحنت ظهورهم السنين. كما كانوا عراة إلى المحزم مع العمائم الخضر التي كانت تجلل رؤوسهم. ثم نهض فجأة صبي لا يتجاوز عمره الثلاث عشرة سنة وارتقى المنبر فأخذ يقرأ قصة الحسين الشهيد بلهجة فصيحة أعجبت المستر (لايل) ولذلك نجده يقول إنه كان يعتقد على الدوام أن العربية لغة موسيقية ترتاح لها الآذان، وأن هذا الصبي لا بد من أنه كان قد اختير لجمال صوته وإجادته في القراءة. وكان الرائي يلحظ في النور المختلط بدخان المشاعل مئات الأذرع ترتفع إلى السماء وتهبط أكفها لادمة الصدور العارية بحماسة ظاهرة حزناً على الحسين وتوجعاً للإمام الشهيد، بينما ترتفع أصوات النسوة المولولات من فوق الجمع المحتشد. ويبدو أن المستر (لايل) قد تحسس بهذا المنظر، لأنه يعلق عليه بقوله: «ولم يكن هناك أي نوع من الوحشية أو الهمجية، ولم ينعدم الضبط بين الناس، فشعرت وما زلت أشعر بأنني توصلت في تلك اللحظة إلى جميع ما هو حسن وممتلىء بالحيوية في الإسلام، وأيقنت بأن الورع الكامن في أولئك الناس والحماسة الدينية المتدفقة منهم يمكنهما أن يهزّا العالم هزاً فيما لو وُجها في الطرق الصالحة والسبل

القويمة. ولا غرو فلهؤلاء الناس عبقرية فطرية في الدين»[١].

ثم يقول المستر لايل بعد ذلك أن المجتهد الأكبر نفسه قد أخبره وهو آسف في لحظة من لحظات ثقته به بأن هذه المراسيم والطقوس، بجميع ما فيها من تطرف في إظهار الحزن والأسى، هي أشياء محرَّمة تحريماً تاماً، وإنه لا يستطيع السيطرة على الناس فيها. فأهون على المرء أن يصدّ موج البحر الطامي من أن يكبح جماع عاطفة أساسية في الجنس البشري مثل عاطفة التعبد لله والتفاني في سبيله. وهذه هي القاعدة الأساسية التي تستند عليها جميع الطقوس التي تجري في محرم، مع أن أحداً من المشتركين بها لا يحمل أية فكرة عن ماهية هذا الشعور. ويعقب على ذلك قائلاً في مكان آخر: إن الكثيرين من العرب، ولا سيما الصبيان منهم، هم أصدق معرفة بالديانة الحقة من مئات (الانكلوساكسونيين) الذين يحضرون صلاة الأحد في الكنائس ويشتركون في طقوسها. لأن كل عربي يعلم تمام العلم بأن التدين يعني احتمال شيء غير يسير من التقشف الذي تحتمله الألوف المؤلفة ببهجة وسرور. لكن هؤلاء الناس كما قلت يتصفون بعبقرية طبيعية في شؤون الدين. ونحن لا نستطيع الاهتداء إلى لمحات من القواعد الأساسية للشخصية العربية وأهميتها المادية إلا في محرم ورمضان[٢].

أما رمضان فيتطرق إلى ذكره في كتابه بما يقرب من عشرين صفحة أيضاً. فيشرح فيها أهمية الصيام عند المسلمين، ويورد عدداً من الآيات الكريمة النازلة به مترجمة إلى الإنكليزية، ثم يقارن هذا الصيام بصيام المسيحيين فيذكر أنه يختلف تمام الاختلاف عن فكرة الصوم التي تتمسك بها الكنيسة الكاثوليكية، ويكاد يستخف بها. ويتطرق بعد ذلك إلى ما في صيام المسلمين من صعوبة ومشاق بسبب الامتناع عن تناول كل شيء خلال ساعات النهار. وهنا يفنّد ما يذهب إليه بعض الأوروبيين الذين عاشوا في الشرق مدة من الزمن من أن الصيام عند المسلمين عبارة عن مظاهر فارغة لا غير لأن الناس يسمح لهم بأكل ما يشتهون خلال الليل. فيقول إن مثل هذا الاتهام المفعم بالجهل والتعصب لا يمكن أن يصدر ممن يكلف نفسه قليلاً في تفهم أحوال

---

(١) الص ٧٣. (٢) الص ٧٥.

الناس الذين يعيش بين ظهرانيهم ويتعاطف معهم. ويستشهد في ذلك بأكبر حجة عن العرب وبلادهم، الرحالة الإنكليزي المشهور (ريتشارد بـرتون). ويستمـد على إيـراد الكثير من البراهين والمناقشات مما لا يتسـع المجال لـذكره، لكنـه يعلق على مـا يقولـه المستشرق المعـروف (مارغليـوث) (بأن المتعبـدين الذين يصـومون رمضـان في سوريـة ومصر هم في العـادة الفقراء المتعـودون على الجـوع والتقشف) ويقـول إن الشيـوخ في العراق لا يقلون عن فلاحيهم تمسكاً برمضـان ومراعـاة لشعائـره الحكيمة. ثم يعجب المستر (لايل) كيف يستطيع الخاص والعام الامتناع عن التدخين بالإضافة إلى الامتناع عن الأكل من دون تذمر ملحوظ. فيصف كيفية فتح المقاهي في النجف وقت الإفطار وتقاطر النـاس عليها لتنـاول الشاي من دون جلبـة أو حدة ظـاهرة أو تـذمر يـذكر في الحصول عليه، سوى ذكر البسملة أو الحمدلة وسائر الجمـل المناسبـة. وهو يقـول إن كرامة العربي الحقيقية وعزة النفس الأصلية يمكن أن تلاحظ هنا. ولذلك نراه يشير إلى أن هذا الصيام ينـطوي على الكثـير من ضبط النفس وكبت الشهوات، ويستخف بمن يقول أن حوادث الاحتكاك والمشاحنات تزداد بين الناس خلال الشهر الفضيـل لأنه لم يلحظ ذلـك حينما كـان يشتغل حـاكماً في محـاكم بغـداد المـدنيـة، وقـد يكـون الأمـر بعكس[1] ذلك على حد تعبيره.

وقبـل أن ينهي المسـتر لايـل مـا يكتبــه عن رمضـان يتــطرق إلى عيـد الفــطر ومراسيمه، فيقول إنه شاهد تمتع الناس بهذا العيد في البـادية والمـدن، وفي البواخـر، فكان يتمنى على الدوام أن يكون هو نفسه أحد المتمتعين به. ثم يأخذ بوصف مظاهره المختلفة في النجف، وزيارة الناس بعضهم لبعض من أجل المعايدة، وما أشبه.

غير أنه يعمد بعد ذلك إلى تحليل النظام الإسلامي بوجه عام، ويزعم في ذلـك أنه نظام جاف ضيق الأفق، لا يعترف بالإبداع والتقدم، فيربط أتباعه بقـانونيـة تقتل فيهم كل أمل وتقضي على أي مجهود يبذلونه في مهده. ومع هذا يبقى الإسلام الخصم الألـد للمسيحية[2] عـلى حد تعبـيره، ولا سيما في البـلاد الافريقيـة التي تشـترك فيهـا

(١) الص ٨٦.
(٢) الص ١٦٩.

الديانتان في منافسة حادة يكون فيها الإسلام هو المجلي في الوقت الحاضر. ثم يخلص إلى القول بأنه لا يستطيع أن يصدق بأن المسؤولين عن السياسة البريطانية في العراق يجهلون حقيقة النظام الإسلامي الذي يتصوره هو في البلاد الإسلامية عامة وبين العرب على الأخص، ويستغرب كيف يفكر المسؤولون في منح الحكم الذاتي للعرب وهم الذين لا يمكن أن يضطلعوا بذلك إلا بعد مئة سنة[1]. وهنا أيضاً أقول إن ما حصل في البلاد العربية منذ أن كتب (لايل) هذا الكتاب حتى اليوم يبرهن على جهله في هذه الأمور وخطئه في حكمه المتحيز.

وحينما يبحث عن مستقبل العراق، وعلاقته ببريطانية يعالج الموضوع بصورة «تجارية» وبحساب الربح والفائدة. ولذلك نراه يدعو إلى وضعه تحت «الحماية» البريطانية وإبعاد الداعين إلى الوحدة العربية، لأن حكم سنة واحدة في العهد الفيصلي قد أدى على زعمه إلى نقص كبير في الواردات وإزدياد في التفسخ والفساد. وهذا أيضاً حكم لا سند له من الصحة لأن حكم السنة الواحدة من العهد الفيصلي التي يشير إليها لم يكن حكماً وطنياً إلا بشيء من المظاهر، وإنما كان حكماً إنكليزياً يسأل عنه الإنكليز في الدرجة الأولى، ويدعو كذلك إلى تقوية الأقليات، والالتفات إلى الأقلية اليهودية التي لم يُقدر وضعها وأهميتها في هذه البلاد ومع أن اليهود هم العنصر التقدمي في جميع البلاد على ما يزعم، وهم الجماعة المسيطرة على شؤون المال والتجارة. ومن الغريب أنه يولي هذه الأقلية عناية خاصة في عدة مناسبات مع أنه غير يهودي. ولا غرو فإن المستر (لايل) هو مثال الاستعماري البريطاني الذي أدى تصرفه وتصرف أمثاله إلى نشوب الثورة العراقية التي كان للنجف فيها قسط أوفر من الجهود التي يخلدها التاريخ بمداد الفخر والإعجاب.

---

(١) الص ١٨٥.



رحلة ستارك

فـرايا ستـارك تكتب عن النجف

وفي ١٩٣٧ زارت النجف الكاتبة الإنكليزية القديرة، والموظفة في الاستخبارات البريطانية، المس (فرايا ستارك) وبقيت فيها أسبوعاً واحداً ضيفاً على القائم مقام الـذي أنزلها في جناح الضيافة الموجود في نادي الموظفين. وقد كتبت فصلاً خاصاً عن النجف ضمنته ملاحظاتها عنها في كتابها[١] الموسوم (صور بغدادية).

وتبدأ ملاحظاتها بمـا شاهـدته في الكـوفة. فهي تستهـل الفصل بـوصف جلسة مسائية على شاطىء الفرات، مع رئيس البلدية وسبعة من «الأفنـدية». وكـان ذلك في أوائل ربيع الأول بعد أن انتهى صفر، الشهر الثاني من شهري الحزن المعتادين في كل سنة، ولذلك تقول إنها شـاهدت وهي جـالسة من بعيـد شعلات من النـار طافيـة في النهر، وقد كانت تنساب منحـدرة مع تيـاره حتى تختفي وترمى هـذه في النهر في نهايـة موسم العزاء (نهاية شهر صفر) لتأخذ معها أحـزان السنة وتفـرج الكربـة عن الناس. وهذه على ما تقول عادة قديمة ترجع بقدمها إلى تاريـخ هذه البـلاد العريق في القـدم. ثم تشير بالمناسبة إلى أن «الأفنـدية» الـذين شاهـدوا معها النـار الطافيـة، لمحوا هـلال الشهر الجديـد (هلال ربيـع الأول) وأخذ كـل منهم يتمنى الخير والمـوفقية لصـاحبه من دون أن يشعـروا بأن مـا فعلوه يعتبر من قبيـل عبادة القمـر أو التـبرك بـه. وليس من المستغـرب أن يحصل مثـل هذا، فتبقى هـذه الوثنيـة، في بلاد لا تبعـد كثيراً عن قـبر «الكفل» و «برج بابل» اللذين يدلان على ذلك العالم الغابر.

ولكن المرء حينما يعبر جسر الكوفة المستند على الزوارق ينتقـل من العالم البـابلي

---

(١) Freya Stark - Baghdad Sketches, London 1937.

إلى عالم الإسلام على حد تعبيرها. وهي ترى أن الحيرة توجد مدفونة تحت الرمال ما بين النجف والكوفة، وأن التلال الرملية المحيطة بالكوفة تحوي في باطنها خرائب كوفة العرب الفاتحين الأولى. وبعد أن تشير (فرايا ستارك) إلى جامع الكوفة الكبير وغيره من معالم البلد تقول إن (قصر الإمارة) هدمه عبد الملك بن مروان الأموي، لأنه بينما كان جالساً فيه ذات يوم سمع عجوزاً من الأعراب يقول «ستكون الخامس». وحينما سأل عما كان يقوله هذا أجابه يقول: «عندما جئت لأول مرة إلى الكوفة رأيت رأس الحسين(ع) بين يدي قاتله عبيدالله هنا، فذهبت وعدت ثانية إليها بعد مدة فشاهدت رأس عبيدالله في نفس المكان بين يدي المختار بن يوسف الذي قتله. وبعد أن خرجت منها وعدت مرة أخرى ألفيت رأس المختار بين يدي مصعب بن الزبير. ثم ذهبت فعدت هذه المرة، وها إني أرى الآن بين يديك رأس مصعب». ولذلك خرج عبد الملك من الكوفة وأمر بهدم قصر الإمارة الذي تشاهد خرائبه الآن بجنب دار الإمام عليه السلام.

وقد كان الإمام علي هنا يعمل للخير ويتمسك بالأمور المثلى على حد تعبيرها، فأفنى نفسه وهو مريض الفؤاد ما بين أهل الكوفة المتلونين. وعلى مسافة غير بعيدة من هذه البقعة جعجع ابنه الحسين إلى جهة البادية وظل يتجول حتى نزل في كربلاء، فقتل قتلة فظيعة مع أهل بيته بعد أن منع عنهم الماء. وقصة قتله هذه من القصص القليلة التي تقول (فرايا ستارك) إنها لا تستطيع قراءتها من دون أن ينتابها البكاء. وتقول أيضاً إن التاريخ قد توقف في كربلاء والنجف منذ يوم مقتله ذاك، لأن الناس أخذوا يعيشون فيها على ذكرى الكراهية لأعداء الحسين[1].

وقد أخذت النجف محل الكوفة، على ما ترى. ومع أن سكانها قد استقروا وتمدنوا فإنها لا تزال تعد من مدن البادية، المحاطة بسور خاص ترتفع هي في داخله فوق هضبة واطئة من الأرض كأنها تاج يعلوه ذهب القبة المتلألىء. وما زال بداة عنزة وشمر يقصدونها من رمال النفود البعيدة للتزود منها، بينما تسلك السيارات الطريق الممتدة منها إلى مكة، وهي طريق الحج المسماة باسم زبيدة. ويرتفع (بفرايا ستارك)

(١) الص ١٦٩ طبعة Guilld Books ١٩٤٧.

الخيال فيخترق نظرها الأفق البعيد مع الطريق التي تتضح معالمها لعيون الإيمان على حد تعبيرها، ولذلك نجدها تقول إن المرء لا يسعه سوى أن ينحني خاشعاً أمام زهد الإنسان وورعه وتعجب كيف أن الساسة الإنكليز يعتقدون بأنهم يستطيعون السيطرة على قلوب الناس بالوسائل المادية وحدها.

وقد دبر القائمقام لها مواجهة العلامة الأكبر الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، الذي كان آباؤه لخمسة أظهر من زعماء الدين. ولما كانت زيارتها للشيخ وهي امرأة شيئاً يلفت النظر، فقد دبرت الزيارة في أقل الأوقات تعرضاً لأنظار الناس فجاء الشيخ هادي، نسّاخ الكتب، ليلقي نظرة عليها أولاً، وبعد أن بعث أخباراً مناسبة عنها قادها مع خادمها خلال طرق ودرابين متعرجة إلى دار غير كبيرة يعيش فيها الشيخ مع أهله عيشة بسيطة كما كان يعيش المسلمون الأقدمون من قبل. وبعد أن تأتي على وصف الشيخ ـ الذي كانت لحيته مخضبة بالحناء ـ ووقاره وذكائه تقول إنها فهمت من حديثها معه بأنه كان يعرف (المس بيل) والسر (بيرسي كوكس)، ويعتبر الذين جاؤا بعدهما من الإنكليز أقل منهما شخصية وقدراً. وحينما تطرق إلى الحديث معها عن العالم الشرقي، أخبرها برأيه عن بريطانية والإسلام بقوله «إنه لا يوجد الآن بيننا وبين الإنكليز سوى الصداقة لولا الأخطاء التي ارتكبت ضد إخواننا العرب في فلسطين. وما زالت هذه الظلامة موجودة فإننا لا يمكن أن تحل المحبة ولا السلام بيننا من البحر المتوسط إلى الهند. وآمل أن تبيني هذا إلى حكومتك، وتقولي لهم أن ما يلعبون به هناك هو ليس أراضي فلسطين وحدها، وإنما يلعبون بالعالم الإسلامي كله الذي يقدر بنصف أمبراطوريتهم ويتشوقون إلى الإبقاء على صداقته لهم»، ولما كان رأيه هذا يتفق تمام الاتفاق مع رأيها هي في هذه المسألة الدقيقة كان يسرها أن تعد الشيخ بأن تبذل جهدها في نقله بأمانة إلى الجهات المختصة.

ثم زارت بعض المدارس، ومعالم البلدة الأخرى، بما فيها (المغتسل) الذي كان يقوم بتغسيل الموتى فيه رجل وأخته بسعر زهيد للجثة الواحدة. وقد تجولت ما بين القبور في بعض الأمسيات كذلك، وأمضت أمسية واحدة منها في التفرج على ما يجري عند الباب الكبير المؤدي إلى الصحن فكانت من أجمل الأمسيات التي قضتها في حياتها

كلها. وكان ذلك من غرفة تعود للشرطة وتطل شبابيكها على باب الصحن وقسم من السوق. وبعد أن تصف ما شاهدته هناك وفي الداخل تقول إنها خرجت تقطع السوق الذي امتلأ بالأضوية، وهي تشعر بحبها للعالم بأجمعه. وبينما هي كذلك لاحظت في دكان بائع أحذية رجلاً كان يرمقها بنظرات شزراء ممتلئة بالحقد والكراهية، فتأثرت أشد التأثر لأنها يحز في نفسها أن يكرهها أحد من دون سبب. وهي تقول: «إن ذلك الرجل لو كان بوسعه أن يخترق جسمها الإنكليزي بنظره إلى أعماق قلبها لوجد أن ما كان يمتلىء به هو الاحترام الودي لعتبته المقدسة بالذات التي تعلو أرواح الناس كما تعلو قبة النجف المذهبة فوق أفق البادية، فتجذبهم إليها من بعيد» وتنهي الفصل بوصف جماعة من فقراء الأفغان كانوا يعيشون على الكفاف، ويحصلون على قوتهم من حياكة بيوت الشعر، ثم ينتزع كل منهم فلساً واحداً من وارده الشحيح بين حين وآخر فيعطيه للإنفاق على العتبة. وتعلق على ذلك بكل إكبار وأجلال قائلة: «من نكون نحن لننتقد عقيدة تعطي مثل هذا المقدار يا ترى»؟.

النجف في المراجع الغربية

ترجمه وكتبه
جعفر الخياط

النجف في كتابات الغربيين

مقدمة

كانت النجف ولم تزل، منذ أن قبرت في ترابها الزكي رفات الإمام أبي الحسن الطاهرة، من المراكز الدينية المقدسة التي ترنو إليها أبصار المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ويقصدها الزوار من كل حدب وصوب. ولم يكن زوارها في كثير من الأحيان من المسلمين والشرقيين فقط، وإنما كان يزورها بين حين وآخر أناس من غير المسلمين ممن كانت تدفعهم إلى شد الرحال في البلاد والتطويح في الآفاق عوامل شتى منها: السياحة وحب الاستطلاع، أو الدراسة والتتبع، أو المجازفة والتمرس بالأخطار، أو التجارة والمصالح المادية. على أن هذه المصالح والغايات كان لا بد من أن تتطور بمرور الزمن فتصبح باحتلال الإنكليز للبلاد في أعقاب الحرب العالمية الأولى مصالح وأغراضاً سياسية واقتصادية، لأن السلطات المحتلة التي كانت تريد تثبيت أقدامها في العراق وجعله مرتبطاً بعجلة الامبراطورية البريطانية المترامية الأطراف سرعان ما ارتطمت سفينتها بصخرة النجف الشماء للدور القيادي الذي ظلت تلعبه في العراق والعالم الاسلامي في مختلف العصور والأدوار. ويعزى هذا الدور الذي تضطلع به النجف بطبيعة الحال إلى وجود العلماء الأعلام فيها وحرصهم الشديد على رعاية المسلمين وخيرهم، وإلى الوعي المتوثب الذي لم تنطفىء جذوته أو يخمد أواره ما بين سكان هذه العتبة المقدسة في كل عصر أو زمن، وفي شتى الظروف والأحوال.

ولذلك يلاحظ أن عدداً غير يسير من الغربيين الذين زاروا النجف، أو مروا بها، أو الذين تصدوا للكتابة عن تاريخ المسلمين ومعالجة شؤونهم، قد تطرقوا إلى ذكرها بالقليل أو الكثير أو عالجوا شؤونها بشيء غير يسير من البحث والتفصيل. وسأحاول في بحثي هذا أن أجمع ما يتيسر لي العثور عليه فيما كتبه الغربيون عنها مقتبساً، بطبيعة الحال، ما يجمع بين الطرافة والفائدة التاريخية في الغالب.

النجف في القرن الخامس عشر

النجف قبل ١٥٠٠ م

وعلى هذا فإن أقدم ذكر للنجف في كتابات الغربيين يرد في عدد من الكتب الانكليزية المعروفة التي تستند في معظم ما تورده على المراجع العربية في الأعم الأغلب. ومن أهم هذه الكتب كتاب (شيعة الهند) لمؤلفه الدكتور جون هوليستر[١]. فهو يذكر خلال بحثه عن الاسماعيلية وأئمتهم أن الإمام الحسين بن أحمد بن عبدالله المستور (أو المكتوم) كان مقره السري في السلمية بالقرب من دمشق، وقد زار في سنة ٢٩٦ للهجرة قبر الإمام علي عليه السلام في النجف الأشرف. وهناك اتصل بأبي القاسم الحسن بن فرح بن حوشب أحد الشيعة الإمامية المعروفين، الذين كانوا على اتصال دائم بالإمام الحسن العسكري عليه السلام. واتصل في النجف أيضاً بعلي بن الفضل فأقنعهما بالذهاب إلى اليمن والعمل على نشر الدعوة الإسماعيلية فيها. ومن أهم الكتب كذلك كتاب (بلدان الخلافة الشرقية)[٢] الذي ألفه البحاثة المعروف كي لسترانج في ١٩٠٥ وأعيد طبعه في ١٩٣٠. فهو يبدأ بالقول أن النجف فيها مشهد الإمام علي الذي يقدسه الشيعة، وأنها ما تزال مدينة عامرة حتى اليوم. ويتطرق بعد هذا إلى رواية المستوفي المعروفة عن كيفية دفن الإمام وإخفاء القبر عن الأمويين، وعثور هارون الرشيد عليه حينما خرج للصيد في ظاهر الكوفة. ثم يشير إلى رواية ابن حوقل عن الأمير الحمداني أبي الهيجاء الذي حكم الموصل في سنة ٩٠٤، ويورد قول

---

(١) The Shi'A of India - John Norman Hollister, London 1953.

وقد ترجمه الأستاذان كوركيس عواد وبشير فرنسيس وطبع على نفقة المجمع العلمي العراقي ببغداد.

(٢) The Lands of Eastern Khaliphate - G. Le Stange, Cambridge University Press, London 1930.

المستوفي عنه بأنه «ابتنى على القبر قبة» عظيمة مرتفعة الأركان من كل جانب لها أبواب، وسترها بفاخر الستور وفرشها بثمين الحصر السامانية، وجعل عليها حصاراً منيعاً». ويضيف إلى ذلك ما ذكره المستوفي من أن عضد الدولة البويهي قد شيد الضريح في سنة ٩٧٧، وقامت حوله من بعد ذلك بلدة صغيرة يبلغ محيطها ٢٥٠٠ خطوة. ثم يورد ما ذكره ابن الأثير من خبر دفن عضد الدولة فيها تنفيذاً لما جاء في وصيته، ودفن ابنيه شرف الدولة وبهاء الدولة من بعده كذلك. . وهو يقول أيضاً إن ملك شاه السلجوقي قد زار المشهد مع وزيره نظام الملك في ١٠٨٦، وأن السلطان غازان الإيلخاني بنى فيه مبنى خاصاً للسادة سمي «دار السيادة»، وشيد فيه تكية خاصة للصوفية «خانقاه». ويورد لسترانج بالإضافة إلى ذلك وصف ابن بطوطة لمدينة النجف التي زارها في ١٣٢٦ م فأعجب بها واعتبرها «مدينة حسنة».

على أنه من الملاحظ أن المستر (ريتشارد كوك)[١] صاحب كتاب (بغداد مدينة السلام) يذكر أن البويهيين الذين خلفوا معز الدولة كانوا أقل ميلاً إلى الشيعة ومنهم عضد الدولة الذي ذهب في ذلك إلى حد فرض الجزية عليهم ومساواتهم بغير المسلمين في ذلك. ويقول كذلك أنه عمد إلى اضطهاد أغنى شيعي من شيعة بغداد في أيامه، وهو أبو القاسم محمد الذي كان دخله السنوي يقدر بمليون ونصف المليون من الدراهم. فقد غرمه في يوم من الأيام مليون دينار ذهب، وغرمه من بعده البويهيون الآخرون مثل هذه المبالغ أيضاً.

ويستند كاتب البحث الموجز عن النجف في (دائرة المعارف الإسلامية)[٢] على النبذة التي كتبها (لسترنج)، فيورد الروايات والاقتباسات نفسها. ثم يرد ذكر النجف في كتاب (تاريخ إيران) الذي كتبه السر بيرسي سايكس[٣] بالانكليزية، ولا سيما في الجزء الثاني منه. فقد جاء فيه أن الأيلخان الكبير غازان خان حينما انتقل إلى دار البقاء سنة ١٣١٥ خلفه في الحكم أخوه محمد خدابنده الملقب بلقب «أولجايتو». وكان السلطان محمد أحد أخوة ثلاثة ولدوا لأرغون خان من زوجته المسيحية، وقد أنشأته

---

(١) Richard Coke - Baghdad The City of Peace, London 1935.

(٢) Encyclopedia of Islam - Karmers & Gible.

(٣) Sir Percy Sykes - A History of Persia, Millan, London 1953 2 Vols.

أمه على ديانتها وسمته نقولا بعد أن أجرت لـه مراسيم التعميـد المعتادة. لكنـه اعتنق الديانـة الإسلاميـة حينما تقـدم به العمـر بتأثـير من زوجته، وأصبـح محباً للمنـاقشات الدينية التي صار يعقد مجالس كثيرة من أجلهـا. وقد أسمعـه أعداء الـدين الحنيف في يـوم من الأيام أن الإسـلام يبيح للمسلم الـتزوج بـأمـه أو أختـه أو ابنتـه فـارتعـدت فرائصه، وصدق ما قيل له حينما هبت من بعد ذلك بالصدفة عـاصفة رعـدية شـديدة قتل فيها عدد من رجال حاشيته وحسب حـدوثها دليـلاً على غضب السـماء عليه لأنـه اعتنق الديانة الإسلامية. ثم أخذت تحدثه نفسـه بترك الإسـلام والعودة إلى التمسـك بـديانـة المغول القـديمة، لكنـه قصد النجف الأشرف في تلك الأثنـاء لزيـارة الضريح المطهر فيهـا، فحلم في إحدى الليـالي حلماً اطمأنت بـه نفسه وقـرر اعتنـاق المـذهب الجعفري على أثره.

ومما يذكره (سايكس) عن السلطان خـدابنده أيضـاً أنه أنشـأ في سنة ١٣٠٥ م مـدينة السلطانيـة على بعـد مئة ميـل من غرب قـزوين، فكانت أهم مـدينـة مهـدهـا الإيلخانيون المغول في إيران وغيرها. وقـد كان في نيتـه أن يحقق بذلـك مشروعاً ظـل يحوم في مخيلته ردحاً من الزمن، وهو مشروع نقل رفات الإمامـين علي والحسين عليهـما السلام من النجف وكربلاء إلى المدينة الجديـدة هذه. ولـذلك أنشـأ فيها عتبـة محكمة البناء بشكل مثمّن تقوم فوق كـل زاوية من زوايـاه مئذنـة رشيقة عـالية، وتحيط هـذه المآذن كلها بقبة ضخمة جميلة يبلغ طول قطرها أربعة وثـمانين قـدماً. غـير أن أمنيته لم تتحقق بطبيعة الحال وأصبح المرقد المذكور مدفناً فخماً له بعد أن توفي في سنة ١٣١٦. ومما يذكر من الحوادث التي جـرت في أيامـه ما يـورده ريتشارد كـوك في (بغداد مـدينة السلام[1]) من أن السيد تاج الدين محمد نقيب بغداد يومذاك اتهمـه السادة فيهـا بتهم خطيرة، منها تهم أخلاقية شائنة وتهمة بقتل عدة أشخاص معروفين وجمع أموال وفـيرة تقدر بثلاث مئة ألف قطعة ذهب بطرق غير مشروعة. وقد سلم على أثر ذلك إلى أهل النجف الأشرف لمعاقبته والاقتصاص منه، فأخذوه إلى شاطيء الفرات وظلوا يضربونه حتى قضى غير مأسوف عليه.

وما دمنا في بحث الايلخانيين لا بد من أن نورد هنا ما يذكره المستر كوك كذلك

(١) الص ١٦٦.

عن مشروع يختص بإيصال الماء ما يقرب من النجف. فهو يقول[1] إن الطاغية هولاكو حينما مات في ٨ شباط ١٢٦٥ م خلفه في الحكم ابنه أباقا (جدّ أوليجاتو الأعلى) فأقر في حكم بغداد المؤرخ علاء الدين شقيق رشيد الدين وزير هولاكو ومؤلف كتاب (جامع التواريخ) المشهور. وفي أيام علاء الدين هذا انتعشت الحالة في بغداد والعراق أجمع، وحفر نهر جديد يستمد ماءه من الفرات ويمر بالكوفة والنجف على حد قوله. ويعتقد المستر كوك أن هذا النهر هو الفرع الغربي الحالي نفسه.

ويتكرر ذكر النجف مرات عديدة أخرى في كتاب (شيعة الهند)، في معرض البحث عن اهتمام الملوك المنتمين إلى الأسر الشيعية الحاكمة، التي حكمت الدكن، وكشمير، وأوده، برجال الدين والعتبات المقدسة وبذلهم السخي من أجل ذلك. فمما ورد في هذا الشأن أن فيروز وأحمد الأول من ملوك المملكة البهمنية في الدكن كانا ميالين جد الميل إلى العناية بالسادة ورجال الدين الذين كانوا يردون عليهما من النجف وكربلاء، وأن الأمير أحمد أوقف على عهد أخيه فيروز (١٣٩٧) مقاطعة خانه بور وما جاورها على تعمير العتبتين المقدستين المذكورتين وصيانتهما الدائمة.

وقد ورد في الكتاب نفسه عن يوسف عادل شاه مؤسس المملكة العادل شاهية في بيجابور سنة ١٤٨٩ أنه مرض في إحدى حملاته العسكرية التي كان يجردها لتوطيد حكمه في المملكة، وحينما شفي من مرضه بعث بمبلغ ستين ألف روبية ليوزع على السادة ورجال الدين في النجف وكربلاء والمدينة. والمعروف عن يوسف عادل شاه أنه حينما استتب له الأمر في بيجابور، عقد اجتماعاً حافلاً شعبياً ذات يوم وأعلن فيه تمسكه بالمذهب الجعفري ـ الإثنى عشري على ملأ من الناس. وطلب إلى رجال الدين وأشراف البلد من أمثال الميرزا جهانكير وحيدر بك والسيد أحمد الهروي، وهم من رجال الشيعة المعروفين هناك، أن يعملوا على نشر هذه العقيدة لأنه نذر أن يفعل ذلك بعد أن رأى النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم في المنام فأمره بذلك. ثم ارتقى المنبر بأمر منه سيد من سادات النجف يدعى نقيب خان فأذن في الناس، وأدخل في ضمن الآذان الشهادة بأن «علياً ولي الله»، وقرأ الخطبة باسم الأئمة الاثني عشر عليهم السلام. فكان أول عاهل هندي يجرؤ على إجراء المراسيم الدينية هذه بصورة علنية.

---

(١) الص ١٥٧.

النجف في أوائل القرن السادس عشر

وفي سنة ١٥٠٧ استولى الشاه اسماعيل الصفوي على بغداد فأصبح العراق معظمه خاضعاً لإيران. ويشير المستر ستيفن لونكريك[١] في كتابه (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) إلى أن دخول العراق في حوزة العرش الشيعي الجديد جاء بالشاه مسرعاً لزيارة العتبات المقدسة في الفرات، فزار النجف وأصلح نهراً من الأنهر بقربها فسماه باسمه. ولا شك أنه يقصد بهذا ما كان يعرف يومذاك بنهر الشاه، وهو النهر الذي أمر الشاه إسماعيل بحفره من الفرات وإيصال مائه بقناة خاصة تمتد تحت سطح الأرض إلى النجف لارتفاع موقعها عن مستوى الفرات. ثم يضيف لونكريك قوله أن السنين المنحصرة ما بين زيارة الشاه إسماعيل ووفاته في ١٥٢٤ كانت تأثيرات العتبات المقدسة القوية خلالها تؤيد الحكم الجديد، فتقاطر التجار الإيرانيون على بغداد وجذب نفوذ الصفويين الديني حتى العشائر النهرية المتمردة إليهم[٢].

وفي أواخر ١٥٣٤ استطاع السلطان سليمان القانوني أن يسترد العراق من الإيرانيين ويعمل على إصلاح الأحوال فيه، فزار كربلاء والنجف قبل عودته إلى استانبول. ويقول المستر لونكريك في هذا الشأن أن السلطان سليمان اهتم اهتماماً خاصاً بزيارة العتبات المقدسة في الفرات الأوسط، وتقصّد أن يفعل فيها أكثر مما فعله الشاه الصفوي من الخيرات. ولذلك أصلح جدول الحسينية في كربلاء ووسعه، ثم زار قبر الإمام علي في النجف ورجع إلى بغداد. وهذه بلا شك الزيارة التي تقول بعض الروايات فيها أن رجلاً من رجال حاشيته الكبار حينما شاهد القبة المباركة من بعيد ترجّل عن فرسه، وحينما سأله السلطان عن السبب أجابه بأنه ترجّل إجلالاً لخليفة من الخلفاء الراشدين الأربعة. فما كان من السلطان إلا أن يترجل هو أيضاً بعد أن تردد في ذلك واستخار القرآن الكريم فإذا به يلاحظ في الصفحة التي فتحها الآية الكريمة ﴿فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى﴾. وتروى هذه الرواية عن السلطان مراد كذلك حينما زار النجف الأشرف.

---

(١) Stephen H. Longrigg - Four Centuries of Modern Iraq, London 1925.
وقد ترجمه إلى العربية كاتب هذه السطور وطبع عدة طبعات في بيروت وبغداد.

(٢) الص ١٨ من الترجمه العربية، ط ٢ بيروب.

النجف في أوائل القرن السابع عشر[1]

النجف بين الصفويين والعثمانيين

وفي ١٦١٩ استأثر بالسلطة في بغداد بكر الصوباشي وطردوا إليها يوسف باشا، ثم أخذ يساوم البادشاه في الباب العالي على تعيينه والياً فيها. واتصل بالشاه في إيران فساومه على الشيء نفسه ليفك عنه الحصار الذي ضربته على بغداد الجيوش التركية. وسرعان ما التقت جيوش الدولتين على أبوابها، وبعد كثير من المناورات السياسية والعسكرية وعدد من الوقائع استطاع الصفويون الاستيلاء على بغداد في ليلة ٢٨ تشرين الثاني سنة ١٦٢٣، فعاد احتلالهم للعراق، ووضعت الحاميات الإيرانية في النجف وكربلاء وغيرهما، من مدن الفرات الأوسط.

وفي خلال حكم الإيرانيين للعراق هذا مر بالنجف وكربلاء، قادماً من البصرة إلى بغداد، الرحالة البرتغالي ديلافاله[1]. وهو يقول إن النجف كانت في أيدي (القزل باش) أي الإيرانيين بعد أن كانت في أيدي الأتراك الذين يحكمون بغداد، وهو لا يذكر شيئاً في رحلته يمكن أن يدون عن النجف وإنما يشير إلى بحر النجف فيسميه (البحيرة الكلدانية)، ويذكر أنه مر مما يقرب من النجف في ٢٦ حزيران ١٦٢٥ فلم يجد للكوفة وجوداً. ويشير كذلك إلى سيطرة المير ناصر المهنا على المدينتين المقدستين، ويذكر ابناً له يسمى أبا طالب.

ولم يثن ذلك الاحتلال من عزم العثمانيين، فقد كان طموح البلاط العثماني ملحاً في استعادة بغداد منذ اللحظة التي أضيعت منهم على حد قول المستر لونكريك في (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث). وعهد بتحقيق ذلك إلى حافظ أحمد باشا الذي كان

---

(١) Sute des Fameux Voyages de Pietro della Valle (Paris 1663, 4 Vols).

قد أشغل الصدارة العظمى من قبل. وحينما سارت الجيوش العثمانية إلى العراق من جديد في ١٦٢٥ كان أول اصطدام لها مع جيش الصفويين في موسم من مواسم زيارة النجف ومما يكتبه لونكريك في هذا الشأن قوله «.. وقضى الوزير الرئيس الصيف في المعسكر، حيث وردت أنباء تفيد أن جند حامية بغداد الإيرانية رخص لهم في زيارة النجف بمناسبة إحدى الزيارات الكبرى، فظلت بغداد مفتقرة إلى معظم المدافعين عنها وبناء على هذه الأخبار أرسل الياس باشا، بحكربكي الأناضول، مع قوة خفيفة ليقطع طريق بغداد ـ النجف ويمنع المدافعين عن الرجوع. ففشلت المحاولة، غير أنه مما لا شك فيه أن ذلك العمل أضاف إلى ضعف ثبات الإيرانيين في الفرات وطرد حاميتهم منه مدة من الزمن».

وقد أعقبت ذلك وقائع واشتباكات كثيرة اشترك في بعضها الشاه عباس بنفسه فآلت إلى فشل الحملة التركية في مهمتها من جديد. وكانت قد تخللت ذلك كله اتصالات عدة بين الفريقين المتناحرين للوصول إلى حل نهائي للنزاع المرير، فكانت النجف من أهم مواضيع البحث والمناقشة في هذه المفاوضات. فيذكر لونكريك عن المفاوضات النهائية قوله «.. وبعد مضي أسبوعين اقترح الشاه عوداً على بدء الدخول في مفاوضات. فبعث حافظ أحمد رئيس مرافقيه وجماعة من الضباط الآخرين إلى المعسكر الإيراني، ثم عادوا مع سفير الشاه فجدد الإيراني ادعاءه ببغداد، وفي جلسة متأخرة جلسوها قبل إبقاء بغداد على الترك إذا ما أعطي النجف في مكانها. فكان جواب الوزير العثماني «إن كل حجر من النجف يعادل عنده ألف إنسان، وما بغداد إلا حماها» ولم يجدِ بحث التوافق نفعاً في تقريب وجهات النظر..» وهكذا بقيت بغداد، والعتبات المقدسة، بأيدي الإيرانيين حتى تسنى للسلطان مراد الرابع أن يفتحها بنفسه ويتقبل خضوعها في يوم عيد الميلاد من سنة ١٦٣٨ على حد قول المستر (لونكريك).

في أواسط القرن السابع عشر

ومما تذكره بعض المراجع الأجنبية أن السلطان مراد حينما تم له فتح بغداد كتب أماناً لسكان النجف على يد أحد قواده بإشارة من الشيخ مدلج، لأن الفتح كانت قد أعقبته في بغداد وما جاورها فوضوية غير يسيرة قتل خلالها مئات عديدة من الناس. ومدلج هذا هو الذي ورد ذكره في رحلة الأب (ياسيفيك[1] الكبوشي) الفرنسي (الص ٢٣٩) حينما غادر حلب متوجهاً إلى بغداد في ٢٨ حزيران ١٦٢٨ (٢٤ شوال ١٠٣٧)، ويسميه فيها ملك العرب والمعروف أن هذا الأمير العربي هو ابن أبي ريشة أمير البادية الذي ظل مسيطراً على نواحي بغداد والموصل ردحاً طويلاً من الزمن في تلك الأيام. هذا وقد ورد في بعض المخطوطات التركية أن السلطان مراد نفسه رحل من بغداد يوم الإثنين ١٨ رمضان ٩٤١ هـ لزيارة الإمامين علي والحسين عليهما السلام ويصحبته السرعسكر والباشوات والأغوات جميعهم[2].

وهناك رحّالة آخرون مرّوا في هذا العهد بالنجف في أثناء رحلتهم من حلب إلى بغداد فايران، من دون أن يذكروا شيئاً مهماً عنها في رحلاتهم. ومن هؤلاء (بيتر وديلافاله) الرحالة الإيطالي الذي تزوج امرأة مسيحية من بغداد (أشير إليه من قبل)، والأب الكرملي الفرنسي فيليب (١٦٢٩) والمسيو تيفنو الذي تتضمن رحلته وصف شاهد عيان لاستيلاء السلطان مراد على بغداد في ١٦٣٨.

ويرد ذكر النجف بعد هذا فيما كتبه (لونكريك) أيضاً في أثناء وصفه (للخاصكي

(١) Relation du voyage de perse par le pre Pacifique & Provins - Paris 1631.

(٣) الص ٣٣٨ يعقوب سركيس ـ مباحث عراقية.

محمد باشا) الذي انتهت مدة ولايته ببغداد في منتصف صيف ١٦٥٩ (١٠٧٠ هـ)، ولبعض الولاة الآخرين. فهو يذكره بقوله: «.. وكان خاصكي محمد، وهو المتدين من الطراز القديم، قد بعث بالذهب إلى المدينة لتزيين القبة، ثم أضاف منارة إلى مشهد النجف، وقوبل بثناء أعظم عندما هدم كنيسة نصارى ليشيد في موقعها جامعاً». وهو يقصد بذلك جامع الخاصكي المعروف اليوم ببغداد. وفي خريف ١٦٦٧ (١٠٧٨ هـ) جرد والي بغداد (قره مصطفى باشا) حملة كبيرة على البصرة لتأديب حسين باشا أفراسياب وإرجاعها إلى حظيرة الحكم العثماني. فكان سيره بطريق الفرات، وحينما وصل إلى الحلة تأخر فيها عن الجيش وتوجه منها إلى النجف الأشرف لزيارة الإمام عليه السلام مع البعض من أمرائه وقادة جيشه، ثم تابع سيره فلحق بالجيش الزاحف. وفي أواسط عام ١٦٧١ (١٠٨٢ هـ) قصد الوالي (حسين باشا) السلحدار النجف، وكربلاء لأداء الزيارة والترويح عن النفس، ثم عاد إلى بغداد بعد أيام قلائل. وكذلك فعل الوالي قبلان مصطفى باشا سنة ١٦٧٧ (شعبان ١٠٨٨ هـ)، وقد اشتهر بولعه في زيارة الأئمة والأولياء وبتشييده لجامع القبلانية المعروف ببغداد.

ويقول (لونكريك) كذلك أن الأشهر الأولى من القرن الثامن عشر ظهرت فيها عناصر جديدة للفوضى في العراق بحدوث فيضانات عظيمة في الفرات الأوسط والجنوبي، لأن ذلك أدى إلى انعزال البلدان والمراكز المهمة ومن جملتها النجف الأشرف. فاستغلت القبائل هذا الوضع وهبّ رؤساؤها للإفادة مما حدث. وكان أهم هؤلاء سلمان بن عباس شيخ الخزاعل الذي استولى على الرماحية وكبشه، وحسكه، ومنطقة نهر الشاه، ثم استولى على النجف كذلك. والمعروف في المراجع الأخرى أن الحكومة لم تستطع الوقوف في وجهه وتخليص العتبة المقدسة من شره حتى حينما عمدت إلى سد نهر ذياب عن القبائل المنضوية تحت لوائه.

النجف ومسلمو الهند

إن مما يمكن أن يذكر هنا من كتابات الغربيين مما له علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالنجف الأشرف، وسائر العتبات المقدسة، ما يتطرق إليه بالتفصيل الدكتور جون هوليستر مؤلف كتاب (شيعة الهند) من البحث عن ظهور مملكة (أوده) الشيعية في شمال الهند، وتوالي حكامهم وملوكهم على الحكم في لكناو.

فقد استقامت هذه المملكة من سنة ١٧٢٢ (١١٣٥ هـ) إلى ١٨٥٦ (١٢٧٣ هـ) حين عمد الإنكليز إلى تنحيتهم عن الحكم، فكانت حلقة الوصل ما بين الامبراطورية المغولية ووضع الشيعة في الهند والباكستان في يومنا هذا.

ويأتي المؤلف في بحثه هذا على الأعمال التي قام بها كل واحد من نوابي هذه المملكة الذين ظلوا يعترفون بالتابعية إلى الامبراطور المغولي في دلهي حتى تولى النواب غازي الدين حيدر فتتوج ملكاً في مملكة (أوده) يوم ٢٩ تشرين الثاني ١٨١٩.

ومما جاء في هذا الكتاب عن ملوك ونوابي (أوده) جميعهم تعلقهم بالمذهب الشيعي وصرفهم الباذخ على الطقوس ومظاهر العبادة، وعلى إقامة الشعائر الدينية ومساعدة السادة والعلماء. ويذكر المؤلف عن عساف الدولة مثلاً (١٧٧٥) أنه كان مبذراً تمام التبذير، وأنه كان يصرف على الشعائر والمراسيم في شهر محرم من كل سنة خمسة أو ستة لكات[1] من الروبيات. وكان يصرف ما يكاد يساوي هذا المبلغ في كل سنة أيضاً على تعمير المساجد والحسينيات (إمام باره) وتجهيزها ويذكر عن باهوبكم زوجة شجاع الدولة أنها بعثت تجلب شيئاً كافياً من تراب كربلاء والنجف ليفرش في

(١) واحدها اللك وهو ١٠ ملايين على ما جرى عليه اصطلاح المولدين، على ما جاء في (المنجد) ويذهب البعض الآخر إلى أن اللك يساوي ١٠٠ ألف في الحساب.

قبرها حينما تدفن فيه، وقد تم ذلك بالفعل وصرف على بناء هذا القبر مبلغ يناهز ثلاثة ألكاك من الروبيات، وظل ألف رجل من القراء يقرأون القرآن الكريم حوله خلال الليل كله لعدة أيام. ويتطرق المؤلف كذلك إلى ذكر الحسينيات الثلاث المشهورة في لكناو فيقول إنها كلها تستحق الزيارة والمشاهدة، وإن كل واحدة منها تختلف عن الأخرى وتسمى أحداها «شاه نجف» لأن الملك غازي الدين حيدر بناها بحيث يكون الضريح الموجود فيها مشابهاً لضريح الإمام عليه السلام في النجف. ويشير الدكتور (هوليستر) كذلك إلى مجالس التعزية التي تقام في محرم الحرام وغيره ويقول أن إقامة هذه المجالس قد تتجاوز مدتها الأيام العشرة الأولى من هذا الشهر، وأن البعض من ملوك (أوده)، مثل ناصر الدين (١٨٢٧) كانوا يقيمون هذه المجالس لمدة أربعين يوماً من كل سنة.

على أن أهم ما يذكر في كتاب (شيعة الهند) مما يختص ببحثنا هذا منشأ وقف (أوده) الذي توزع وارداته في كل سنة على مستحقيه في النجف وكربلاء. فيقول المؤلف إن ملوك (أوده) كانوا قد وضعوا للاستثمار في قروض حكومية مبلغاً يقدر بثلاثة ملايين ونصف المليون باون استرليني، ليصرف على أفراد أسرهم ومتعلقيهم. وظل نسل هؤلاء يتقاضون ربح ذلك المبلغ بالنسبة الأصلية بحيث يبلغ مجموعه في كل سنة شيئاً يزيد على أربعة عشر لكاً من الروبيات.

وقد كان البعض من مستحقي هذا الوقف متعودين على توزيع بعض المبالغ في العتبات المقدسة الموجودة في مكة والمدينة وكربلاء والنجف الأشرف، ونظراً لأن قسماً منهم لم يخلف وريثاً أو وصية خاصة في هذا الشأن فقد ظل ما يستحقونه يبعث كله إلى العتبات المذكورة.

وتورد المس (غير ترودبيل) سكرتيرة دار الاعتماد البريطاني ببغداد، في تقريرها[1] عن الإدارة المدنية في العراق أيام الاحتلال البريطاني (١٩١٤ - ١٩٢٠)، تفصيلات أخرى في هذا الموضوع. فهي تقول إنهم قد تعرفوا بالنجف وكربلاء ومركز

(١) Review of the Civil Administration of Mesopotamia, 1920.
وهو محتوى الكتاب المترجم باسم (فصول من تاريخ العراق القريب) الذي نشره كاتب هذه السطور، ١٩٤٩.

زعمائها الروحانيين قبل الحرب بمدة طويلة لأن الحكومة الهندية في ١٨٤٩ كانت لها علاقة بهاتين المدينتين فيما يختص بوقف (أوده) فقد كان (غازي الدين حيدر) ملك أوده. قد أوقف مبلغاً قدره (٠٠٠, ١٢١) روبية في السنة لتصرف صدقات إلى مستحقيها في المدينتين المقدستين. فوجدت حكومة الهند، التي ورثت مسؤوليات، شركة الهند الشرقية، نفسها في موقف الناظر على هذا الوقف. وكان توزيع هذا المبلغ في كل سنة يثير عدة مشاكل، لكنه انتظم في ١٩١٠ بإجراء ترتيبات خاصة أصبح التوزيع فيها يجري عن طريق لجنتين خيريتين، واحدة منهما في كل من النجف وكربلاء، وتتألف كل منهما من مجتهدين وأناس محترمين آخرين، بعد أن يحول المقيم البريطاني في بغداد المبلغ لهما رأساً.

على أن السر أرنولد ويلسن يورد في كتابه[1] (بين النهرين ١٩١٧ ـ ١٩٢٠)، الذي ستأتي الإشارة إليه بالتفصيل في مواضيع قادمة، عن هذا الموضوع رواية أخرى تختلف عن الروايتين المذكورتين في أعلاه. فهو يقول إن الانكليز ما أن دخلوا بغداد في آذار ١٩١٧ حتى لفت نظر السر بيرسي كوكس من جهات ذات تأثير ونفوذ في النجف وكربلاء إلى أن واردات وقف (أوده) لم توزع منذ أن أعلنت الحرب العامة، وطُلب منه أن يتخذ الإجراءات العاجلة ليستأنف تحويل المبالغ التي كانت تحول في أثناء السلم عن طريق القنصل العام البريطاني في بغداد. وكان منشأ هذا الوقف أن اللورد (أمهرست)، حاكم الهند العام، كان قد استقرض مبلغاً جسيماً من ملك (أوده) بمناسبة الضائقة المالية التي حصلت بنشوب الحرب في بورما سنة ١٨٢٥. وكان القرض بقيمة عشرة ملايين روبية، لكن ملك (أوده) قد اشترط بدلاً من تسديده إليه أن تقوم حكومة الهند بصرف الربح المستحق عليه إلى الأبد، بنسبة ٥٪، على جهات خاصة منها بعض الناس والطبقات في النجف وكربلاء. وقد حصلت بعد ذلك تعقيدات كثيرة بسبب غموض الوقفية والشروط المدرجة فيها وخشي الأتراك من أن تتخذ مدفوعات هذا الوقف لأغراض تخريبية تتجاوز حدود الوقفية.

ثم نشأت صعوبات أخرى في كيفية توزيع هذه المبالغ التي كانت تثير الضغائن

(١) الص ٨٩.

والأحقاد في كثير من الأحيـان. على أن واجب اتخـاذ ترتيبـات مناسبـة وقع عـلى عاتق النواب محمد حسين خان في الغالب، فبرهن في هذا الشأن على كونه رجلاً حكيماً كثير التعاون مع الموظفين الإداريين المتعاقبين، ودبَّر توزيع هـذه الهبات بـأقل مـا يمكن من الاحتكاك والتصادم.

النجف بين نادر شاه والعثمانيين

وحينما ظهر اسم (نادر قلي خان) أو نادر شاه فيما بعد، على مسرح الحوادث الجارية في العراق وإيران في أواسط القرن الثامن عشر، صار اسم النجف الأشرف يتردد في كل فرصة أو مناسبة. فقد اصطدم مع الدولة العثمانية ما بين سنتي ١٧٣١ و ١٧٤٦ اصطدامات متكررة عنيفة، وحاصر بغداد والموصل حصارات طويلة مخيفة، ونازل الجيوش التركية على أسوار بغداد والموصل وفي ميادين القتال الأناضولية والعراقية الأخرى وكان يعقب تلك الاصطدامات والحروب كلها مفاوضات ومطاليب كانت تدور معظمها حول الحدود المشتركة بين البلدين من جهة، وحول الاستيلاء على النجف وكربلاء والاعتراف بالمذهب الجعفري مذهباً خامساً من جهة أخرى. وتوجد تفصيلات هذه الحوادث في كتابي السر بيرسي سايكس عن تاريخ إيران، والمستر لونكريك عن تاريخ العراق الحديث، المار ذكرهما، وكتاب الدكتور لوكهارت[١] عن حياة نادرشاه نفسه.

وأهم ما حدث من المطاليب والمفاوضات في هذا الشأن ما حدث على أثر انتصاره في معركة (بغاوند) بالقرب من قارص، وقضائه على (عبد الله باشا كويريللي) وجيشه فيقول (لونكريك) في هذا الشأن. . «فتحرك إلى أرضروم، وسار السفراء فوق العادة بين الفريقين، فاشتط نادر بمطاليبه وطلب الدية زيادة على معاهدة بغداد السابقة، ولذلك لم يتوصل الطرفان إلى نتيجة ما مدة أشهر عديدة. . . وقد أوضح في الاحتفال الذي أجري لذلك إصلاحاته المهمة التي أشار إليها من قبل في كتاباته إلى البلاط التركي. فأعلن تمسك الشيعة بالعقائد الدينية الأصلية وانضمامهم إليها باسم

Lokhart L. - Nadir Shah, London 1938. (١)

المذهب الخامس وهو المذهب الجعفري. وقد كان يرمي بذلك إلى تسهيل معاملاته مع تركية وإيجاد أهمية لأسرته السنية، ثم تم توحيد العناصر التركمانية والكردية والأفغانية التي في جيشه ليعادل بها العناصر الشيعية التي فيه وما زالت مقيمة على ميلها إلى الصفويين». وكان ذلك في سنة ١٧٣٦.

وحينما عاد نادر شاه مرة أخرى إلى العراق وحاصر الموصل في ١٧٤٣ لم يستطع الاستيلاء عليها بعد أن قصفها وحاصرها مدة تناهز الأربعين يوماً ولذلك اضطر لعقد الصلح مع واليها (الحاج حسين باشا الجليلي) بشروط خفيفة، وإلى أن يعود إلى بغداد فيديم محاصرته لها، ثم توجه من هناك إلى النجف الأشرف لأداء واجب الزيارة وطلب منها إلى والي بغداد (أحمد باشا) الذي كان واقفاً في وجهه طوال هذه المدة، أن يبعث إليه بوفد من العلماء السنة للبحث في قضية التوفيق بين الفريقين المسلمين. فنُدب إليه (الشيخ عبدالله السويدي) وذهب إلى النجف وجرت فيها مناظرات ومناقشات في عدة جلسات ترأسها الشاه نفسه. ويقول (لونكريك)[1] إن المناقشات الطويلة مع العلماء في النجف لم تثمر شيئاً. وفي الأخير اضطر الشاه وقد انتبه لاستفحال السخط والفتنة في بلاده وللاستعدادات التركية في الشمال، إلى عبور الحدود والرجوع من دون أن يضرب ضربة ما أو يوّقع على شيء من العهود. وتقول بعض المراجع الأخرى، ومنها الدكتور لوكهارت في كتابه عن نادر شاه، أن محضر المناظرات قد حفظت نسخة فارسية منه في خزانة الإمام عليه السلام في النجف.

ثم جرت حروب أخرى بين الشاه والأتراك في أرمينية وأذربايجان، فأحرز انتصاراً جديداً عليهم في صيف ١٧٤٥ (١١٥٨ هـ) ويذكر (لونكريك) في هذا الشأن أنه أعقب هذا الانتصار بشروط صلح لا تطاق. فقد طلب الاعتراف بالمذهب الجعفري، وتسليم (وان) وكردستان والعراق بأجمعه وفي ضمنه العتبات المقدسة. ثم تنازل عن قسم من ذلك، لكنه أصرّ على المطالبة بالنجف وكربلاء.

وكان نادر شاه قد بعث في ١٧٤٠ (١١٥٣ هـ) بهدايا نفيسة إلى العتبات المقدسة في كربلاء والنجف وسامراء، وإلى مرقد الإمام الأعظم في بغداد. وقد أمر

---

(١) الص ١٤٤ من الترجمة العربية، ط ٢.

بتذهيب القبة والإيوان، والمآذن، في النجف سنة ١٧٤٢، ولم ينته العمل فيها إلا في ١٧٤٣، وهي السنة التي عقدت المناظرة فيها ـ المناظرة بين العلماء ـ ومما يجدر ذكره في هذه المناسبة أن الترجمة الفرنسية (المطبوعة سنة ١٧٨٠) لرحلة الرحالة الالماني (نيبور) فيها حاشية تنص على أنه ورد في (جهانكشاي نادري) لمحمد مهدي خان المنقول إلى الألمانية بأن الشاه أنفق مبالغ طائلة على تغليف القبة بالذهب. وأن السور قد أمرت بترميمه الأمبراطورة (كوهر شاه بكم) فأنفق عليه مبلغ يناهز المئة ألف نادري، أو ما يساوي حوالي ستين ألف وست مئة «أيكو» ألماني. وأنها أهدت مبخرة مرصعّة بالأحجار الكريمة، وإناءً من الذهب الخالص ليحرق فيه البخور في الروضة المقدسة[1].

على أنني لا بد لي من أن أذكر هنا إتماماً للبحث حقيقة موقف نادر شاه من جميع ما تفاوض به مع الأتراك عن النجف والمذهب الجعفري وما أشبه. إذ يظهر مما يذكره (سايكس) في كتابه عن تاريخ إيران، والنبذة الأخيرة المقتبسة من (لونكريك) في البحث، أن نادر شاه لم يكن مخلصاً في إنفاقه على الروضة الحيدرية والعناية بها، ولا في الدعوة إلى اعتراف السنة بالمذهب الجعفري، وإنما اتخذ ذلك وسيلة لتثبيت عرشه ومركزه في إيران الشيعية بعد أن اغتصبه من الصفويين. ويذهب سايكس[2] إلى أبعد من هذا فيقول أنه حينما طلب إليه أن يقبل العرش الإيراني (بعد أن خلع آخر الملوك الصفوية) سنة ١٧٣٦ (١١٤٨ هـ) اشترط في قبوله إياه على القادة والوجوه، بعد أن رفض الطلب عدة مرات، أن تبادر الأمة الإيرانية إلى نبذ العقيدة الشيعية التي أدخلها مؤسس الدولة الصفوية إلى إيران وتعود إلى العقيدة السنية. ويذكر كذلك أن المجتهد الأكبر الذي كان حاضراً في حفلة التتويج نهض محتجاً في الحال، وأشار عليه بأن يحصر جهوده في شؤون الحكم وغيرها من الشؤون الدنيوية، لكن موته المفاجىء أخرس المعارضة التي كان يمكن أن تصدر من زملائه. ويستنتج سايكس من ذلك أن التبديل المطلوب في العقيدة قد صودق عليه في ذلك الجمع الحافل بصورة رسمية فقط. ولأجل أن يجعل نادر شاه هذا التبديل الجديد للعقيدة شيئاً مستساغاً أعلن عن

(١) الص ٣٣٢، مباحث عراقية ليعقوب سركيس.

(٢) الص ٢٥٤، ج ٢.

عزمه على أن يضيف إلى المذاهب السنية الأربعة مذهباً خامساً هو المذهب الجعفري نفسه. وقد كان يؤمل من ذلك بطبيعة الحال أن ينسى الإيرانيون ما قامت به الأسرة الصفوية المالكة من أعمال. وربما كانت تداعب أطماعه كذلك أحلام السيطرة على العالم الإسلامي وتوحيده في إمبراطورية إسلامية واحدة تضم في حظيرتها الممتلكات العثمانية كلها أيضاً.

يضاف إلى ذلك ما نجده فيما كتبه سايكس في مناسبة أخرى[1] من أن نادر شاه وافق في المفاوضات التي أعقبت انتصاره على كويريللي باشا في بغاوند على التخلي عن مطالبته بالاعتراف بالمذهب الجديد، وعقد الصلح بالشروط التي كان قد تم الاتفاق عليها بين الدولتين في أيام السلطان مراد من قبل.

ويضيف إلى ذلك كله ما يكاد يكون غريباً جد الغرابة. فهو يقول[2] في أثناء تجليله لشخصية نادر بانه لما كان قد نشأ سنياً في عقيدته فقد أظهر عداء شديداً لرجال الدين الشيعة، وصادر الأموال الطائلة التي كانت ترد إليهم. وقد حاول توحيد المسلمين بإلغاء المذهب الجعفري لكنه فشل فشلاً ذريعاً في مسعاه. ثم راح يحلم بابتداع ديانة جديدة، ومن أجل هذا أمر بأن يترجم له توراة اليهود وإنجيل المسيحيين (العهد الجديد).

وفي ربيع ١٧٦٤ تربع على دست الحكم في ولاية بغداد الوالي عمر باشا بعد أن اشترك في مؤامرة قتل فيها سلفه علي باشا الذي كان مملوكاً من أصل فارسي. وفي أيام هذا الباشا ساءت العلاقة مع إيران التي كان على رأسها الوصي كريم خان زند، وازدادت التعرضات بالزوار الإيرانيون وفرضت الرسوم الفادحة عليهم، حتى انقطع سيل الزوار على النجف وغيرها من العتبات. وفي هذا الشأن يقول (لونكريك)[3] «. . . غير أن أسباب الاحتكاك والتصادم كانت تعمل طي الخفاء. فقد أثارت منذ سنين خلت حفيظة الإيرانيين المعاملات القاسية التي كان يعامل بها زوار العتبات المقدسة في الفرات. . وكانت العتبات نفسها قد وصلت أخطار السفر فيها إلى الأوج بالتعديات المزعجة والتكاليف الجشعة التي كانت تفرض على الزوار». فكانت هذه

(١) الص ٢٦٩. (٢) الص ٢٦٩. (٣) الص ١٦٧، ط٢.

من أهم الأسباب التي أدت إلى التصادم بين البلدين المتجاورين، لأن كريم خان جرد في الأخير حملة قوية على البصرة في ١٧٧٥ بقيادة أخيه صادق خان بعد أن بعث يهدد عمر باشا باحتلال العراق ويطالب برأسه ثمناً لتعدياته المتكررة على زوار النجف وسائر العتبات على حد قول السر بيرسي.

هجمات الوهابين

وفي الربع الأخير من القرن الثامن عشر انتشرت الدعـوة الوهـابية في نجـد وما جـاورها من الأصقـاع المتاخمـة للعراق، وصـار الوهـابيـون بمـا عـرف عنهم من عنف وتعصب يهاجمون المناطق المطلة على البادية من هذه البلاد بين حـين وآخر خـلال مدة طويلة من الزمن. وكان نصيب النجف وكربلاء، بحكم موقعهـما القريب من البـادية وصبغتهـما الدينيـة المعروفـة وما فيهـما من قبب ونفائس، شيئـاً غير يسـير من هجماتهم المدمرة وغزواتهم الصاعقة العنيفة.

وكان أعنف ما شنه الوهابيون من غزوات على العراق الغزوة التي هـاجموا فيهـا مدينة كربلاء في يوم الغدير من سنة ١٢١٦ للهجرة، المصادف لليوم الثاني من نيسـان ١٨٠١ حينما كان معظم سكانها يؤدون الزيارة في النجف. ويقول المستر (لـونكريـك) في هذا الشأن أن وصول الكهية المتأخر إلى كربلاء لم يجدها نفعـاً ولكنه قصـد النجف بعـد ذلك ونقـل ما كـان في خزينتهـا من نفائس وتحف إلى بغـداد خوفـاً من أن يعود الوهابيون إليها فينهبوها كما فعلوا في غزوتهم لكربلاء، والكهية المقصود في هذه الرواية هو علي باشا كهية والي بغداد المملوك سليـمان باشـا الكبير. وتقـول مراجـع أخرى أن الوالي أمر بنقل النفائس التي كانت موجودة في خزانة النجف إلى خزانـة الإمام مـوسى الكاظم عليه السلام، وعهد بذلك إلى الحاج محمد سعيد بك الدفتري. وأمـر كذلـك بتعزيز حامية النجف فأبقيت فيها ثلة من عسكر الموصل وشرذمـة من العقيليين.

وبعـد هذا الحـادث بسنتين أي في ١٨٠٣م (١٢١٨ هـ)، هـاجم الـوهـابيـون النجف، وشنوا عليها غزوة عنيفة. ويقـول المستر لـونكريـك في هذا الشـأن أن الغزو الوهابي للنجف في الأيام الأخيرة من تلك السنة كان بقوة أشد من القوى الاعتياديـة،

وأن قبة علي بن أبي طالب بقيت ثابتة الأركان في داخل سورها المنيع وحينما خفت إليها قوات علي باشا الكهية عاد الغزاة من حيث أتوا واختفوا عن الأنظار. والمعروف في المراجع النجفية الموثوقة أن الوهابيين حينما وصلوا إلى البلدة وجدوا أبواب السور مغلقة، ومن بقي فيها من السكان قد تهيأوا للدفاع عنها حتى النفس الأخير. وقد تولى هذا الدفاع والإشراف عليه سماحة الشيخ جعفر كاشف الغطاء[١] بنفسه، واشترك فيه عدد من العلماء والاعلام وغيرهم.

وفي ربيع ١٨٠٦ هاجم الوهابيون العراق من عدة جهات من جملتها النجف كذلك. ومما يذكر لونكريك بهذه المناسبة أن جماعاتهم الغازية ظلت تغزو قرى الحدود من الطف ولكن من غير أن تنال نجاحاً في غزواتهم. وكان سكان البلدان من الزبير إلى السماوة مع حلفائهم من القبائل يصدون هجماتهم بسهولة. وقد أوشكوا أن ينجحوا في غارتهم المفاجئة على النجف الأشرف لولا أن عاجلهم النجفيون من السور فكسروهم شر كسرة[٢]. ويؤيد ذلك ما جاء في (تاريخ العراق بين احتلالين) من أن سعوداً سار بجيشه إلى المشهد وأحاط بها ثم أمر رجاله بتسوّر السور ومهاجمة البلد. لكن وجود الخندق العميق حوله حال دون نجاحهم في ذلك. وقد جرت مناوشات عنيفة وقتال بين الطرفين ورمي الوهابيون من السور وأبراجه فقتل عدد غير يسير منهم فردوا على أعقابهم[٣].

---

(١) الص ٣٢٧ ماضي النجف وحاضرها، ط ٢.

(٢) الص ٢١٨ من الترجمة العربية، ط ٢.

(٣) ومما ورد على ألسنة الشيوخ وتداولته الألسن: أنه حينما ضيق الوهابيون الحصار على النجف وانقطع بذلك طريق تموين البلدة بالطعام واقتصر شرب الماء على الآبار المالحة وضاق بالناس الحال أفتى العلماء هناك بالجهاد، ودعوا الناس إلى الاجتماع في الصحن الشريف وهناك تليت عليهم فتوى الجهاد التي توجب على كل مسلم مستطيع أن يقوم بقسطه من الدفاع عن المدينة المقدسة وساكنيها خصوصاً بعد أن يئس الناس من وصول الجيوش العثمانية لنجدة المدينة، وقد صنف المجاهدون إلى أصناف، صنف يتقدم الجموع المهاجمة وهم حملة البنادق والذين يجيدون رمي الحجارة بالمقاليع، وصنف يتولى محافظة هؤلاء المهاجمين بنفس السلاح، وصنف يناط به حفظ أسوار المدينة وأبوابها وتسهيل عودة المهاجمين إذا ما اقتضى انهزامهم، وصنف عليه تموين المحاربين بالحجارة الصالحة، ولم تكن البنادق يومذاك معروفة إلا نادراً والحرب كانت حرب سيوف ورماح في الغالب وكانت في النجف بندقية هي بين المدفع والبندقية وصفاً، وكانوا قد نصبوها فوق نقطة معينة من السور وكانوا يحشونها بالبارود والخرق وكرات الحديد والحصى ثم يولعون الفتيل بطريق قدح الزناد فتقذف هذه البندقية بمقذوفاتها في مسافة ربما لا تتجاوز

وقد كانت الهجمات الوهابية المتكررة على النجف هذه واستدامة الخطر الناجم عنها، سبباً مهماً من الأسباب التي أدت إلى انتظام سكانها في جماعات وأحزاب تستهدف تنظيم الدفاع عن البلدة والعمل على صد الخطر الوهابي عنها.

وكانت أهم هذه الجماعات جماعتي الزكرت والشمرت المعروفتين. وقد تطورت الأحوال بين هاتين الجماعتين بمرور الزمن واشتد النزاع بينهما زمناً طويلاً. وإلى ذلك يشير (لونكريك) إشارة مختصرة يفهم منها أن هذا النزاع العريق في القدم قد اشتد في أيام الوالي سعيد باشا (١٨١٥) حتى انقلب إلى عراك علني. وتطور إلى أكثر من هذا بعد ذلك حتى تحدى فيه عباس الحداد رئيس الزكرت الحكومة، وظلم الناس واعتدى عليهم، فاضطر داود باشا في السنة الثانية من حكمه (١٨١٨ أو ١٢٣٤) إلى تجريد قوة خاصة لتأديبه. ويقول صاحب دوحة الوزراء[١] أن صالح أغا الأندروني انتدب لهذا العمل وكلف بأن يأتي بعباس الحداد حياً، غير أنه تعذر عليه ذلك فقتله في معركة جرت بينه وبين الجيش التركي وقتل صاحبه (دبيس) معه، ثم جيء برأسيهما إلى بغداد فانتهت الفتنة بين الزكرت والشمرت. ويؤيد ذلك في مذكراته التي كتبها بالفرنسية تاجر أرمني من أهالي استانبول كان مقيماً ببغداد آنذاك يدعى أو انيس مراديان[٢].

= المائتي متر وتسبب سخرية الوهابيين وضحكهم أكثر مما تسبب خوفهم.
وبعد أن تم تصنيف المجاهدين من قبل الزعماء من أولي الخبرة بالحرب تقرر أن يفتحوا باب المدينة بعد منتصف الليل من الليلة التالية وعلى غفلة من الوهابيين الرابضين فيحملون عليهم حملة رجل واحد في جنح الظلام وهكذا كان، وكانت الليلة من الليالي الحالكة وكانت مفاجأة غير منتظرة أشاعت الذعر في الإبل الباركة فهبت من مراحها لا تدري أين تولي وجهها، وتساقط الرصاص والحجار كالمطر على البدو النائمين المطمئنين فإذا ببعضهم يضرب بعضاً وإذا بعدد كبير من الوهابيين يسقط قتيلاً وجريحاً. وحين عاد المهاجمون عادوا ومع الكثير منهم أشياء من الأواني والأعمدة والرماح والسيوف، لقد عادوا وأغلقوا أبواب المدينة من جديد خلفهم، وحين طلع النهار رأى الوهابيون ان الحصار لم يعد نافعاً خصوصاً وقد مرت عليهم أيام طوال عادت عليهم بكثير من خسارة النفوس سواء في أثناء محاولتهم تسلق السور أو من هذا الهجوم المفاجيء الذي تجاوز حدود القتلى والجرحى فيه الحد المعقول على ما روى الرواة وهذا العدد الكبير من الإصابات الواقعة على الجمال فارتحلوا عن البلدة في صباح تلك الليلة، ومنذ ذلك اليوم والنجف تعنى عناية خاصة بتدريب أبنائها على رمي الحجارة بالمقاليع ولم تمح هذه الرياضة إلا مؤخراً.

(١) الص ٢٨٩ من الترجمة العربية عن التركية.

(٢) ذكر نص اليوميات يعقوب سركيس في «مباحث عراقية» ج ٢.

النجف في أيام الحرب العالمية الأولى

وفي خلال ١٩١٤ تطورت الأحوال في العالم تطوراً جذرياً وأعلنت الحرب العالمية الأولى ما بين الحلفاء والدول المركزية. فانحازت الدولة العثمانية التي كان العراق بولاياته الثلاث ينضوي تحت لوائها، إلى جانب الدول المركزية وعلى هذا الأساس أعلنت بريطانية العظمى الحرب عليها في ٢٩ تشرين الأول ١٩١٤، وفي اليوم السادس من تشرين الثاني نزلت القوات البريطانية التي كانت محتشدة في البحرين إلى البر في مصب شط العرب وتقدمت لاحتلال البصرة فدخلت إليها في الثاني والعشرين منه.

وتلت ذلك عدة معارك محلية بين الجيشين العثماني والبريطاني، وكان أهم هذه المعارك ما جرى في موقعة الشعيبة التي وقعت في يوم ١٢ نيسان ١٩١٥.

وكانت قد اشتركت مع الجيش العثماني في القتال قوات المجاهدين الذين هبوا للجهاد من النجف وغيرها بقيادة المغفور له محمد سعيد الحبوبي بعد أن أفتى هو وغيره من العلماء الاعلام به انتصاراً للإسلام وعلى أثر هذه المعركة التي اندحرت فيها القوات العثمانية اندحاراً شنيعاً انتحر بسببه قائدها سليمان عسكري باشا، حدثت تطورات مهمة في أنحاء العراق كافة ومن جملتها النجف. وقد شرحت هذا الموضوع بإسهاب، تتطرق فيه إلى ما وقع في النجف أيضاً، المس (غيرترود بيل) في تقرير رسمي مفصل رفع إلى الحكومة[1] البريطانية عن الوضع

---

(١) Review of Civil Administration of Mesopotamia (CMD 1916) - Prepared by Gertrude L. Bell C. B. E.

وهذا التقرير هو محتوى الكتاب الذي نشره كاتب هذه السطور لعنوان (فصول من تاريخ العراق القريب) ١٩٤٩.

العام في العراق خلال سني الاحتلال البريطاني التي انتهت ببداية عهد الانتداب على العراق في صيف ١٩٢٠.

فهي تقول[١] أن الحكومة العثمانية كانت قبل دستور ١٩٠٨ تعترف بأن المدن المقدسة تختلف اختلافاً بيناً عن سائر ممتلكاتها، ولذلك فقد منحتها بعض الامتيازات التي كان أهمها إعفاء سكانها من الخدمة العسكرية. وبعد موقعة الشعبية التجأ عدد من الفارين من الخدمة العسكرية إلى النجف الأشرف، فأعلن الأتراك عن عزمهم على إعادة الفارين إلى الخدمة وهددوا بفرض التجنيد على السكان الأصليين فيها كذلك. وقد علم بالإضافة إلى هذا أن الأتراك كانوا قد قرروا مصادرة محتويات «الخزائن» الموجودة في العتبة المقدسة للإنفاق على شؤون الجهاد منها. وراحوا يجبرون الشبان على الخدمة في الجيش، ومن أجل هذا فتشوا البيوت خلال الليل، وتعرضوا بالنساء بحجة أن الرجال كانوا يتخفون بزي النساء للتهرب من الجندية. ثم فرضوا «بدلات» باهظة للإعفاء منها، فهب الناس واستحكموا في الشوارع والدور، ثم وضعوا القوات المدافعة في صحن العتبة المقدسة. فوجه الأتراك مدافعهم نحو الثوار وأنزلوا أضراراً بالمآذن سهواً أو على سبيل التقصد. وعند ذاك طير السيد كاظم اليزدي برقية احتجاج إلى استانبول، فكان جوابها إليه أنه يجب أن ينصرف إلى مهنته كدرويش متعبد وأن لا يتعرض لشؤون الحكومة وقد تلا ذلك قتال دام ثلاثة أيام استسلم بعدها الجنود الأتراك للأهلين الثائرين فجردهم الرعاع من سلاحهم، ثم نهبت بنايات الحكومة وأحرقت، وهدم بيت القائم مقام التركي وطرد هو نفسه.

وتعود المس بيل فتذكر أن النجف صار يحكمها بعد حوادث نيسان هذه الشيوخ الأربعة: سيد مهدي السيد سلمان (الحويش)، والحاج عطية أبو كلل (العمارة) وكاظم صبيّ (البراق)، والحاج سعد الحاج راضي (المشراق)، بأنفسهم وبمشورة السيد كاظم اليزدي الذي كان يمثله عندهم ابنه السيد محمد[٢]. ولذلك تأزم الوضع على الأتراك

---

(١) الص ٢٨ من الترجمة العربية.

(٢) لم يكن للسيد كاظم اليزدي في هذا المكان ولا في غيره أكثر من كونه مرجعاً دينياً، ولم يعرف أنه تدخل في شؤون الإدارة.

في الفرات بحيث عمدت السلطات التركية إلى تغيير سياستها والالتجاء إلى المسالمة والصلح. فتألفت لجنة من الوجهاء لتسوية الأمور، وتم الاتفاق على أن يعود القائممقام إلى وظيفته في النجف مع حرس هزيل للحماية. على أن السطوة في البلد بقيت في أيدي الثوار، لأن القائممقام أصبح ألعوبة في أيدي الشيوخ المذكورين ولأن الناس أخذوا يهزأون بحراسه علناً في الشوارع.

غير أن التهدئة هذه لم تكن إلا نصراً أجوف للأتراك على حد تعبير (المس بيل) لأنها ما لبثت قليلاً حتى أخذ الحاج عطية، بمؤازرة السيد كاظم اليزدي، يتصل سراً برئيس الحكام السياسيين المرتبط بقوات الاحتلال(١). وقد عرض عليه استعداد النجف والقبائل المحيطة بها للانضمام إلى الإنكليز لقاء احترامهم للعتبة المقدسة وعدم التعرض بها. وكان رد رئيس الحكام السياسيين على ذلك أنه أشار عليهم بالاطلاع على البيانات التي كانت السلطات البريطانية قد أذاعتها على الملأ عند أول نشوب الحرب وادعت فيها بأنها لم تكن في خصام مع العرب ولا مع المسلمين. وذكّرهم كذلك بالمعاملة الحسنة التي لقيها من الإنكليز رجال الدين الذين وقعوا في أيديهم.

وبعد ذلك تسنى للإنكليز أن يثأروا لأنفسهم عن الاندحار الشنيع الذي أصابهم على يد خليل باشا في سلمان باك، وحصار الكوت الذي استسلم فيه الجنرال (طاونزند) مع قواته المحاصرة في ٢٩ نيسان ١٩١٦، فاسترد الجنرال مود الكوت في نهاية ١٩١٦ وتم له احتلال بغداد في ١١ آب ١٩١٧. وعلى أثر ذلك بعث علماء النجف وكربلاء، على ما ترويه المس بيل في تقريرها هذا، برقية تهنئة إلى صاحب الجلالة البريطانية فأجابهم عليها معترفاً بتسلمها ومبدياً أن رغبته الخالصة هي انتعاش العراق وسكانه والمحافظة على عتباته المقدسة واستعادته إلى رخائه القديم. ولا شك أنها تعني بذلك بعض المعممين الذين كان يسيئهم تصرّف الأتراك وموظفيهم المتعجرفين، أو الذين كانوا يمالئون الإنكليز فصاروا يعرفون بعد ذلك بعلماء «الحفيز»(٢).

---

(١) والشيء الثابت أو الذي أخذ على السيد الكاظم اليزدي هو سلبيته وعدم تدخله في السياسة وليست قضية المشروطة التي أبى أن يزج نفسه بها بعيدة عن الأذهان.

(٢) علماء الحفيز والحفيز بمعنى الأوفيس هو (المكتب) وهم أربعة أشخاص مالئوا السلطات المحتلة ومشوا في ركبهم فنعتوهم بعلماء الحفيز (الأوفيس) تمييزاً لهم عن رجال الدين.

ثم تشير إلى أن مكتب رئيس الحكام السياسيين في بغداد قد ازدحم في الأيام القلائل الأولى من أيام الاحتلال بالزوار من جميع الطبقات بدون أن يستثنى منهم حتى أبناء الأسر المسلمة البارزة. وفي أثر وجهاء بغداد جاء شيوخ القبائل الصغيرة المجاورة لزيارته متعجبين من انهيار العهد القديم المفاجىء ومستبعدين دوام العهد الجديد. وكان من بين الأوائل الذين قدموا من الأماكن البعيدة (محمد علي كمونة) من كربلاء والحاج (عطية أبو كلل) من النجف، وأعقبهما بعد ذلك بقليل شيوخ بلدة النجف الآخرون. فعينت لهم المخصصات، ورجعوا إلى أهلهم مخولين بالمحافظة على الأمن حتى يكون بإمكان السلطة المحتلة معالجة شؤون المدينتين المقدستين بصورة مباشرة.

النجف في أيام الاحتلال البريطاني

لقد كان قدوم السر رونالد ستورز إلى النجف في وقت لم يكن قد تشكل فيها أي نوع من أنواع الحكومة الجديدة بعد احتلال بغداد سوى التخويل الذي خولت به سلطات الاحتلال شيوخ البلد من أمثال الحاج عطية أبي كلل وجماعته بالمحافظة على الأمن والسكينة، كما تشير إليه المس بيل في تقريرها المذكور آنفاً.

وقد بقي الوضع على هذا المنوال حتى تعين حميد خان وكيلاً حكومياً لإدارة النجف في حزيران[1] ١٩١٧، أي في نفس الوقت الذي عين فيه للكوفة رجل مسيحي من أهالي بغداد ذو خبرة إدارية يدعى سركيس أفندي[2]. وتقول المس بيل أيضاً أن النقص في المواد الغذائية التي كانت متيسرة في النجف قد أدى في تشرين الأول ١٩١٧ إلى حدوث اصطدام محلي فإن أحد شيوخ عنزة الرحل، حلفاء الإنكليز في بادية الشام، جاء يحمل كتاباً من الحاكم السياسي المسؤول عن حدود البادية الكولونيل (ليجمن) إلى (حميد خان) يوصيه فيه بمساعدة الشيخ العنزي على اكتيال مقدار غير يسير من الحبوب. فسمح للشيخ بشراء ما يحتاجه، لكن الخبر ما كاد يشيع في البلدة حتى قفزت الأسعار وارتفع مستواها في السوق ومن سوء الحظ أن (فهد بك ابن هذال) شيخ مشايخ عنزة الشرقية بعث في اليوم الثاني ألفاً ومئتي بعير ليبتاع أصحابها الحبوب من أسواق النجف أيضاً برخص موقعّة منه. فكان هذا أكثر مما كان

---

(١) لكن آرنولد ويلسن، وكيل الحاكم الملكي العام؛ يقول في كتابه «بين النهرين، ج ٢» «إن حميد خان وصل إلى النجف في تموز ممثلاً عن سلطات الاحتلال العسكرية».

(٢) لتعيين حميد خان وكيلاً للحاكم السياسي في النجف وامتناعه عن قبول هذه الوظيفة حكاية يراجع بشأنها كتاب (هكذا عرفتهم).

بوسع البلدة أن تجهزه للبادية، فهب الأهالي مجتمعين صاخبين. وأخذوا يتصيدون من كان داخل البلدة من أفراد عنزة، وفي ١ ـ ٢ تشرين الثاني نظموا مظاهرة صاخبة حول مخيمهم. وهناك وقع شجار تبودلت فيه بعض العيارات النارية بين الفريقين، وقتل بعير من الأباعر، ثم نهبت ثلاث بندقيات وحاجات كثيرة أخرى. ولم يستطع (حميد خان) المسؤول، الذي لم تكن تدعم سلطته الحكومية أية قوة، معالجة الموقف أو منع الاصطدام[١].

وقد ورد في كتاب (بين النهرين ـ أنواع الولاء)[٢] الذي كتبه السر (أرنولد ويلسن) وكيل الحاكم الملكي العام في تلك الأيام عن نتيجة هذا الحادث أن حميد خان لم تكن تحت تصرفه أية قوة تمكنه من توطيد الأمن والسيطرة على الموقف، ولذلك طلب من الحاكم الملكي العام قبول استقالته. فما كان من الحاكم العام (وهو السر بيرسي كوكس) إلا أن يقترح على القائد العام للقوات المحتلة يومذاك تعيين ضابط بريطاني في تلك المنطقة. ويؤيد ذلك ما كتبه السر بيرسي نفسه في الخلاصة[٣] التي كتبها عن المس بيل ونشرت في رسائلها المشهورة. فهو يقول «ومع أن كربلاء لم تسبب لنا مشكلة خطيرة فإن النجف التي كانت فريسة في أيدي شيوخ البلد المحليين، قد بقيت شوكة في جانبنا مدة من الزمن. . » ولذلك قمت بجولة في المنطقة خلال كانون الأول ١٩١٧ لأكون في وضع يؤهلني لتقديم المشورة إلى القائد العام للقوات المحتلة بالنسبة لمختلف النقاط الإدارية التي تجعل من مرابطة مفرزات خاصة من الجيش فيها شيئاً ناجحاً. وكان من غير المرغوب فيه بطبيعة الحال، ومما لا يأتلف مع بياناتنا السابقة، أن نبادر إلى وضع قطعات من الجيش في الأماكن المقدسة نفسها. وهذا الوضع بالذات هو الذي جعل من الصعب علينا أن نسيطر سيطرة تامة على النجف التي كانت العناصر الخارجة على النظام والقانون فيها خاضعة لتأثير الدعاية التركية الالمانية واستثارتها المستمرة. وقد وجدت الدلائل الواضحة على هذه الاستثارة ما بين أوراق العدو التي وقعت في أيدي قواتنا في الرمادي وهيت بعيد ذلك.

---

(١) الص ٦ من الترجمة العربية (فصول من تاريخ العراق القريب).

(٢) Sir Arnold T. Wilson - Loyalties, Mesopotamia, Vol I, 1914 - 1917 London 1936.

وعلى هذا فقد تعين الكابتن (بلفور) الذي كان يتقن العربية لاشتغاله السابق في السودان، حاكماً سياسياً في المنطقة للاطلاع على الأوضاع فيها، فمر بالنجف من دون أن يكون معه أحد لحراسته سوى البعض من شيوخ المنطقة نفسها. وهناك اتخذ الترتيبات اللازمة لحل مشكلة النزاع الذي حدث مع عنزة بعد فرض الدية والتعويضات على شيوخ البلد في النجف. ثم غادرها لاستئناف جولته في تلك الأنحاء بعد أن أبقى حميد خان في منصبه بصفة معاون له. وحينما عاد الكابتن بلفور بعد يومين إلى النجف وجد أن الشروط المتفق عليها لم تنفذ.

ومما جاء في تقرير (المس بيل) في هذا الشأن أن الكابتن بلفور حينما عاد إلى النجف بعد أيام قلائل لم يحضر لمقابلته إلا اثنان من شيوخ البلد فقط، وهما الحاج عطية وكاظم صبّي، فأدت المحاولة للضغط على هذين الشيخين إلى وقوع شغب في البلدة أثاره الحاج عطية نفسه بصورة سرية. فصمد بلفور لما حدث وظل في مكانه حتى عندما هوجمت الدائرة الحكومية التي كان فيها ثلاث مرات متواليات من المتجمهرين، لكنه قبل بعد ذلك أن يترك الدائرة بحماية الكليدار إلى بيت الكليدار نفسه الواقع على مسافة من دوائر الحكومة. ولم يتوقف الشغب حتى بعد أن نهبت الدائرة المذكورة نفسها. وفي أواخر النهار وقعت اضطرابات مماثلة في الكوفة حيث دعا الوكيل الحكومي هناك الشيوخ المحليين فسيطر على الموقف بسرعة، ووقعت مثلها في أبي صخير أيضاً، فنهبت الدائرة فيها وجردت من كل شيء. ومع هذا كله فقد بقي (الكابتن) من دون قسوة عسكرية تؤازره أو تحميه، فالتجأ إلى المجتهد الأكبر السيد كاظم اليزدي طالباً المعونة. فدعي الحاج عطية وكاظم صبي بإشارة منه، وصدر الأمر بالعفو عنهما فعادت البلدة إلى أحوالها الاعتيادية.

ثورة النجف

أما ما حدث بعد ذلك في النجف فإن السر (أرنولد ويلسن) و (المس غيرترود بيل) يتفقان تمام الاتفاق فيما يذكرانه، في كتابيهما المشار إليهما، عنه من ناحية التفصيلات والأشخاص وغير ذلك. فقد جعل (الكابتن بلفور) محل إقامته في الكوفة، غير أن العناية الكبرى التي كانت تتطلبها الشؤون الزراعية في المنطقة، وضرورة حسم الأمور بالقوة في كثير من الأحيان، جعلت من غير الممكن إبقاء بلفور معتمداً فقط على حسن نية الشيوخ، والسادة الملاكين، تجاهه في الوقت الذي كان يتعرض فيه إلى موقف (عطية أبي كلل) العدائي تجاهه على حد تعبير (أرنولد ويلسن) ولذلك زار الحاكم الملكي العام (السر بيرسي كوكس) منطقة الفرات كلها في أوائل كانون الأول ١٩١٧، وبإشارة منه وضعت مفرزات عسكرية صغيرة في مختلف النقاط الكائنة على النهر وليس في النجف نفسها. لأن هذه البلدة بنفوسها البالغة (٤٠،٠٠٠) نسمة كانت تستدعي وضع عدد كبير فيها من الجنود، وقد تكهن من يعنيهم الأمر بأن وجود قوة مختلطة في الكوفة التي تبعد بمسافة سبعة أميال عنها سيكون له التأثير المهدىء المطلوب بصورة غير مباشرة على ما تقوله (المس بيل) وقد قابل (السر بيرسي كوكس) خلال جولته شيوخ النجف في الكوفة، عدا الحاج عطية الذي تجنب الحضور خوفاً من الإيقاع به. على أنه تشبث بمقابلته حينما قام بزيارة قصيرة إلى النجف، لكنه أفهم في هذه المرة أنه يجب أن يأتي إلى بغداد من أجل ذلك.

وبينما كانت الخيالة الهندية التي وضعت في الكوفة تقوم بإجراء تمرينات عسكرية في السهل الواقع خارج النجف، يوم ١٢ كانون الثاني ١٩١٨، أطلقت النار عليها عصابة تتألف من مئة وخمسين رجلاً من أتباع عطية من سور البلدة فقتلت خيالاً

واحداً وجرحت آخر. ثم أطلقت النار مدة من الزمن على طائرة بريطانية كانت محلقة في جو النجف، ونهبت دوائر الحكومة فيها فاضطر حميد خان وموظفوه الذين كانوا كلهم من العراقيين إلى أن يفروا إلى الكوفة. فزحفت الخيالة من دون أن تطلق الرصاص على المدينة المقدسة فطوقتها، وعند ذاك أوصل الضابط قائد هذه القوة، الذي صادف أن كان موجوداً في النجف حينذاك، سالماً إلى خارج باب السور بواسطة شيخ محلة المشراق الحاج سعد. ثم قام الحاج سعد هذا والسيد مهدي السيد سلمان وهو أوقر شيوخ البلد على الاطلاق على ما تقول (المس بيل)، وآخرون أقل أهمية منهما، بزيارة الكابتن بلفور في الكوفة يوم ١٤ كانون الثاني فأعيد الجميع إلى النجف بعد أن طُلب إليهم أن يعملوا على المحافظة على الأمن والسكينة. وفي اليوم التالي أذعن كاظم صبيّ لأمر حضوره بين يدي الحاكم السياسي في الكوفة، فوجد الحاج عطية نفسه وحيداً في الميدان ففر إلى الشيخ عجمي السعدون الذي كان قد بقي على ولائه للأتراك وقد لازم استيطان البادية. وبعد هذا فرضت غرامة خمس مئة بندقية وخمسين ألف روبية بالنقد على النجف، فدفع المبلغ وسلمت البنادق في اليوم الأول من شباط وهو اليوم المعين لها. وفي اليوم ذاته أشغل (الكابتن مارشال) معاون الحاكم السياسي الجديد مع شرذمة قليلة من الحرس الخان الذي كان الحاج عطية أبو كلل قد بناه ليقيم فيه هو نفسه في خارج الباب الشرقي للنجف مباشرة.

وكان الكابتن مارشال قد نقل إلى النجف من الكاظمية التي أبدى فيها موجودية خلال الأشهر العشرة التي اشتغل فيها، كما كان له إلمام غير يسير باللغة الفارسية وشؤون العتبات المقدسة على حد تعبير (أرنولد ويلسن) وتقول (المس بيل) عن هذه الفترة من تاريخ النجف أن أول تدبير وأهمه كان من الضروري أن يتخذ لتأمين الحالة في البلدة هو إعادة تشكيل الشرطة فيها. لأن قوة الشرطة التي جندت إلى هذا التاريخ في النجف كان أفرادها من أهالي البلدة نفسها، وكانوا يمالئون شيوخها في كثير من الأحيان. ولذلك أرسل من بغداد والكوت عدد من أفراد الشرطة الشيعة ليعملوا فيها، وجند عدد آخر من خارج النجف. ثم قطعت المخصصات التي كانت تمنح إلى شيوخ البلدة حينما كانوا موكلين عن سلطات الاحتلال فيها، وكان ذلك بإشارة من الكابتن (مارشال) نفسه. وتقول (المس بيل) كذلك: أن جباية رسوم البلدية، التي

كانت غير منتظمة للغاية لعدة سنين خلت، قد وضعت في هذه الفترة على أسس قويمة. وشرع بتنظيف البلدة التي كانت بحالة صحية مزرية. وما انتهى كانون الثاني ١٩١٨ حتى كان الكابتن مارشال منهمكاً في حل مشكلة الماء العذب وتوفيره للبلدة بمقادير كافية.

لكن النجف على ما يبدو كانت تغلي في تلك الأثناء، بعد ما ترامى إلى أهلها من عجرفة رجال الاحتلال البريطاني وتصرفاتهم البعيدة عن العدل والإنصاف. وكانت تتهيأ فيها يوماً بعد يوم عوامل الثورة العارمة ووسائلها الدافعة، وتنتشر بين شبانها روحية الاستقلال في الحكم والشعور القومي الذي بدأت تباشيره تغزو هذه الجهات. غير أن (المس بيل)، التي يؤيدها في رأيها (أرنولد ويلسن) بطبيعة الحال، تحلل هذا الوضع على غير حقيقته وتحاول حصر الحركة في نطاقها المحلي الضيق.

فهي تقول إن الحكومة الصالحة التي جاءت بالكثير من المنافع إلى البلدة لم تكن مقبولة عند الجميع. فإن رعاع البلدة من العشائر، وحتى بعض السادة من صغار الشأن الذين وجدوا انتفاعاً من التصيّد في الماء العكر، كانوا يحملون شعوراً عدائياً متستراً تجاهنا. لكن التجار وطبقة الرأي العام الفقيرة، وسماحة السيد كاظم اليزدي وأتباعه، ارتاحوا ارتياحاً صريحاً بكسر النير الذي كان قد وضعه في رقابهم شيوخ البلدة من قبل وبالعودة إلى الحالة الاعتيادية الرتيبة. ثم تحاول المس بيل وضع ما سيحدث بعيد هذه الفترة بقالب آخر، وتعزوه إلى أسباب غير الأسباب الحقيقية. ولذلك نجدها تشير إلى أن التسوية النهائية لوضع النجف المضطرب قد صادفت تأخراً آخر، لأن الدسائس التركية في المنطقة نشطت إلى العمل أكثر من نشاطها السابق. فعندما استولت الفرقة الخامسة عشرة البريطانية على (هيت) وغزت (عانة) وقع في أيدي رجالها ضابط ارتباط ألماني كانت في حوزته أوراق ومستندات كثيرة. وقد دلت هذه المستندات على أنه كانت توجد في النجف لجنة خاصة لإشعال ثورة إسلامية فيها، وجعلها مركزاً لخلق الاضطرابات والقلاقل بين العشائر. وكان مئة أو أكثر من رجال الدين مشتركين فيها، لكنها لم تكن تضم أناساً ذوي أهمية من الدرجة الأولى. وتروي كذلك أن رئيس هذه اللجنة كان شخصاً من أسرة بحر العلوم العلوية[1]،

(١) هو السيد محمد علي بحر العلوم.

وكان هذا نشطاً في الدعوة إلى الجهاد ضد الإنكليز إلى أن سقطت بغداد بأيديهم. وقد عرفت الخطة تمام المعرفة، لأنها كانت ترمي إلى استغلال التدابير الفعالة التي يمكن أن تتخذها الحكومة البريطانية ضد البلدة المقدسة واتخاذها مادة صالحة للدعاية التركية الألمانية في المستقبل.

ثم تستمر في هذا التحليل فتقول إن شيوخ البلدة، الذين جردوا من الامتيازات التي أساؤا استعمالها كانوا بطبيعة الحال حقلاً خصباً لتلك الدعاية. وهناك ما يحمل على الاعتقاد بأن مؤامرة خاصة كانت قد حيكت لقتل الحكام السياسيين الذين كانوا يعملون في الفرات الأوسط. أما مقدار اشتراك ضابط الاستخبارات الألماني في هذا العمل، الذي تسميه جريمة، فقد كان شيئاً غير أكيد.

وهي ترى أنّ الانفجار الذي وقع في النجف كان من المحتمل أن يكون قد حصل قبل أوانه، أي قبل أن توضع الخطة وضعاً تاماً له. فكانت النتيجة أن الإدارة البريطانية قد خسرت حاكماً سياسياً واحداً فقط في هذه الجهات. فقد قتل (الكابتن مارشال) معاون الحاكم السياسي في داره الواقعة خارج البلدة على يد عصابة متكونة من اثني عشر قاتلاً في فجر يوم ١٧ مارت. وتقول (المس بيل) إن اثنين من القتلة كانا من أولاد الحاج سعد، وثلاثة من الشرطة المسرحين، وكان الرئيس «شقياً» مأجوراً. ثم تذكر أن المحركين الأساسيين للمؤامرة كانا الحاج سعد وكاظم صبي.

على أن المراجع المحلية، التي يؤيدها (السر أرنولد ويلسن) في روايته للحادث من دون ذكر الأسماء، تقول إن العصبة التي تطوعت لقتل الكابتن مارشال وإعلان الثورة كانت برئاسة الحاج نجم البقال. والمعروف انه كان رجلاً من الأخيار حفزه إلى الإقدام على هذا العمل الخطير تدينه وشعوره الوطني. وقد لبس هو وجماعته لباس «الشبانة» في ليلة الحادث وانسلوا من كوة في سور البلدة تقع في محلة المشراق. ثم كمنوا في المقبرة حتى الفجر، وبعد ذلك دخلوا البناية التي كان الكابتن يسكن فيها وهي (خان عطية) بخدعة وقتلوه كما قتلوا طبيباً ارلندياً كان معه. وقتل من المهاجمين رجل واحد وجرح آخر فحملا بعد انتهاء المعركة. ومما يقوله (ويلسن) أن (الكابتن بلفور) وصل على أثر ذلك من الكوفة إلى النجف، ومع أنه جوبه بنيران حامية من ثوار البلدة فقد استطاع أن يدخلها فيخرج معه بعد ذلك نصف قوة الشرطة التي

كانت مرابطة في الداخل بعد أن قتل اثنان من المجموع والتجأ الباقون إلى دار السيد مهدي السيد سلمان.

وتزعم (المس بيل) أن الرأي العام في بغداد وكربلاء والحلة والكاظمية قد أجمع على استنكار ما قام به أولئك الثوار في النجف. وبقيت العشائر كلها محافظة على الهدوء عدا شيخين صغيرين معروفين بتمردهما على القوانين[1] كانا مشتركين بالمؤامرة كما ظهر فيما بعد. غير أنه ليس هناك شك بأن العشائر كانت كلها ترمق النجف باهتمام، وأن أي تدابير فعالة كانت ستتخذ ضد المدينة المقدسة كانت ستثير شيئاً لا يستهان به من النقمة والغضب. لكن الخطر الرئيسي في رأي (المس بيل) كان ينطوي في عكس ذلك، لأن التقصير في الاقتصاص من قتلة ضابط بريطاني كان سيضع أرواح جميع زملائه تحت رحمة أناس مثل الحاج سعد الحاج راضي الذين كان يحرضهم الذهب التركي. ولا أدري كيف توفق (المس بيل) بين قولها هذا وبين اعتماد الإنكليز على الحاج سعد وزملائه في تمشية أمور البلد عند انسحاب الترك منها.

فبادر القائد العام لقوات الاحتلال البريطاني في العراق، الجنرال (مارشال)، إلى العمل السريع الحاسم على حد تعبير ويلسن فقد سيق إلى النجف في الحال لواء كامل من الجيش البريطاني فحاصرها بقيادة الجنرال (ساندرز) حصاراً تاماً.

ثم أعلنت على الملأ الشروط المؤدية إلى رفع الحصار عنها. وكانت الشروط كالآتي:

١ ـ تسليم المحرضين على مهاجمة الكابتن مارشال والمشتركين في قتله من دون قيد أو شرط.

٢ ـ دفع غرامة عينية من السلاح قدرها ألف بندقية.

٣ ـ دفع غرامة نقدية خمسون ألف روبية.

٤ ـ نفي مئة شخص إلى الهند واعتبارهم أسرى حرب.

---

(١) المقصود بالشيخين هما رئيسا قبيلة الحواتم سلمان الفاضل ودرويش.

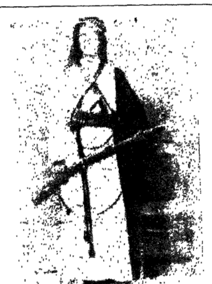
٥ ـ وإلى أن تنفذ هذه الشروط بحذافيرها تحاصر البلدة حصاراً تاماً، ويقطع الماء والطعام عنها.

ويضيف (أرنولد ويلسن) إلى هذا القول أن العلماء الشيعة في إيران والعراق كله قد اتصلوا بأقرب الموظفين البريطانيين إليهم وأبدوا لهم خوفهم من النقمة والسخط العام على هذه التدابير. وعبرت الحكومة الإيرانية نفسها للوزير البريطاني المفوض لديها عن مخاوفها من أن تؤدي أخبار هذه الحركة إلى قيام رجال الدين في بلادها بما يتكون من نتيجة وضع خطر في البلاد ثم وصلت إلى القائد العام برقيات، من حكومة الهند في كلكتا ووزارة الهند في لندن، تدل على التخوف الذي كان يساور المسؤولين مما قد تؤدي إليه مثل هذه التدابير الحاسمة.

وفي اليوم السابع من نيسان احتل الجيش أكوام التراب المجاورة لمحلة الحويش، لأنها كانت تسيطر على البلدة سيطرة تامة، وأخلي من بقي من الموظفين في داخل البلدة عنها. وفي خلال الأيام القلائل التالية استولى الجنود على جميع الحصون التي كانت موجودة في السور. وفي أثناء سير هذه الحركات لم تطلق إطلاقة واحدة على البلدة نفسها كما يؤكد السر (أرنولد ويلسن) و (المس بيل) في كتابيهما، وحوفظ على علاقات ودية مستديمة مع المجتهد الأكبر السيد كاظم اليزدي.

وفي العاشر من نيسان ١٩١٨ بدأ استسلام القتلة (كما يزعم) والرجال الذين أدخلت أسماؤهم في قائمة المشتبه بهم. ولم يحل اليوم الأول من مارس حتى كان (١٠٢) من مجموع (١١٠) أشخاص في قبضة الجيش المحاصر وهوجم الحاج عطية من قبل عنزة الموالين للإنكليز فسلم نفسه في السماوة قبل نهاية نيسان، وفي ٤ مارس رفع الحصار عن النجف. ثم عين ضباط ثلاثة من ذوي الكفاءة والأهلية لمحاكمة القتلة، وجرت المحاكمة باللغة العربية كما تزعم (المس بيل) فحكم على ثلاث عشر شخصاً بالإعدام[1]، وأبدل القائد العام الحكم على أحدهم إلى السجن المؤبد. كما

(١) ويعتبر عباس الخليلي الثائر الوحيد الذي نجا من الإعدام وقد نجا بأعجوبة، إذ فر متستراً في ألبسة نسوية وعبر حدود العراق إلى إيران ولا يزال لليوم هناك. وقد كان سكرتير حزب (النهضة الإسلامية) السري الذي قام بهذه الثورة.



حكم على خمسة بالسجن المؤبد كذلك، وعلى اثنين بالسجن لمدة أقصر، يضاف إلى ذلك أن مئة شخص مشتبه بهم سُفِّروا إلى الهند كأسرى حرب. وتم تنفيذ حكم الإعدام بحق المحكوم عليهم في الكوفة في اليوم الثلاثين من مارس.

عباس الخليلي في أول معركة من معارك الاستقلال وقد حكم عليه بالإعدام غيابياً

ومما تذكره المس بيل أن اجتماعاً قد عقد بعد ظهر اليوم نفسه في دار كليدار النجف، قدمت فيه إلى الحاكم السياسي الكابتن بلفور جماعة وقالت أنها تمثل رجال الدين والأهالي وشيوخ المحلات «سيف شرف» على سبيل الهديه[1].

وبعد عشرة أيام قام القائد العام بزيارة رسمية للبلدة فذبحت له الذبائح عند دخوله من بابها بصورة لم يسبق لها مثيل منذ زيارة ناصر الدين شاه ملك إيران، ثم جرت حفلة استقبال في بيت الكليدار حضرها العلماء والوجوه والشيوخ على ما تزعم (المس بيل) وفي الخطاب الذي ألقاه القائد العام بهذه المناسبة أوعز الحاكم السياسي بتأسيس دائرة «بلدية» تتولى شؤون البلد وتنظيمه، ووعد بالعمل على تحسين مياه الشرب. وقد حضر هذه الحفلة السر (أرنولد ويلسن) نفسه كذلك. وهو يقول في كتابه أن الكليدار تكلم فيها مبدياً ارتياحه وارتياح الناس المتناهي لإنقاذهم من أيدي «الأشرار». وحينما قدم السيف للكابتن بلفور الحاكم السياسي ناشده أن يدافع به عن حرية البلدة وسكانها في المستقبل كما فعل في السابق. ويذكر ويلسن كذلك أن الكليدار قدم له هو أيضاً خاتماً فخماً من الذهب ومفتاحاً من الفضة.

والمعروف بين المطلعين من الناس، وفي بعض المراجع المحلية، أن الذين تم

(١) ورجال الدين هؤلاء هم الذين سماهم الناس بعلماء الحفيز (الأوفيس) تمييزاً عن رجال الدين الاخرين كما مرت الإشارة إليه قبلاً.

تنفيـذ حكم الإعدام فيهم هم: كـريم، وأحمـد، ومحسن، أولاد الحـاج سعـد الحـاج راضي، ورابعهـم عبـدهم سعيد، وعبـاس علي الـرمـاحي، وعلوان عـلي الـرمـاحي، وكاظم صبي، وجودي ناجي، ومجيد بن مهدي الحاج دعيبـل، والحاج نجم، ومحسن أبو غنيم. أما المنفيون من أهل النجف فقد كان من بينهم الشيخ محمد جواد الجزائري والسيـد محمد عـلي بحر العلوم، وسعـد الحاج راضي والحـاج عطيـة أبـو كلل وأولاده وأقاربه. وقد تدخل الشيخ خزعل شيخ المحمرة بـأمر الشيـخ الجزائـري والسيد بحـر العلوم فأعفيا من النفي وأقاما في المحمرة برعايته.

ولا شك أن معظم العـراقيين، والنجفيـين خاصـة، يعتقدون أن ثـورة النجف هـذه كانت حـركة وطنيـة مهدت الأمـور لاندلاع نـيران الثورة العـراقية المعـروفـة في ١٩٢٠، التي استحصلت للعراق استقلاله وحكمه الوطني. وهذا كـما لا يخفى مغايـر لبعض ما يفهم من لهجة (المس بيـل)، و (أرنولـد ويلسن)، وغيرهمـا بطبيعـة الحال. وتكاد المس بيل تعترف فيها كتبته بأن هذه الثورة كانت مقدمة لثورة العشرين المعروفة، ولكن بلهجتها المعهودة. فهي تقول بعد سرد الحـوادث المذكـورة أن كربـلاء والنجف بقيتـا تكوّنـان قنبلة مزدوجـة للفوران السيـاسي الذي كـانت تسهل إثـارته بـرد الفعل للحوادث التي تقع في إيـران أو بما يحـدث من الأحداث في العـراق نفسه. ثم تضيف إلى ذلك قولها: ولم تعر القبائل المجاورة التي كانت مشغـولة بزراعتها التفاتـاً لما وقـع، برغم أنه في شتاء ١٩١٨ ـ ١٩١٩ دبر المجتهدون المتحركون إثارة بعضها كما سيـذكر فيها بعد. بالإضافة إلى قولها الذي أشرنا إليه من قبل واعترافها بكون هـذه الثورة ربمـا كانت تكون ذات قيمة لو جاءت في وقتها المناسب إذ تقول عن ثـورة النجف «.. إن الانفجار الذي وقع في النجف كان من المحتمل أن يكون قـد حصل قبـل أوانه ـ أي قبل أن توضع الخطة وضعاً تاماً له».

وحدة الصف الوطني

والظاهر أن إجراء الاستفتاء العام في هذه المنطقة، ومحاولة الإنكليز الحصول على نتائج مصطنعة تتفق وأغراضهم الاستعمارية، كان نقطة الانطلاق التي بدأت منها الحركة الوطنية في بغداد والنجف، وغيرهما من معاقل النضال ضد الاحتلال البريطاني الغاشم، بالانتشار والتوسع. وكانت أولى ثمار هذه الحركة اتفاق الكلمة بين السنّة والشيعة في جميع أنحاء العراق على العمل المشترك ضد السلطات المحتلة، والسعي للحصول على الاستقلال التام للبلاد وتكوين حكومة وطنية فيها ومما يرويه المستر (فيليب آيرلاند) في كتابه المشار إليه أن هذا «التحالف قد ظهرت أولى بوادره في صيف ١٩١٩ حينما حضر رجال السنّة الحفلتين التأبينيتين اللتين أقيمتا بمناسبة وفاة المجتهد الشيعي الأكبر «السيد محمد كاظم اليزدي». ويذكر كذلك أن «الهوة» التي كانت تفصل بين الطائفتين قد ملئت بفضل الجهود الحثيثة التي بذلها الزعماء الوطنيون، ومن أبرزهم الزعيمان الشيعيان السيد محمد الصدر، وجعفر أبو التمن. ثم ينتهي إلى القول بأن التوافق الذي حصل بين الطائفتين قد وسع مجال العمل للحركة الوطنية وزاد في قوتها، فأدى ذلك إلى أن تنطوي تحت لوائها العشائر الشيعية والجماهير التي تقطن المدن والأرياف التي كان تعصبها يتعالى ويخمد بمشيئة رجال الدين التي تكاد تكون غير محدودة عليهم. . وقد وجد الوطنيون في المدن المقدسة وبغداد أن المناطق التي تقطنها قبائل الفرات الأوسط والأسفل، وهي شيعية في الغالب، كانت أخصب تربة يبذرون فيها بذور دعاياتهم السياسية ـ الدينية، بالإضافة إلى الدعاية التي كانت تبث بين قبائل بني تميم والعزة والقبائل المحيطة ببغداد وبعقوبة[١].

(١) الص ١٨٩، آيرلاند الترجمة العربية ١٩٤٩.

وهكذا تقدم سير الحركة الوطنية في البلاد، وتعـاظمت شعلتها المتـوسعة، حتى تهيأ الجو لانـدلاع نيران الثـورة العراقيـة المعروفـة في ٣٠ حزيـران ١٩٢٠. وقد كـان للنجف القـدح المعلى في تهيئـة الظروف للثـورة بطبيعـة الحال، بـالنظر للنفـوذ الـديني والاجتماعي الذي كانت تتمتع به ما بين القبائـل الفراتيـة التي قدحت في زنادها، ولما كان يتوفر فيها من نخبة ممتازة من الشباب المثقف الذي كان يدرك معنى الوطنية الحقة والاستقلال التام تمام الإدراك ونظراً لأن العلماء الاعلام كانوا في مقدمة المكافحـين من أجل الاستقلال التام للبلاد، والمناضلين ضد التسلط الأجنبي الغـاشم، فإننـا نجد في كتابات عدد غير يسير من الإنكليز وغيرهم أنهم يحاولون الحط من قيمة الثورة وجعلها مدفوعـة بدوافـع ليس فيها غـير التعصب الديني الضيق. غـير أني لاحظت أن المسـتر (فيليب آيرلاند) (الأميركي) يعلل هذه النقطة تعليلاً بارعاً ويجلوها بأحسن وجه. فهو يقول إنه ليس من المستغرب أن نرى في بلاد توجد فيها الاختلافات الدينية والـطائفية بجانب الاختلافات العنصرية والقومية، ويطغى فيها التعصب الديني، ويفتقر وضعها العام إلى إحلال الولاء للدولة في محل الانقياد للسلطة الدينية، بأن تكتسب الوطنيـة، التي نشأت كحركة سياسية يؤازرها الناس من مختلف الطبقـات، صبغة دينيـة فتحظى بتعضيد الطبقة الروحانية ورجال الدين. فقد تذكـر رجال الـدين بأن الأمجـاد العربيـة الغابرة في دمشق ومصر وشمالي أفريقية وفي مدينة العباسيين العتيدة قد بلغت أوجها في الأيـام التي كان يسـود فيها الإسـلام، وعنـدمـا كـان الخليفـة رئيسـاً للدولـة وحـامياً للمسلمـين. ولذلـك فإن الـوطنيـة كـانت تعني في عـرفهم، ولا سيما في عـرف علماء الشيعة، تأسيس دولة إسلامية من جديد يكون للطبقـة الروحـانية فيهـا مركـز شرعي مسيطر. ويعني ذلك بـلا ريب وجود دولـة متحررة من رق التـأثيرات الغـربية الملوثـة، ومطهرة من رجس الميول والاتجاهات العلمانية. والواقع أن تقارب الاستقلال السياسي والديني، وتعاون السياسيين مع زعماء الـدين، كانـا يشبهان التـوافق الذي جـرى بعد الحرب بين الطائفتين السنيّة والشيعيّة. ومعنى هذا بوجه عام توحيد النواحي السياسية والدينية من الحركة الوطنية في عمل واحد[١].

أما أرنولـد ويلسن، وكيل الحـاكم الملكي العام الـذي يعتبر المسؤول الأول عن

---

(١) الص ١٨٨ من المرجع السابق.

التصرفات الشائنة التي أدت إلى الثورة، فيعاكس ذلك ويقول إن رجال الدين في النجف وكربلاء والكاظمية كانوا باستثناء البعض منهم يقاومون علناً تشكيل حكومة دنيوية منظمة من أي نوع كان على الرغم من ازدياد وارداتهم ازدياداً كبيراً بعودة الزوار إلى التوارد على العتبات المقدسة من جميع أنحاء العراق وإيران بمقياس لم يسبق له مثيل من قبل. فقد بلغ عدد الزوار الذين زاروا النجف وكربلاء في يوم العيد الأضحى (١٩٢٠) حوالي الخمسين ألف[1].

ولا شك أن ما يقصده ويلسن بالحكومة الدنيوية الحكومة التي يريد تشكيلها هو بإشرافه وإشراف زملائه تأميناً لمصالح بريطانيا الاستعمارية في البلاد. هذا وهو يستبعد على العلماء الأعلام الاهتمام بشؤون البلاد وسكانها، والتمسك بالروح الوطنية التي يقف منها الدين الحنيف موقفاً مشجعاً، وكأن كل ما يجب أن يهتموا به في نظره هو ازدياد الواردات وجمع الثروة والنظر إلى الأمور بالمنظار المادي وحده.

(١) الص ٢٥٣ من كتاب ويلسن ج ١.

نذر الثورة

إن جميع المراجع المذكورة تشير إلى أن زعماء الحركة الوطنية في النجف الأشرف والفرات الأوسط كانوا على اتصال بأقطاب الحركة «الشريفية» التي نشطت للعمل بعد تنصيب الملك فيصل على رأس الدولة العربية في سورية. وقد كان معظم هؤلاء من الضباط العراقيين الذين حاربوا في صفوف الجيش العربي الذي تشكل في الحجاز بعد إعلان الثورة العربية في ٩ شعبان ١٩١٦. فيقول (المستر آيرلاند) إن سلسلة من الرسائل مؤرخة في ٢٣ رجب (١٢ نيسان ١٩٢٠) ومعنونة إلى ملك سورية (فيصل) وملك العراق (عبدالله) وقعت في أيدي السلطات البريطانية يومذاك. وكانت تنطوي على تهنئة للأميرين على انتخابهما، وترحيب (بعبدالله) من رعاياه الموالين. وقد كان الموقعون عليها شيوخ وسادة الشامية والسماوة والرميثة (بني حجيم) وقبائل المنتفك، ووجهاء وسادة النجف والكوفة والحلة. ثم ينهي الموضوع بقوله إن كل واحد من الموقعين، إلا اثنين منهم، كان ممن قاموا بدور رئيسي في ثورة ١٩٢٠[٢]. ولا يخفى أن ذكر (عبدالله ملك العراق) يشير إلى قيام الضباط العراقيين، الذين اشتركوا في حملة فيصل بن الحسين على سورية، بإعلان عبدالله في الشام ملكاً على العراق بعد آن نودي بأخيه فيصل ملكاً في سورية.

أما المس بيل فتقول في هذا الشأن أن أول تأثير للدعاية الشريفية المنبثة من سورية وبغداد قد ظهر في منطقة الشامية، حيث يكون تأثير المدن المقدسة الديني على أشده... وأن الشعور بعدم الاستقرار هناك قد أدى إلى استقالة أعضاء المجلس المحلي الذي تشكل حديثاً. ثم تقول إن العنصر الديني الشيعي في المدن المقدسة كان

---

(١) آيرلاند الص ٢٠١.

منهمكاً في حبك الدساس قبل أن تبدأ الحركات والقلاقل العلنية في بغداد. وأن وفاة (السيد كاظم اليزدي) قد أدت إلى انتقال السلطة الدينية في العالم الشيعي إلى أيدي الميرزا محمد تقي الشيرازي المتقدم في السن الذي كان يصرّف أموره في جميع الشؤون ابنه الميرزا محمد رضا. وكان هذا الابن رجلاً سياسياً فعالاً لا يستقر على حال... ثم تعدد الحوادث التي كانت تعتبر نذراً لوقوع الثورة فتقول في جملة ما تقوله عن ذلك أن الحاكم السياسي في الديوانية كتب في أحد تقاريره أن جثة أحد أفراد الشبانة لم يسمح بدفنها في النجف على الأصول الشيعية المعروفة، وأن الاستقالات من خدمة الحكومة أخذت تزداد يوماً بعد يوم. وبعد أن نودي بملكية الأمير عبدالله في دمشق في اليوم التاسع من مارس ١٩٢٠ طلب إلى شيوخ جميع القبائل أن توقع على وثيقة يطلب فيها منه أن يتوجه لتسلم مملكته.

ولا شك أن (المس بيل) كانت في وضع يمكنها من الإحاطة بجميع ما يحدث، ولا سيما في المدن المقدسة التي كانت توليها عناية خاصة وترقب سير الأمور فيها بعين بصيرة. وكثيراً ما كانت تزور النجف على الأخص وتتفقد الأحوال والاتجاهات فيها لتكون الاستخبارات التي تجمعها كاملة عندها من جميع الوجوه. فقد زارتها في الأيام الأخيرة من سنة ١٩١٩ قادمة من منطقة الشامية مع الحاكم السياسي (نوربري ومعاونه الكابتن مان). ولذلك نجدها تكتب عن النجف في رسالتها[١] المؤرخة في ٤ كانون الثاني ١٩٢٠ بأنها فرحت لأن منزلتها في هذه المدينة المقدسة أصبحت تعلو ويزداد شأنها. فقد كانت من قبل لا يمكنها أن تواجه المجتهدين ورجال الدين الكبار على حد تعبيرها ولا تطمع في ذلك، لأنهم لا يجيزون أن تقع عيونهم على امرأة سافرة. غير أنها في هذه المرة استطاعت أن تواجه مجتهداً من الصنف الأول كما تزعم، وكان من العلماء العرب لا الإيرانيين، بعد أن طلب إليها من تلقاء نفسه أن تأتي إلى مقابلته. وهي تقول إن النجف مع كونها غامضة متعصبة فإن المرء ينجذب إليها انجذاباً غريباً يشوبه الإحجام، بجمالها وعمق غورها الذي لا يسبر.

(١) رسائل غيرترود بيل، The he Letters of Gertrude Bell Selected & Edited by Lady Bell, London.

النجف أيام الثورة العراقية سنة ١٩٢٠

حينما وقعت الواقعة الأولى من وقائع ثورة ١٩٢٠ في الرميثة يوم ٣٠ حزيران على أيدي الظوالم، نرى المستر (فيليب آيرلاند) يشير إلى أن القلاقل المحلية هذه هي التي أشعلت نيران الثورة الكبرى فحاصرت القبيلة بأجمعها حامية الرميثة ودوائرها الحكومية بإيعاز من النجف والكوفة. ويعطف على ذلك قوله في صفحة أخرى: وفي الثلاثين من تموز ظهر (السيد هادي المكوطر) في منطقة السماوة قادماً من النجف وركّز نفسه في الخضر، والمزعوم أنه كان مزوداً بمبالغ جسيمة من الذهب... وقد انضم إليه عدد آخر من السادة ورجال الدين وراحوا يبشرون في الغراف والشطرة والخضر بالجهاد الذي أعلن في كربلاء في السادس من آب[1]. ويستند (آيرلاند) في ذلك على تقرير الملازم (ب هيات) معاون الحاكم السياسي في الرميثة المؤرخ في ١٠ آب، وعلى مذكرة (الميجر ديلي) الحاكم السياسي في الديوانية التي قدمها إلى المراجع المختصة في ٢٦ آب حول نشوب القلاقل في الرميثة. أما (السر أرنولد ويلسن) فيؤيد تحريك الوطنيين في النجف (للظوالم) في الرميثة على الثورة، ويضيف إلى ذلك قوله أن الظوالم قد تشجعوا بالتطمينات التي بذلت لهم بأن شروط الانتداب كانت تحظّر على البريطانيين استعمال القوة العسكرية ضدهم، وأن جميع هذه القوات تقريباً كانت قد سحبت إلى الهند وإيران[2].

أما سير الحوادث في الكوفة والنجف نفسها فيذكر ويلسن أن الحاكم السياسي (الميجر نوربري) قد دبر تهدئة الحال فيها خلال أيام الثورة الأولى. وقد ساعده على

---

(١) آيرلاند، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٨.

(٢) ويلسن ص ٢٧٨، ج ٢.

ذلك أنه كان قد ادخر كثيراً من الأرزاق والأقوات التي حصل عليها محلياً، فساعد هذا السلطات العسكرية على حرية العمل والمحافظة على السكينة. كما يقول أن (الميجر نوربري) و (الكابتن مان) كانا محبوبين في المنطقة، وأن عشائر الشامية كانت قد بقيت هادئة لولا الانتكاسات التي أصيب بها الإنكليز في الحلة والرميثة والسماوة. ولا شك أنه يقصد من ذكره الحلة في هذا الشأن موقعة (الرارنجية) المشهورة. ثم يقول إن الأعمال التأديبية التي جرت في النجف على أثر مقتل الكابتن مارشال معاون الحاكم السياسي فيها كانت لا تزال تأثيراتها القمعية في الناس سارية المفعول. ولهذا قوبل اعتقال الميرزا محمد رضا[١] نجل المرزا الشيرازي في كربلاء يوم ٢٢ حزيران ببرود، وهدوء لم تكن تنتظره السلطات الإنكليزية نفسها من أهالي النجف. على أنه يذكر أيضاً أن الميجر (نوربري) دبر مقابلة لرؤساء (آل فتله) في مضيف الشيخ مجبل الفرعون في اليوم الأول من تموز ١٩٢٠ لتهدئتهم، لكن المقابلة لم تكن مثمرة على ما يقول وكانت مقرونة بتجمعات وحركات معادية من بعض الأشخاص.

وفي يوم ٥ تموز اجتمع (الكابتن مان) بالشيخ (مرزوق) شيخ (العوابد) المجاورة لأم البعرور (الشامية)، من دون أن يكون هذا الاجتماع مفيداً أيضاً. على أنه يذكر في هذه الأثناء قولاً للسيد علوان الياسري يعتقد أنه كان معبراً عن شعور الكثيرين في تلك الجهات فقد خاطبه السيد علوان قائلاً «لقد قدمتم الاستقلال لنا، ونحن لم نطلبه ولم نكن نحلم بشيء مثله حتى أدخلتم فكرته في رؤوسنا. وقد عشنا مئات السنين في حالة بعيدة جد البعد عنه، وحينما جئنا نطلب الاستقلال منكم الآن أخذتم تسوقوننا إلى السجون». ولا ندري ما هو نصيب هذه الرواية من الصحة!.

ثم يأتي ويلسن في كتابه[٢] على ذكر الحالة العشائرية بالتفصيل، ويتطرق إلى قيام شيوخ (آل فتلة) بالتأثير على عشائر بني حسن وآل شبل وجرهم إلى جانبهم بالمال، فقد تسلم منهم الشيخ علوان الحاج سعدون مبلغ ألف باون[٣] لكن الإنكليز

---

(١) تقول المس بيل في مذكرتها عن الحكم الذاتي في العراقي المشار إليه من قبل أن الشيخ محمد رضا الشيرازي هذا كان على اتصال وثيق بمشاغبي النجف.

(٢) ويلسن الص ٢٩٦، ج ٢.

(٣) ظهر فيما بعد من تصريح الحاج عبد الواحد الحاج سكر زعيم ال فتلة ومن تأكيد الشيخ عبد الكريم

بادروا إلى دفع ألفي باون إلى آل شبل بواسطة شيوخ الخزاعل ليحافظوا على السكينة. على أن كفة الثوار قد رجحت في الأخير بتدخل السيد (نور الياسري) بنفوذه العريض وثروته الطائلة فبدأت عشائر آل فتله محاصرة الكوفة في١٣ تموز، وتم احكام الحصار عليها في يوم ٢٠. ثم قتل (الكابتن مان) بعد يومين وهو يدافع عنها، ولم يرفع الحصار إلا في ١٧ تشرين الأول أي بعد مدة تناهز الثلاثة أشهر، ومما يرويه ويلسن عن هذا الحصار أن الحامية التي اضطرت إلى أكل الرز ولحم الخيل في الأسابيع الثلاثة الأخيرة من أيامه قتل منها خمسة وعشرون شخصاً وجرح سبعة وعشرون لأنها كانت تتعرض لقصف المدفعية من الثوار أحياناً، بواسطة المدفع (عيار ١٨) الذي غنموه من الإنكليز يوم ٢٤ تموز ١٩٢٠. وقد استطاع الثوار تدمير الزورق المسلح «فاير فلاي» الذي كان يعود للإنكليز بواسطة هذا المدفع أيضاً. ويثني كذلك على «الشبانة» الذين كان معظم جنود الحامية في الكوفة منهم، لأنهم صمدوا لضغط الثوار الحربي والمعنوي، واحتقار الناس وازدرائهم بهم. ثم يشير إلى منع الذين ماتوا منهم في خدمة الإدارة البريطانية من الدفن، وإجبار زوجاتهم في كثير من الأحيان على تركهم والعودة إلى آبائهم، واضطهاد أبنائهم وأقاربهم في الشوارع والطرقات. وقد لاذ علماء النجف الكبار، وعلى رأسهم المجتهد الأكبر السيد كاظم اليزدي، بالصمت الوجل كما يزعم[١] لكن رجال الدين الصغار شاركوا قادة الحركة الوطنية في تحريض الجماهير على الثورة، ومناشدتها باسم الدين والقومية العمل على استئصال شأفة الاحتلال العسكري والقضاء على آخر أثر من آثاره.

ومن أهم ما يذكره ويلسن[٢] عن النجف في هذا الشأن أنها، وهي كائنة على بعد أميال قليلة عن الكوفة، قد تجمع فيها حوالي مئة وسبعين أسيراً بريطانياً من أسرى الحرب، وكان حوالي ثمانين أسيراً منهم ينتمي إلى «كتيبة مانشستر». وكان هؤلاء قد تم أسرهم في يوم ٢٤ تموز، وورد أول خبر إلى السلطات البريطانية عن

الجزائري بأن جميع ما نسب إلى الشيخ علوان الحاج سعدون وأخيه الشيخ عمران الحاج سعدون لم يزد على إشاعات نسجتها الأغراض، (على هامش الثورة العراقية).

(١) لم يكن السيد كاظم اليزدي حياً في هذا الوقت من حصار الكوفة.

(٢) ويلسن الص ٢٩٨.

مصيرهم من حميد خان الذي كان قد تعين منذ شهر كانون الأول ١٩١٧ وكيلاً عن الإدارة البريطانية فيما بين النهرين في النجف. وهنا يعزو الفضل في المعاملة الحسنة التي عومل الأسرى بها إلى ما بذله حميد خان من جهود في سبيلهم. لأن حميد خان كما يروي بقي صامداً في النجف برغم تحذيرات أصدقائه وتهديد أعدائه. وقد أخبر السلطات البريطانية بأن الأسرى لم تعاملهم القبائل الثائرة معاملة حسنة، وأجبرتهم على السير على الأقدام من الكوفة إلى أبي صخير وهم حفاة عراة تقريباً. على أن قسماً منهم كان قد احتجز في النجف ثم نقل بعد ذلك إلى الخارج بالنظر للموقف العدائي الذي كان يقفه الأهلون منهم. ومع هذا فقد جُمعوا كلهم في النجف مرة ثانية، وهناك لم يدخر حميد خان وسعاً في السهر عليهم وتأمين راحتهم، واعداً وجوه البلد وأعيانه بالتعويض عن كل ما يصرفونه عليهم من مال ونقود بعد أن تستقر الأمور وتهدأ الأحوال. ومما يدل على المعاملة الحسنة التي عومل الأسرى بها على هذا الأساس الحالة الصحية الجيدة التي كانوا يتمتعون بها حينما تم إطلاق سراحهم فيما بعد، ولم يصب أحد منهم بسوء سوى موت أحدهم في أيام الأسر[١]. وهنا ينبري ويلسن لتنفيذ ما يذكره السر (أيلمر هولدين)[٢]، قائد القوات البريطانية في أثناء الثورة، في كتابه (الثورة العراقية) عن سوء معاملة العرب في العراق للأسرى الإنكليز. فهو يقول في ذلك أن العرب والأكراد لم تعرف عنهم حوادث قسوة وتمثيل تلفت النظر إلا حينما كان الأتراك يوجهونهم إلى ذلك. وهو يتذكر أن شيئاً ذا بال قد ورد من هذا القبيل في تقارير الاستخبارات التي مرت عليه[٣].

(١) في هذا الوقت الذي كان فيه أسراء الإنكليز في النجف ولا سيما في الشطر الأخير من أسرهم كان حميد خان سجيناً في طويريج وتحت رقابة الشيخ عمران الحاج سعدون، أما الإنفاق على الأسراء فقد تكلف به الزعيم الروحاني شيخ الشريعة وأناط أمر تكليفه بالحاج محسن شلاش الذي تولاه باسمه، وقد أسهم أهل النجف ـ بمقتضى فتوى (الشريعة) احتساب مثل هذه النفقات من الحقوق الشرعية ـ في مد هؤلاء الأسراء بشيء من البطيخ والخيار ـ وكان الفصل صيفاً ـ وبعض الفواكه كانوا يضعونها في صفائح من التنك فيجرها الأسراء إليهم إلى سطح (الشيلان) القلعة التي سجنوا فيها ـ زيادة على ما كانوا يتناولونه يومياً وبصورة رسمية من مصروفات الثورة.

(٢) Holdane, Sir Aylmer - The Insurrecton in Mesopotamia, London 1922.

(٣) ويلسن الص ٢٩٩، ج ٢.

تهدئة الأحوال

والملاحظ فيما يكتبه ويلسن عن الثورة تهجمه على العلماء ورجال الدين، والمرارة التي تتخلل سطوره تجاههم. وهذا شيء منتظر بطبيعة الحال، ويعد من قبل المدح لهم لأنه يبرهن على أنهم قاموا بواجبهم خير قيام في توعية الناس وتوجيههم في شؤون دنياهم ودينهم، وتحريرهم من السيطرة الأجنبية. وآخر ما نذكره هنا من أقواله هذه قوله «أن استفحال أمر العلماء، وتدخل رجال الدين في الشؤون العامة، قد استطاع الملوك المسلمون في إيران والعراق وتركية على السواء إيقافه عند حده في كثير من الأحوال والمناسبات خلال السنين الأخيرة (كتب الكتاب في ١٩٣١). وأن الفوضوية والتحريكات الدينية التي حصلت خلال أشهر الثورة العراقية قد بلغت حداً من الشدة والانتشار بحيث كان يمكن بوجودها أن تكتسح العراق عصابات المتعصبين الغلاة، التي لا يقل تطرفها عن تطرف الوهابيين الذين ظهروا في أواسط الجزيرة العربية، لو تهيأت لها شخصية قوية مثل شخصية (حمدان قرمط) الذي ظهر في الكوفة خلال القرن العاشر للميلاد»[1].

ولا شك أن الثورة العراقية هذه قد لقنت الإنكليز درساً قاسياً في حكم الشعوب ومعاملتهم، وكادت أن تخرج العراق من قبضة أيديهم لو تسنى لها أن تستقيم مدة أطول. لكنها انتهت بعد مدة تناهز بضعة شهور، ولم يكن بوسع الحكومة أن تأخذ ناحية الأمور بأيديها إلا في ربيع ١٩٢١ كما يقول (المستر آيرلاند). ويعقب على هذا بقوله أن النهاية ربما كانت قد حلت بأعجل مما وقع لو لم يصدر رجال الدين في النجف، المتصلبون في مناوءتهم للإنكليز، على أن تجري المفاوضات عن طريقهم

(١) ويلسن الص ٣٠١، ج ٢.

فقط. ومما يدل على تدخلهم هـذا ما لاحـظه الحكام السياسيون في منـاطق الديـوانية والمنتفك من وصول رسالتين إليهم، واحدة من الفرات الأوسط وأخـرى من الغراف، وقـد سبكت اثنتاهمـا بنفس الجمل وعـين اللغة. وكـان فيهما طلب بـوجـوب تـأسيس حكـومة دينيـة وفقاً لقـواعد المـذهب الشيعي كما يقـول الحاكم السيـاسي الـذي كتب التقرير الإداري عن المنتفك سنة ١٩١٩.

ويعود (المستر آيرلاند) فيقول في مناسبة أخرى أن مهمة تهدئة البلاد بعـد الثورة كـانت أهم مهمة في نـظر العراقيـين والموظفـين البريـطانيين معـاً. وأن السر (بـيرسي كوكس)(١) كان قد ترك فكرة تأديب العشائر بشدة، على أنه كان يعتقد اعتقاداً جـازماً بأنهم يجب أن يجبروا على الخضوع حتى إذا تطلب الأمر استعـمال القوة. ولـذلك وقف بعزم وصلابة، كما وقف من قبله ويلسن، في وجـه الطلبـات المتكررة التي كـانت تأتي من رؤسـاء الدين في النجف وكـربلاء بجعلهـم وسـطاء لدى القبـائل التي طلبت هي نفسهـا أن تكون المفـاوضات عن طـريق المجتهد الأكـبر الذي لا يلقـون السـلاح إلا بإشارة من عنده. ويذكر في الحاشية كذلك أن أهم الشيوخ الـذين طلبوا هـذا الطلب هـو عبد الـواحد الحـاج سكر ومـرزوق العواد. ثم ينهي المـوضوع بقـولـه: وبـرفض الاعـتراف بمطاليب رجـال الدين الشيعـة ضرب السر (بيرسي كـوكس) ضربتـه الأولى بالنيابة عن الحكومة الجديدة التي كانت قوة الحل والعقـد التي يتولاهـا العلماء بأيـديهم تكوّن عقبة كأداء في طريق تأسيسها. على أن نصف البلاد كانت في حالـة ثورة فعليـة حينما عاد كوكس(٢) لتهدئة الحال عـلى ما يقـول آيرلانـد. فقد كـانت في قبضة الثـوار كربلاء والنجف وطويريج والرميثة وهيت وقسم كبير من وادي الفـرات بما فيـه القسم الأوسط من خطوط السكك، فضلاً عن مناطق غيرها في أنحاء العراق الأخرى.

وحينما تألفت الحكومة الموقتة برآسة النقيب (السيد عبد الرحمن الكيلاني) في ١١ نشرين الثاني ١٩٢٠ عملت على تهدئة الأحـوال وإعادة الميـاه إلى مجاريهـا الطبيعيـة في

---

(١) آيرلاند الص ٢٢٤ من الترجمة العربية، ١٩٤٩.

(٢) الذي عاد إلى العراق بعد أن عينته الحكومة البريطانية في هذه المرة مندوباً سامياً مـزوداً بجميع السلطات في ١٧ حزيران ١٩٢٠.

البـلاد، فأعيـد الوطنيـون المنفيون ومنهم بعض النجفيـين، ووصل عـدد من الضباط العراقيين الذين كانوا في سورية. ثم قويت الدعاية لتنصيب أحد أنجال الشريف على رأس الدولة العراقية المقبلة، ورجحت كفة الأمير فيصل على أخيه عبدالله في الأوساط الإنكليزية والعراقية، ولا سيـما بعد أن حنثت فـرنسة بـالعهود فـزحفت جيوشهـا على سورية وقوضت ملكية فيصل فيها على الوجه المعروف.

مجيء الأمير فيصل

لقد وصل فيصل إلى البصرة في ٢٣ حزيران ١٩٢١، وبعد أسابيع ثلاثة نادى به مجلس الوزراء بالإجماع ملكاً على العراق. وحينما كان في طريقه إلى بغداد من البصرة مر بالمدن الفراتية المعروفة (بالقطار) ونزل في الحلة فاستقبل فيها استقبالاً حافلاً، ومنها توجه إلى النجف وفي صحبته (المستر كورنواليس) الذي جاء معه من الخارج و (المستر فيلبي) الذي ذهب من بغداد لاستقباله ممثلاً عن المندوب السامي. وقد جاء في كتاب المستر فيلبي[1] الموسوم (الأيام العربية) عن هذه السفرة قوله: وفي اليوم التالي أقلتنا السيارات إلى النجف لنكون ضيوفاً على رجال الدين الشيعة في تلك المدينة المتعصبة، حيث يرقد آدم وعلي تحت الطوق الأرضية العميقة ومن فوقها الضريحان السامقان. وهنا أيضاً كُرّمنا تكريماً ملكياً وبتنا ليلة واحدة. وقد ابتعدت أنا و (كورنواليس) عن فيصل بكل تبصر لنفسح المجال له بالتعامل مع المتعصبين بطريقته الخاصة هو إذ كان يتحتم عليه هنا على الأقل أن يبذل كل ما بوسعه ليفند الانطباع العام القائل بأنه مرشح الحكومة المسيحية للعرش[2]. لكن الدكتور (آيرلاند) يذكر عن سفرة فيصل هذه إلى النجف أن العلماء فيها كانوا متحفظين إذا لم يكونوا قد اتخذوا موقفاً عدائياً تجاهه[3].

وقد وصل الأمير فيصل إلى بغداد في ٢٩ حزيران متأثراً بعض التأثر من

---

(١) H. St. John Philby - Arabian Days, London 1948.
وقد ترجم كاتب هذه السطور الفصل المختص بالعراق منه ونشره باسم (أيام فيلبي في العراق) ١٩٥٠.

(٢) الص ٦٣ من الترجمة العربية.

آيرلاند الص ٢٥٧ من الترجمة العربية.

الاستقبال الفاتر الذي قوبل به في بعض المناطق الفراتية على حد تعبير المستر آيرلاند[١]. غير أن الحماس في الترحيب به كان معيداً للاطمئنان في العاصمة حيث حيّاه عند وصوله المندوب السامي وموظفوه وجمهور هائل من وجهاء العراقيين. كما أن الجماهير المحتشدة الهاتفة التي غصت بها العاصمة المزدانة بالألوان الشريفية، الأخضر، والأحمر، والأسود، والأبيض، كانت تعطي دليلاً إضافياً على أن المدينة قد قبلت به. وأن الاحتفال العظيم الذي قامت به الكاظمية كان احتفاء شائقاً يضاهي احتفاء بغداد به من قبل[٢]. ويعمد (آيرلاند) بعد ذلك إلى وصف السلوك الذي سلكه فيصل عند اتصاله بالناس فيقول: . . وإن وقاره البسيط وظرفه الشخصي وحديثه الفصيح، الصميمي المفعم بالحكمة، قد تضافر كله في أن يحصل له على ثقة الناس به وتأييد الطوائف التي كان يتصل بها كلها، أي المسيحية واليهودية والسنيَّة والشيعيَّة برغم أن استقباله في النجف وكربلاء كان استقبالاً مكبوتاً يلفت النظر[٣].

---

(١) كان المسؤول عن هذا الاستقبال الفاتر المستر فيلبي مستشار الداخلية يومذاك، لأنه كان يدعو إلى الجمهورية ويناوىء الملك حسيناً وأنجاله ولذلك أنهى عمله في العراق والتحق بآل سعود.

(٢) الص ٢٥٧ من الترجمة العربية.

(٣) آيرلاند الص ٢٥٨ من الترجمة العربية.

موقف النجف إلى ١٩٣٢

وإذا عدنا إلى مجرى الحوادث في العراق، وتقصينا ما أسهمت فيه النجف منها، نجد أن قيام الوزارة السعدونية، التي كان يحرضها الإنكليز، بمضايقة العلماء في النجف والكاظمية قد أدى إلى هجرة بعضهم إلى إيران ومنهم المرحومان العلامة النائيني، والحجة السيد أبو الحسن احتجاجاً على نفي العلامة المرحوم الشيخ مهدي الخالصي بسبب معارضته في إجراء الانتخابات للمجلس التأسيسي. وحينما استقالت الوزارة المذكورة على أثر ذلك، وتشكلت وزارة جعفر العسكري الأولى أراد الملك فيصل أن يسترضي الشيعة على ما يقول (آيرلاند) ولذلك نجد أن المستر (لونكريك) صاحب كتاب (أربعة قرون. . . .) يذكر في كتابه الآخر عن العراق الموسوم (العراق بين ١٩٠٠ ـ ١٩٥٠)[١] إن الملك فيصلاً زار النجف وكربلاء زيارة رسمية في كانون الأول ١٩٢٣، فلقيت زيارته إلى تلك المناطق نجاحاً باهراً. والظاهر انه ذهب إلى هناك ليمهد إلى إجراء الانتخابات وجمع المجلس التأسيسي الذي كانت مهمته التصديق على المعاهدة ووضع الدستور. وقد تم ذلك بالفعل في وجه معارضة قوية. ويقول المستر (لونكريك) في كتابه المشار إليه أن الوزارة العسكرية حينما استقالت بعد حل المجلس ألف الوزارة في ٢ آب ١٩٢٤ ياسين الهاشمي فأشغل وزارة المعارف في وزارته السياسي النجفي المثقف الشيخ محمد رضا الشبيبي[٢]. لكن المعروف أن الأستاذ الشبيبي استقال بعد عدة أشهر احتجاجاً على منح الوزارة الهاشمية امتياز النفط للشركة الإنكليزية بشروط مجحفة للعراق. ومما يذكره (لونكريك) عن هذه الفترة كذلك (١٩٢٤) أن الحالة في كردستان كانت غير مستقرة، بينما كان المسؤولون

---

(١) Iraq. 1900 - 1950, by Stephen Hemeley Longrigg, London 1953.

(٢) الص ١٥٢

في الحكومة البريطانية منهمكين في المفاوضة مع تركية حول قضية الموصل وإنهاء مشكلة الحدود بين البلدين. وقد عمد الشيخ محمود في تلك الأثناء إلى الاتصال بالأتراك والاستعانة ببعض ضباطهم الذين انضموا إليه في السليمانية، وإلى إيفاد أناس خاصين إلى كركوك لتحريض التركمان على مناصرته في حركته، وإلى النجف وكربلاء بطلب العون والمساعدة.

وقد كانت سنة ١٩٢٧ مفعمة بالنشاط العام الذي كانت تديره الأحزاب المعارضة النشطة، مثل حزب الشعب برئاسة ياسين الهاشمي والحزب الوطني الذي كان يرأسه جعفر أبو التمن وحزب النهضة برئاسة أمين الجرجفجي، في مقابل الحزب الممالىء للإنكليز الذي كان يرأسه عبد المحسن السعدون، وهو حزب التقدم. وقد أدى هذا النشاط إلى تخوف رئيس الوزراء جعفر العسكري من تقديم المعاهدة، التي عقدها مع الإنكليز في أواخر هذه السنة، على المجلس النيابي وقيامه بتقديم استقالته في أيام ١٩٢٨.

على أن المستر (لونكريك) يذكر عن هذه السنة في كتابه[١] الثاني عن العراق أنّها تتميز بثلاثة أمور ذات أهمية سياسية خاصة. أولها ظهور العنصر الشيعي، من دون دلائل مسبقة، كقوة سياسية على مسرح الحوادث في البلاد. وقد كان لا بد لهذه القوة من أن تظهر للوجود بعد أن زال عن الشيعة كابوس المضايقات التركية، وقل تأثير السلبية المزمنة التي كانت تتصف بها قيادة العلماء لهم في ١٩٢٣، وظهور طبقة منهم تطالب بالاشتراك في حياة البلاد العامة وهي لا تقل عن غيرها في الوطنية والثروة والذكاء بشيء. ولم تعد هذه الطبقة تكتفي بالأقلية الشحيحة التي تعيّن في الحكومة من أبنائها ولا بالكرسي الوزاري الوحيد المقنن لها. وكان بوسعها أن تعتمد في نشاطها السياسي هذا على طبقة مثقفة بدأت تأخذ بالنمو، وكتلة عشائرية قوية تتركز في الفرات الأوسط، ومجموعة غنية طموحة نهمة في الاستحواذ على الأراضي الزراعية والتوسع بها من سادة المنطقة وعلى ما بقي من نفوذ العلماء والمجتهدين في المدن المقدسة وهو شيء لا يستهان به.

---

(١) الص ١٧٧.

وفي هذا الجو المشحون بالانقسامات والاختلافات وقعت حادثة مؤسفة، في أوائل ١٩٢٧، كانت بداية مناسبة لسلسلة من الحوادث الأخرى التي كهربت الجو واستنفدت الكثير من جهد المسؤولين في الأوساط الوزارية. فقد نشر أحد المدرسين (يشير إلى كتاب النصولي عن تاريخ العرب) كتاباً اعتُبر منافياً للعقائد الشيعية، فانقسمت الأوساط السياسية في عشية وضحاها إلى فريقين متنابذين، وعقدت الاجتماعات الصاخبة في بغداد والنجف وسائر المدن المقدسة للمطالبة بحقوق الشيعة. ثم ظهر للوجود من جديد حزب النهضة، الذي لم يُعرف له نشاط ملموس منذ ١٩٢٢، بقيادة شيعية خالصة. وحينما عرضت الحكومة على المجلس النيابي «لائحة قانون الدفاع الوطني» في هذه الأثناء تضاعفت المعارضة الشيعية للحكومة بمناسبته. واستقال في الحال الوزير الذي يمثلهم في الوزارة السيد عبد المهدي، ثم انضم إليهم الأكراد خوفاً من التجنيد الإجباري الذي كان يتهددهم. فاستبدل السيد عبد المهدي بأمين زكي في المعارف، وعُين السيد علوان الياسري وزيراً للري والزراعة. على أن رئيس الوزراء عمد إلى تأجيل المجلس النيابي لينقذ وزارته، لكن هذا التدبير لم يؤد إلا إلى انتقال النشاط السياسي الرئيسي من بغداد إلى الفرات الأوسط. وقوطع وزير المالية حينما قام بجولة إلى النجف وما حولها، واستطاع الملك فيصل بكل ما عنده من سخاء ولباقة معالجة حادث وقع في الكاظمية في اليوم العاشر من محرم ما بين الجنود والمشتركين بالعزاء الحسيني المعتاد. ثم أخذ حزب النهضة يشنع بالوزيرين الشيعيين المشتركين في الوزارة ويندد بتعاونهما مع الحكومة، وعمد إلى تنظيم المظاهرات في النجف وكربلاء وكتابة المقالات الرنانة في صحفه، فأدى ذلك بياسين الهاشمي وكيل رئيس الوزراء إلى سدها. وحينما اعترضت المقامات العليا عليه قدم استقالته من الوزارة، وحذا حذوه رشيد عالي الكيلاني[١].

وحينما تشكلت الوزارة السعدونية الثالثة في ١٤ كانون الثاني ١٩٢٨ للعمل على تصديق معاهدة ١٩٢٧ وإمرارها من المجلس، بعد أن عقدها جعفر العسكري رئيس الوزارة السابقة مع الإنكليز، كان من بين أعضائها الصراف النجفي محسن شلاش على تعبير (لونكريك)[٢] ومما يذكر عن الحاج محسن في هذه الوزارة أنه كان مسؤولاً

---

(١) الص ١٧٨. (٢) الص ١٧٩.

عن عقد امتياز أصفر لاستثمار اللطيفية، حينما كان وزيراً للمالية من قبل. ولما كان هذا الامتياز مجحفاً للجانب العراقي تجاه الإنكليز أصحاب الامتياز، ومبنياً على أغلاط فنية غير يسيرة، فقد طلبت المعارضة (جلسة ١٧ أيلول في المجلس النيابي) حينما عرض على المجلس من قبل هذه الوزارة إقالته ورفع الحصانة عنه تمهيداً لسوقه إلى المحاكمة فلم ينفذ الطلب.

وبعد أن استقالت الوزارة السعدونية الثالثة في كانون الثاني ١٩٢٩ تألفت الوزارة التي تليها من بين أعضاء حزب التقدم أيضاً برئاسة توفيق السويدي، فبقي فيها الحاج محسن شلاش في منصبه أيضاً على ما ذكر (لونكريك) وآخر ما يورد هذا المؤلف كذلك عن الحاج محسن اشتراكه في وزارة نوري السعيد السابعة في تشرين الأول سنة ١٩٤٢ وإشغاله منصب الوزير في وزارة الاقتصاد، وهنا يسميه بالتاجر النجفي.

تثمين في نهاية عهد الانتداب

ويتطرق المستر (لونكريك) في نهاية الفترة التي انتهت بدخول العراق إلى عصبة الأمم في ١٩٣٢ إلى تثمين عام للتقدم الذي حصل في العراق، فيذكر في جملة ما يعدده في هذا الشأن أن محاولات وتجارب أُجريت في الأشهر الأخيرة من هذه الفترة لفتح طريق النجف إلى المدينة. ثم يعاود ذكر هذه النقطة بعد ذلك ويقول إن السير في طريق النجف ـ المدينة قد ازداد وتوسعت أهميته في ١٩٣٥ ـ ٣٧[١]. ويذكر في مناسبة أخرى كذلك أن الحجاج ظلوا يسافرون من النجف إلى البلاد المقدسة عبر البلاد النجدية سنة ١٩٣٧.

وحينما يستطرد في تثمينه للحالة الاجتماعية والسياسية التي كانت تسود العراق في ذلك التاريخ (١٩٣٢) يأتي على ذكر الطوائف والطبقات الدينية، ويتعرض على غير عادته في المؤلفات الأخرى إلى النجف وتأثيراتها الدينية وغير الدينية على الوضع العام في البلاد، وكأنه يأبى إلا أن يبرهن على مشاركته لزملائه الإنكليز الآخرين الذين كانوا يسيّرون العراق يوم نشبت الثورة العراقية في موتوريتهم من النجف وعلمائها واستغلالهم للنعرات الطائفية المقيتة في كل فرصة أو مناسبة. فيبدأ بالقول أن إدارة أمة من الأمم، وصلاح أحوالهم السياسية، لا يتفقان مع وجود ثقافات وحضارات مختلفة متباعدة بين طبقات السكان، أو قنوع الولاء، أو مستويات متباعدة في التطور الاجتماعي. لكن العراق فيه أقليات غير مندمجة في أكثرية السكان، وتباين بارز في تطور الطبقات الاجتماعية ومستوياته ثم يتعرض إلى وجود الأكراد وأوضاعهم، ووجود الآثوريين واليزيديين والإيرانيين وما أشبه وبقائهم محافظين على كياناتهم المتباينة. كما يشير إلى

(١) الص ٢٠٨ و ٢٥٨.

الاختلافات الموجودة بين الطوائف المسيحية المختلفة ويخلص منها إلى القول بأن اختلافاتها لا يمكن أن تقارن[1] بالاختلاف التاريخي العميق الموجود بين السنّة والشيعة الذي كان أبداً ودوماً وما زال يفرق الوحدة السياسية في البلاد ويملؤها مرارة وانشقاقاً. ولئن أصبحت القيادة الشيعية في ١٩٣٢ وما بعدها أقل تعصباً وابتعاداً عن العراق، فإن علماء النجف ظلوا يحتفظون بالكثير من السلطة والنفوذ وبقيت الشيعية هي القوة الموحدة لكتلة كبيرة من السكان دائمة التذمر والهياج، والفكرة التي تسمو على ولاء العشائر وإخلاصهم. وكثيراً ما كانت الشيعية في الفرات، وهي تقترن بالابتعاد عن المركزية القريب من الفوضوية، منبعاً رئيسياً لمشاكل الحكومة ومصاعبها.

وفي معرض البحث عن وزارة رشيد عالي الكيلاني التي تشكلت في ٢٠ .مارس ١٩٣٣، على أثر استقالة وزارة ناجي شوكت الضعيفة، وما قوبلت به في الأوساط السياسية، يقول إن الحكومة الجديدة قوبلت بالترحاب لأنها اعتُبرت ممثلة للاخاء الوطني في البلاد. لكنها سرعان ما خسرت مؤازرة الوطنيين لأن منهاجها لم يتضمن شيئاً عن إعادة النظر بنصوص المعاهدة الجديدة التي عقدها نوري السعيد مع بريطانيا العظمى في ١٩٣٢. ولذلك أذاع أولئك الوطنيون بياناً في حزيران يهاجمون فيه الوزارة، وظهرت للحكومة دلائل على أن هذا السخط في محافل النجف والفرات الأوسط المخطرة يمكن أن يكتسب طابعاً طائفياً، وبالتأكيد على المطاليب الشيعية يمكن أن يعد خطراً على الأمن العام. وبذلك نشأ في البلاد من جديد وضع يريد فيه عنصر واحد من العناصر السياسية في الدولة إجبار حكومة وطنية مؤتلفة على تلبية مطاليبه[2]. على أن موقف الوزارة الاخائية هذه قد أنقذ بوقوع حركة الآثوريين في الشمال، ووقوف البلاد بسببها صفاً واحداً وراء الحكومة. لكنها سقطت بوفاة الملك فيصل الأول في أيلول ١٩٣٣.

---

(١) الص ٢٢٢. (٢) الص ٢٣٠.

النجف في عهد الملك غازي

وبعد أن يأتي المستر (لونكريك) على وصف ما حصل في الوزارات المختلفة التي تولت الحكم في عهد الـملك غازي، يشير إلى كيفية انتهاز علي جَوْدَت فرصة وجـوده في الـديوان الملكي وتسلمه رئاسة الوزارة في ٢٨ آب ١٩٣٤. ويتـطرق إلى قيامـه بحـل المجلس النيابي وإتيانه بمجلس جديد محشو بمرشحيه وأصحابه، خـال من الشخصيات التي تنطق باسم العشائر، ولا يمثل فيه الشيعة تمثيلاً عادلاً. وعلى هذا الأساس نشطت المعارضة والعناصر المناوئة للوزارة إلى مهاجمتهـا وبث الدعـاية السيئـة ضدهـا. ويقول المسـتر (لونكـريك) إن الـدعايـة كانت مـوجهة إلى الأكـراد في الشمال، والقبـائل التي تسيطر عليها (النجف) بصورة اعتيادية في الفرات، حيث يـوجد الشيـوخ السياسيـون من أمثـال شيخ آل فتلة عبـد الواحـد الحاج سكـر الذي كـان من غير المعقـول عـدم انتخابه للمجلس النيابي. وقد كـان مع عبـد الواحـد رجال من مثـل السيد محسن أبي طبيخ، وعلوان الياسري وغيرهما. على أن طائفة أخرى من الشيـوخ لم تكن أقل منهـا حركة وتمرداً، ولا أقل اندفاعاً للمطالبة «بحقوق الشيعة» أخذت تتقـرب إلى الحكومـة وتنشـد الحصول عـلى المنافـع منها. ومن دون القيـام بحركـات عنف صريحـة أخـذت عشائر الـديوانيـة والحلة تعقد الاجتـماعات، و «تهـوس الهوسـات»، وتتجاهـر بحمل السلاح. ثم جرت اتصـالات بعلماء النجف، ولا سيما بـالشيخ محمـد حسين كـاشف الغطاء العلامة العربي الأكبر على حد قوله، لتوحيد الكلمة. ومـع جميع الـبرقيات التي قدمت إلى الملك، والمثول بين يديه في كانـون الثاني ١٩٣٥، لم تحصـل أية نتيجـة وقد جاهد علي جَوْدَت في إعادة الأمور إلى نصابها من جميع الوجـوه، لكنه لم يفلح في البقـاء في الحكم واستقال في ٢٣ شباط ١٩٣٥.

وقد بذلت الجهود لتشكيل وزارة إخائية، من دون حل المجلس الذي جاء به علي جَوْدَت، فلم تثمر شيئاً. ولذلك شكل جميل المدفعي وزارة جديدة، غير أنه لم يحظ بالتأييد الشعبي ولا بمؤازرة الملك ولم يستطع حل أية مشكلة من المشاكل وإنما نشط العلامة الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء إلى العمل مع شيوخ العشائر اللائذين به فاستطاع تنظيم قائمة غير معتدلة بمطاليب الشيعة تحمل العشرات والمئات من التواقيع. وفي الأخير اضطر المدفعي إلى تقديم استقالته بعد أن لم تستقم وزارته في الحكم أكثر من ثلاثة عشر يوماً لا غير. وعند ذاك تألفت وزارة إخائية برئاسة ياسين الهاشمي، في ١٧ مارت ١٩٣٥، من دون قيد أو شرط، وكان ممن اشترك فيها الوزير النجفي المعروف الأستاذ محمد رضا الشبيبي.

ومع أن تشكيل الوزارة الإخائية قد أرضى عبد الواحد الحاج سكر وجماعته الذين عادوا إلى حالتهم الاعتيادية، فإنها أقلقت مناوئيه من الشيوخ من أمثال (خوام العبد العباس) وجماعته. فألح هؤلاء الشيوخ على الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، وأكثروا ترددهم على النجف التي صار يتسرب إليها الدس السياسي من بغداد أيضاً، حتى تكهرب الجو في الفرات الأوسط معظمه. ويقول المستر (لونكريك) إن الوضع في النجف وما يحيط بها صار يذكر المرء بالوضع الذي كان سائداً فيها قبيل ثورة ١٩٢٠، حينما استثيرت الدعاية ضد الإنكليز، وإن تاريخ المناطق الفراتية تلك في ١٩٣٥و ١٩٣٦ يعتبر تكراراً بنطاق أضيق لتاريخها في سنة ١٩٢٠ نفسها. فلم تجد الحكومة بداً من الالتجاء إلى الحزم والقوة، فسيقت القطعات إلى الفرات الأوسط ورابطت مفرزة من الجيش في النجف بالذات بعد أن استعانت الحكومة بالشيخ محمد حسين في بذل ما عنده من نفوذ لتهدئة الحال فلم يتوفق[1] في مسعاه. ولذلك اصطدم الجيش الذي كان يقوده بكر صدقي بالشيخ خوام فقضى على الحركة التي كان يتزعمها بسهولة[2].

(١) والمشهور أن الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء كان على خلاف شديد في ذلك الوقت مع حكومة الهاشمي فليس من المعقول أن يكلف بتهدئة الأحوال.

(٢) كان الشيخ خوام ينفذ أمر الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء في حركته المشار إليها هنا.

موقف النجف من حركات العشائر ١٩٣٥

على أن التطورات السياسية التي وقعت في العراق خلال هذه الفترة، وكان مسرحها النجف وسائر أنحاء الفرات الأوسط والجنوبي، فأدت إلى ثورة ١٩٣٥ يحللها الكابتن (ا. د. ماكدونالد) ضابط الاستخبارات البريطاني المسؤول في تلك الأيام تحليلاً يلقي ضوءاً غير يسير على مجريات الأحوال يومذاك برغم تفسيراته الخاصة التي تعبر عن وجهة النظر البريطانية المعروفة. فقد ألقى محاضرة عن الموضوع[١] في الجمعية الآسيوية الملكية في لندن يوم ٢ تشرين الأول ١٩٣٥، ونشرت بتفصيلاتها في عدد كانون الثاني ١٩٣٦ من مجلتها.

ويبدأ الكابتن (ماكدونالد) محاضرته بشرح التدخل السافر الذي كانت تقوم به الحكومة في الانتخابات النيابية، وتعيين النواب تعييناً كيفياً في الغالب. ثم يذكر أن علي جَوْدَت حينما تولى رئاسة الوزارة جاء بمجلس فيه الكثير من أعوانه ومريديه حتى من المناطق العشائرية المعروفة في لوائي الديوانية والمنتفك، وأبعد الرؤساء من أهالي المناطق المذكورة عنه. وكان ممن شطب اسمه من قائمة لواء الديوانية عبد الواحد سكر شيخ مشايخ آل فتلة وقد أدى ذلك إلى التذمر الشديد، واستفحال أمر المعارضة التي استغلت هذه الفرصة في الفرات الأوسط لأغراضها، بزعامة حزب الاخاء الوطني وقادته من أمثال ياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني وحِكْمَت سليمان.

أما ما يختص من ذلك بالنجف والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، فيذكر

(١) Capt. A. D. Macdonald - The Political Development in Iraq, Leading up to the Rising in the Spring of 1935, Journal of Royal Central Asian Society, January 1936, Vol. XXII.

ماكدونالد أنه كان من الواضح أن عبد الواحد لم يكن يأمل الحصول على الكثير من التجاوب المحلي إذا اقتصر في دعوته على تبديل الحكومة فقط (حكومة جميل المدفعي). ولذلك حجب نياته الحقيقية عن الناس وأظهر نفسه بمظهر البطل المدافع عن «حقوق الشيعة» في البلاد، فتقمص بذلك دوراً يمكن أن يؤمن له مؤازرة واسعة وتجاوباً بعيد الانتشار. على أنه لم يظفر بمؤازرة العشائر المطلقة في ذلك لأن أربعين بالمئة فقط خفت لمؤازرته، وأحجم ستون بالمئة منهم عن الانحياز إليه لأنهم كانوا يعتقدون أن حكومة المدفعي أقل شراً من الحكومة الإخائية. لكن هؤلاء اضطروا إلى مجاراة عبد الواحد في دعوته إلى تحسين الأحوال في مناطق القبائل الشيعية، بدلاً من تأييده هو بالذات ولذلك التجأوا إلى العلامة الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، للاسترشاد وطلب المشورة. وهكذا تجزأت الكتلة العشائرية في الفرات الأوسط إلى مجموعتين: مجموعة نشطة فعالة يتزعمها عبد الواحد[1] تريد الإتيان بحكومة إخائية عن طريق الإخلال بالأمن، ومجموعة ثانية أكبر من الأولى[2] وعلى جانب أكبر من عدم السياسة والتدبير. وقد ربطت هذه نفسها بالشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، وهي عازمة على الحيلولة بذلك دون قيام عبد الواحد باستغلال البركات التي تسبغها عليهم الدعوة العتيدة الشيعية من أجل تحسين مركزه على حسابهم.

ويتابع الكابتن (ماكدونالد) شرحه للموضوع بقوله إن الأحوال في الجنوب كانت تمر خلال هذه الفترة من سيِّىء إلى أسوأ، وما أن تسلمت وزارة المدفعي الجديدة زمام الحكم حتى اندفعت جماعة عبد الواحد إلى القيام بأعمال وإن كانت غير منافية للنظام في الظاهر إلا أنها مع ذلك كانت تعتبر غير قانونية على وجه التأكيد. فقد بادر أبناء عشائر (آل فتلة) إلى قطع طريق المشخاب الفرعي بتعطيل القناطر عن العمل، وسدوا طريق الديوانية ـ النجف. . . ولذلك سيق قسم من الجيش إلى الجنوب، فنقلت ثلاثة أفواج إلى المنطقة التي تأثرت بهذه الحركة، وتوجه فوج منها إلى النجف نفسها.

---

(١) وكان من أبرز زعمائها السيد محسن (أبو طبيخ) والسيد علوان الياسري، وعبادي الحسين.

(٢) وكان من أبرز هذه الجماعة ـ علوان الحاج سعدون، والحاج رايح، والحاج مرزوق العواد، وداخل الشعلان، وخوام العبد العباس.

وفي أثناء هذه التطورات لم يسمح للشيخ محمد حسين في النجف بالبقاء في معزل عن العمل. فقد كان موقفه صعباً في الحقيقة، لأنه كان يتعرض من جهة إلى ضغط القبائل غير الإخائية التي كانت تطالبه بأن يُظهر بصراحة حقيقة تغطرس عبد الواحد وادعائه لنفسه ببطولة القضية الشيعية، وكان يتعرض من جهة أخرى إلى ضغط عبد الواحد نفسه، الذي كان وهو ينشد جعل مركزه منيعاً تجاه خصومه، ويطالب الشيخ بأن يساعده فيما يبذله من جهود مزعومة لإنصاف الشيعة ودعم قضيتهم العامة. ولم يكن يهمّ العلامة الكبير كثيراً أن تكون هذه الوزارة متربعة في دست الحكم أو تلك، غير أنه كان من المهم الحيوي لنفوذه وسمعته أن العشائر إذا ما تحركت مطالبة بالقيادة الدينية فإن هذه القيادة يجب أن يكون زمامها بيده. وهو بطبيعة الحال لم يكن ينطلي عليه الدافع الحقيقي الذي كان يدفع عبد الواحد إلى العمل، لكن كثيراً من المؤازرة التي كانت تقدم بدافع الاعتقاد بأن القضية الشيعية كانت رائده في عمله. وكان الشيخ كاشف الغطاء علاوة على ذلك يكره الظهور بمظهر غير العابىء بهذه الناحية من القضية كلها فيجازف بسمعته بينهم ويثير انتقادهم له. ولم يكن هناك شيء بالنسبة لوجهة نظره أكثر ابتعاداً عن رغبته الحقيقية من أن يكون مجبراً بتأثير المصالح الدنيوية العائدة لرؤساء العشائر، على مناوأة مجموعة لا يستهان بها من أفراد القبائل أنفسهم. ولذلك حاول، بشيء من النجاح، أن يبقى مسايراً لجميع الفئات ويظل غير ملزم بشيء تجاه أي أحد منهم، حاصراً أحاديثه وأقواله في مجال التوافه من الأمور، ومقتصراً في أعماله على تنظيم قائمة رسمية بالمطاليب الشيعية.

وحينما كانت تقرر هذه المطاليب كانت تنشر بصورة خاصة وتشيع بين الناس، ولكنها لم تقدم بصورة رسمية مطلقاً إلى أن تسلمت حكومة الإخاء الحكم. وعندما تم تقديمها كانت خالية من تواقيع عبد الواحد عليها، وبعض الرؤساء المنضوين تحت لوائه وليس كلهم.

ثم يعود الكابتن (ماكدونالد) إلى البحث في «المطاليب الشيعية» على ما يسميها، فيقول أن ظلامات الشيعية الحقيقة أو الموجودة في مخيلة الكثيرين منهم كانت تشغل العناصر المتحسسة بالأحوال السياسية في الفرات الأوسط والمدن المقدسة وفي مقدمتها النجف منذ عدة سنين، فأخذت تصبح وسيلة بالية في أيدي الساسة

البغداديين. وقد نوقشت عدة مرات من قبل خلال السنين الفائتة، ورسمت، ثم قدمت في بعض المناسبات وهي تحمل مطاليب كانت تتراوح بين الأشياء المستحيلة والأشياء المعقولة العادلة، أما المطاليب التي وضعها الشيخ محمد حسين في النجف فقد تكون أشد اعتدالاً مما قدم منها حتى الآن(١). فقد كانت تنص على أن يكون عدد الأعضاء الشيعة في البرلمان متناسباً مع عدد الشيعة من سكان البلاد. وطالبت بتعيين الحكام العدليين بعدد كاف منهم، وبحرية الانتخاب في المناطق الشيعية، وحرية الصحافة في البلاد أجمع، وفيما عدا ما كان فيها من المطاليب المتطرفة التي تطالب بتخفيض الضرائب كانت تحتوي أيضاً على فقرات لم يكن بوسع أية حكومة تعطف عطفاً صادقاً على «القضية الشيعية» أن تمنحها لا عاجلاً ولا بمرور الزمن.

وينتقد (ماكدونالد) بعد ذلك تصرف الوزارة المدفعية مشككاً بجدوى سوقها للجيش بالطريقة التي حصلت فأدت إلى سقوطها. ويعود إلى تدخل الشيخ محمد حسين فيقول إن التوفيق لم يحالف تلك الوزارة فيما بذلته من جهود في أثناء مفاوضتها له، برغم أن الشيخ لم تكن تسيطر عليه بأي حال من الأحوال فكرة معاداة الحكومة القائمة بالذات، وإنما كان يهتم بصورة خاصة بنجاح القضية الشيعية على حد قوله، التي كان بوسع وزارة جميل المدفعي نفسها أن تحلها بقدر ما يمكن حلها عن طريق أية وزارة إخائية يمكن أن تأتي من بعدها.

وبعد أن جاءت وزارة ياسين الهاشمي الإخائية إلى الحكم هدأت الأحوال في منطقة (آل فتله)، لكنها اضطربت في منطقة خوام وجماعته. ولذلك عمدت الحكومة إلى مفاوضة العلامة كاشف الغطاء، والاستعانة به لتهدئة الحال. ويذهب (ماكدونالد) إلى أن الشيخ نفسه لم يكن يريد لدرجة ما أن يشترك في النزاع منذ البداية، لأنه لم يكن يرغب في التورط بالشؤون الطائفية ما لم يحصل على إجماع قبائلي يؤيده. يضاف إلى ذلك أنه كان من الفطنة بحيث يمكنه أن يلاحظ أن هذه العشائر التي وافق أن يكون ناطقاً باسمها، بينا يكون بوسع رؤسائها أن يتلاعبوا بعواطف أتباعهم السذج

(١) هذه المطاليب قد طبعت بمطبعة الراعي في النجف وقد أشارت لها جريدة (الراعي) فألغت الحكومة بسبب ذلك امتيازها وعطلتها.

بالتحمس الظاهري للدفاع عن حقوق الشيعة والمطالبة بإنصافهم، فإنهم كانوا في الحقيقة بعيدين عن ذلك كل البعد لأن الذي كان يشغل بالهم هو الشيخ عبد الواحد والحكومة الإخائية وتوقع إعادة النظر في قضايا الأراضي المتنازع عليها بينهم. وإذا كان موقف الشيخ محمد حسين وهو يرأس العشائر الموالية للحكومة يعد موقفاً غير صريح له في شهر مارس، فإن عدم ارتياحه في موقفه الجديد قد تضاعف وهو يرأس مجموعة من العشائر مناوئة للحكومة من دون أن تكون متماسكة فيما بينها أو متفقة على رأي، وهي تضج ملحة عليه بوجوب وضع نفسه في موضع عدائي لا يلين تجاه جماعة عبد الواحد القوية، ووزارة كانت تدل جميع الدلائل على كونها وزارة قوية. لكنه تردد وراوغ كالعادة وتكلم بكلام حسن مع الحكومة، وهو يرمي بذلك إلى أن يبدد الشك الذي كان يخامرها تجاهه ويجعلها تعتقد بأنه غير عازم على إثارة الضغائن الدينية[1]. بينما راح يكلم رؤساء القبائل بكلمات التقوى والورع العامة، ويشجعهم بأن يجعلوا قضية المطاليب الشيعية في مقدمة الأشياء التي تخطر ببالهم، لكنه بذل عناية خاصة في عدم إلزام نفسه بشيء من قبيل التحريض الصريح على الإخلال بالأمن.

وقد صدر تحريض كثير على الثورة من النجف في أواخر نيسان وأوائل مارس، على ما يقول (ماكدونالد) ومع أن الشيخ محمد حسين المضغوط عليه إلى أقصى ما يمكن أن تتحمله قابلية رجل الدين المسلم في الإبهام والغموض، كان لا بد من أن يكون هو المسؤول عن شيء منه فإن معظم اللوم عن ذلك التحريض كان يجب أن يلقى على عاتق رجال الطبقة الدينية الأقل بروزاً منه بالنسبة للنشاط الكثير الذي كان يبدو منهم. وهناك أدلة كثيرة تدعو إلى الشك كذلك في تسرب التشجيع غير اليسير من بغداد إلى الجنوب مرة ثانية، ولكنه صار يصدر هذه المرة من جهات غير إخائية. ومع أن هذا التأثير الهدام كان كله شيئاً أقل قوة وعزماً من التحريض السياسي الذي أدى إلى اقتلاع الوزارتين السابقتين عن كرسي الحكم، فقد كان له شيء من التأثير بلا ريب، وكان من شأنه أن يزيد في حراجة الجو المتوتر الذي كان سائداً في البلاد.

---

(١) والثابت أن الشيخ كاشف الغطاء كان على خلاف ما يقول ماكدونالد فقد كان صريحاً في مخاصمة وزارة الهاشمي الأمر الذي جعل الشيخ عبد الواحد والسيد محسن (أبو طبيخ) وغيرهما ينقطعون عنه.

هـذا والملاحظ في هـذا البحث، وفيها لم نشـأ أن نثبته هنـا بالتفصيـل من أقوال ماكدونالد، أنه يعتقد أن العراق الشيعي هو عشائري في نظرته واتجـاهه وأن الـروحية التي تنحو منحى شيعياً طائفياً على حد تعبـيره تسير يـداً بيد مـع اتجاه رجـال العشائـر الإقطاعي، ومناوأته لمفهوم الحكومة المركزية وتأييـده التلقائي لكـل شيء يبشر بحلول حكم عشـائـري لا مـركـزي أو يشـير إليـه من بعيـد. ويـرى أن الفكـرتـين الشيعيـة والعشائرية محبوكتان في مخيلة رجال العشائر بحيث لا يمكن التفريق بينهما لحدٍّ ما. ولا شك أن رأي رجل الاستخبارات البريطانية هذا فيه الكثير من التجني الذي قـد يحمل على تقصد خاص في كيفية سرد الحقائق وطريقة عرض ما يسميه «القضيـة الشيعية» و «المـطاليب الشيعية» وغـير ذلك ممـا نجده مؤكـداً عليه أبـداً ودوماً في جميـع مـا يكتبـه الإنكليز الذين عاشوا في هذه البلاد تقريباً، ولا سيما أولئك الذين شهدوا نيران الثورة العراقية تندلع في ١٩٢٠ من النجف وسائر أنحاء الفرات الأوسط فتفسـد على رجـال الاستعمار البريطاني أحلامهم وتقلب خططهم الجهنمية رأساً على عقب. ولا نرى سبباً لمثل هذا الموقف سوى الموتورية الشديدة من رجال الدين الذين قـادوا الثورة العـراقية لإنقاذ البلاد من ربقة الاستعمار.

تعليق وتوضيح

هذا وقبل أن ننتقل من موضوع حركات ١٩٣٥و ١٩٣٦ التي جرت في النجف والفـرات الأوسط، لا بد من أن نثبت هنـا بعض النقاط التـوضيحية خـدمة للحقيقـة والتاريخ. فإننا نرى في المراجع المحلية عن هذه الفترة أن الـوزارة المدفعيـة الثالثـة قد جاء تشكيلها اضطرارياً، لأن الإخائيين لم يقبلوا بتشكيل الوزارة بعد فشل وزارة عـلي جـودت الأيوبي وسقـوطها إلا بحـل المجلس النيابي الـذي جاء بـه الأخير. وكـان هـذا الشرط ضـد رغبة الملك. وحينـما تشكلت تلك الـوزارة في ٤ مارس ١٩٣٥ لم تبـذل مجهـوداً كبيراً لحـل المشكل، وإنمـا اكتفت بإيفـاد السيد عبـد العـزيـز القصـاب وزيـر الداخلية لـدرس الأحوال في لـواء الديـوانية فعـاد منها بعـد أن لم يفلح في إقناع عبـد الواحد وجماعته بالكف عما أقـدموا عليـه. ثم أوفدت الحـاج عبد الحسـين جلبي وزير المعارف إلى النجف ليتصل برجال الدين ويوسطهم لدى رؤساء القبائـل بالتعـاون مع الحكومة لكنه قوبل في النجف الأشرف بالجفاء والبرود، وعـاد بخفي حنين[1]. وعـلى أثر هذا عزمت الحكومة على التذرع بالقوة وسوق الجيش لتأديب «المتمردين»، وكـانت هذه فكرة جميل المدفعي منذ أن كان عضواً في الوزارة الأيـوبية التي تـولت الحكم قبل هذه الوزارة. فقد صرح علي جودت لصاحب (تاريخ الـوزارات العراقيـة) أنه كـان من رأيه أن لا يساق الجيش، وأن تقتصر الحكومة عـلى قيام الشرطـة بضبط المراكـز المهمة وتحافظ على الأمن. لكن وزير الدفاع جميل المدفعي كان يصر على تجريـد حملة تأديبيـة إلى النجف والفرات الأوسط لإخضاع القبائل بالقوة. وقد عمد إلى تنفيذ فكرتـه حينما تولى الرئاسة بعد ذلك، غير أنه لم يتوفق في مسعاه لأن الملك غازي كان من رأيه حقن دماء العراقيين وحل الأمور بصورة سلميـة. ولذلـك اضطر المـدفعي لتقديم استقـالته

(١) وكان برفقة الحاج عبد الحسين الشيخ علي الشرقي.

بعد أن بقيت وزارته في الحكم ثلاثة عشر يوماً لا غير.

وكان الملك قد وقف هذا الموقف لأنه تسلم من عبد الواحد الحاج سكر ثلاث برقيات متتالية، في ١١و١٣و١٤ مارس ١٩٣٥ يعرض فيها إخلاصه وإخلاص قبائله للعرش ويدافع عن نفسه بما يراه صالحاً، فاقتنع بأن حركة العشائر لم تكن إلا حركة سلمية لا يقصد بها تعكير الأمن. وتسلم برقية أخرى من سماحة الشيخ كاشف الغطاء في يوم ١٤ منه يشير بها على الملك بتوقيف الحركات. وتسلم برقية غيرها، عن طريق رئيس الديوان، في يوم ١٣ مارس من العلامتين الشيخ عبد الكريم الجزائري والشيخ محمد جواد صاحب الجواهر في النجف يستنكران فيها سياسة الإرهاب التي اتبعتها الحكومة في حل المشكل. وهاك نص برقيتهما التي تجلو الكثير من النقاط:

«إخلاصاً للعرش الهاشمي، وأداء للوظيفة الدينية، وحقناً للدماء، نلفت نظر صاحب الجلالة للحالة الحاضرة فإنها سيئة جداً وإذا بقيت الحكومة على الإصرار في سياسة الإرهاب تكون أسوأ. لقد خاطبنا وزير الداخلية في ذلك فلم نر منه ما يوجب الطمأنينة، ولم تزل البرقيات تردنا من أطراف العراق تطلب منا المداخلة في إصلاح الأمر. نرجو تبليغ الأمر إلى صاحب الجلالة ولفت نظره نحو هذه الشدة التي تستعملها الحكومة مع أمة مخلصة للعرش والبلاد بدون مبرر شرعي وبدون ذنب سوى مطالبتها بتطبيق القانون الأساسي..»

وحينما تشكلت وزارة ياسين الهاشمي الإخائية في ١٧ مارس ١٩٣٥، تطورت الأمور من جديد على النحو المذكور من قبل وتحرك الشيخ خوام وجماعته ضدها. ولأجل أن يسبغوا على الحركة شكلاً غير شكلها الأصلي تظاهروا بعلاقتها بالشيخ محمد حسين كاشف الغطاء في النجف، لكن سماحته لم يكن ميالاً إلى استعمال العنف من لدن الحكومة والتمرد على القوانين والأنظمة من لدن الناس. ولذلك أصدر «بلاغاً للناس» بتاريخ ١٢ محرم الحرام ١٣٥٤ يدعو فيه قبائل الفرات وزعماءها إلى المحافظة على الأمن وعدم القيام بأي حركة يخشى منها اختلال النظام. وقد حذرهم من الانقياد إلى الأحزاب، والاستماع إلى رجالها، لأن الأحزاب هي التي أهلكت العباد على حد قوله، وخربت البلاد وجرت الويلات على هذه الأمة البائسة والمملكة العراقية الفتية، ولأن الأحزاب على ما يقول مطايا يركبها شياطين معدودون فيعبرون بها إلى مقاصدهم

الشخصية ومنافعهم الذاتية[١].

وقد اشترك في وزارة ياسين الإخائية الشخصية النجفية المعروفة في عالم العلم والأدب على ما يقول (لونكريك) في كتابه[٢] الأخير، الأستاذ محمد رضا الشبيبي، فأشغل وزارة المعارف. لكن الشبيبي اضطر إلى تقديم استقالته منها في ١٥ أيلول ١٩٣٥، لأنه لم يلق التأييد في مجلس الوزراء «بكثير من الآراء والمقترحات التي سبق له أن اقترحها بشؤون المعارف»، فقبلت استقالته واسند منصبه إلى صادق البصام.

وبعد أن تولت وزارة حِكْمَت سليمان الحكم على أثر الانقلاب العسكري الذي تزعمه الفريق بكر صدقي، هلل الكثيرون من الناس وتأملوا خيراً منها. وحينما حاول رئيس الوزارة الجديدة حل المشاكل القائمة في الفرات الأوسط لم يتوفق فيها كل التوفيق، واضطر إلى سوق الجيوش واستعمال الشدة كذلك. ويقول المستر (لونكريك) في هذا الشأن أن تخبط (حكمه) في حل المشاكل الفراتية التي بقيت غير محلولة من قبل كان شيئاً واضحاً. فقد كان عليه أن يسترضي الناقمين من دون المس بحقوقهم، ويعفو عن المحكومين من دون إظهار شيء من الضعف، ويحافظ على الأمن من دون استعمال العنف الذي لا يستسيغه أحد، فأقدم على ذلك بكل ما كان عنده من حسنة وبراعة في معاملة الناس، لكنه أخفق إخفاقاً معروفاً في النتيجة. لأن خميرة المصالح الذاتية، والانقسامات الدائمة، التي كانت تصطبغ بها الحياة الاعتيادية في النجف وأوساط الفرات العشائرية والدينية، لم يمكن التخفيف من حدتها[٣]. ثم يأتي بعد ذلك على وصف اصطدام العشائر بالحكومة واضطرارها لتأديبهم ونفي عدد من رؤسائهم المعروفين. ويعرج من هناك إلى ذكر الاختلاف الذي حصل بين أعضاء الوزارة الحكميَّة، والتقدمية التي كانت تتصف بها جماعة كامل الجادرجي التي يقول (لونكريك) أن وجودها شجع العمال على القيام بإضرابات خطيرة في مختلف الأماكن والمؤسسات، ومن جملتهم عمال الحياكة في النجف نفسها. وقد انتُخب في عهد هذه الوزارة الأستاذ محمد رضا الشبيبي رئيساً لمجلس الأعيان.

---

(١) هنا البلاغ أصدره الشيخ حين علم بأن جماعة عبد الواحد قد جرفهم التيار الحزبي وقد قلبوا لآرائهم السابقة ظهر المجن.

(٢) الص ٢٤١.

(٣) الص ٢٥٠.

النجف في السنين الاخيرة

هذا ولم أعثر فيما كتبه الغربيون عن العراق ما بين هذه الفترة وسنة ١٩٥٨ على شيء يذكره عن النجف سوى بعض الاحصاءات والمعلومات العابرة. فقد كتب (لونكريك) في (١٩٠٠ ـ ١٩٥٠) أن مديرية الآثار القديمة قامت بالتنقيب في خرائب الحيرة الكائنة في منطقة النجف ـ الكوفة سنة ١٩٤٥ وقد درست في السنة نفسها مديرية السكك الحديد العامة قضية مد خط خاص للسكك ما بين كربلاء والنجف والكوفة، لكن ذلك لم يثمر شيئاً. ويذكر كذلك أن (توفيق السويدي) أدخل معه في الوزارة التي شكلها يوم ٢٣ شباط ١٩٤٦ المتصرف النجفي سعد صالح المعادي لصالح جبر. ثم يذكر عن الفترة نفسها أن الجو المتوتر المفعم بالتذمر والخطر الذي كان يخيم فوق النجف وغيرها من المدن المقدسة[1] لم يؤد إلى وقوع اضطرابات مكشوفة يعبأ بها. ويعلق بالإضافة إلى ذلك على إحصاء النفوس الذي جرى في العراق سنة ١٩٤٧ فيقول أن أكبر كثافة في السكان بالنسبة للألوية العراقية المختلفة تلاحظ في لواء الحلة الذي تبلغ كثافة النفوس فيه (٤٩) نسمة في الكيلومتر المربع، ويأتي بعده لواء كربلاء الذي تبلغ كثافة نفوسه (٤٦) نسمة في الكيلومتر المربع الواحد. وفي خلال البحث عن التطورات التي حصلت في المجتمع العراقي وأحواله ما بين تشكيل الحكم الوطني في البلاد و ١٩٥٠، يذكر (لونكريك) وستوكس[2] في كتابهما عن العراق أن مراكز النفوس والمواصلات الموجودة خارج بغداد والموصل والبصرة بقيت منحصرة على الأغلب في كربلاء والنجف والحلة وكركوك والسليمانية

---

(١) الص ٣٣٥.

Stephen Longrigg & Frank Stoakes - Iraq, London 1958. الص ١٣٢

واربيل. وظلت النجف وكربلاء والكاظمية وسامرا هي المراكز الكبيرة التي يؤمها الزوار الشيعة بأعداد كبيرة، ولا سيما من إيران. ويذكر أن كذلك من جملة الطرق المهمة في البلاد طريق بغداد ـ كربلاء ـ النجف، والطريق ما بين هذه المدن والحلة. ثم يتطرقان إلى النواحي الدينية في البلاد فيشيران إلى أن العلوم الاسلامية، مع جميع ما حصل من تأثير التربية الحديثة وقوتها في الناس، بقيت تدرس في المدارس الدينية العائدة لأهل السنة والشيعة معاً. وأن النجف ما زالت الجامعة الدينية القديمة مزدهرة فيها، وما زال طلبتها يطبعون مؤلفاتهم الدينية على النمط الذي ظل متبعاً فيها منذ قرون عدة.

وفي أواخر ١٩٥٨ (أي بعد ثورة ١٤ تموز) ظهر إلى عالم المطبوعات كتاب أمريكي عن العراق، في ضمن سلسلة من المطبوعات تطبع عن حضارات الأمم وأحوالها المختلفة في العالم. وقد بحث مؤلف الكتاب(١)، جورج هاريس، عن سكان العراق ومجتمعه وحضارته الحديثة من نواحيها المختلفة. فوردت في الكتاب، الذي يعد دراسة حديثة فريدة في بابها، إشارات غير قليلة إلى النجف وجدت من المناسب أن أختم هذا البحث الشامل بها. فقد ورد في موضوع السكان في مدن العراق المختلفة أن هجرة واسعة النطاق من القرى العراقية إلى المدن تقوم الآن على قدمٍ وساق، وإن المدن التي يحصل فيها التوسع بهذه الطريقة هي البصرة وبغداد وكركوك والنجف(٢). وورد في بحث القوميات المختلفة أن النجف والكاظمية فيها حوالي ألف أفغاني شيعي، وهم على صلة وثيقة بالجاليات الإيرانية من حيث اللغة وما أشبه. ويذكر المؤلف في بحث الحج والزيارة أن الشيعة يجيزون إنابة أشخاص آخرين للحج عنهم عند الضرورة(٣)، وقد يعتاضون عنه بالزيارة إلى النجف (حيث يدفن الإمام علي) أو كربلاء. ولا شك أن المؤلف غير مصيب في هذا القول لأن الشيعة يعتبرون الحج من أركان الإسلام مثل سائر المسلمين كما يذكر المؤلف نفسه في الص ٥٣ من نفس الكتاب. ويقول المؤلف في موضع آخر أن النجف التي تعد مركزاً للثقافة

(١) Harris, George L. - Iraq, Its People, Its Society, Its Culture. New Haven 1958.

(٢) الص ٣٤.

(٣) إنما تجوز النيابة عن الميت وليس عن الحي كما ذهب إليه المؤلف.

الشيعية والتعلم في العالم الإسلامي كله قد ساعدت خلال الأزمات السياسية التي حصلت في الحقبة التي نالت فيها البلاد استقلالها بعد الحرب العامة الأولى، على تلقين طلبتها الروح الوطنية أهمية التراث العربي الخالد.

وفي أثناء البحث عن الحركة الأدبية يقول «إن النجف خلال الحرب العالمية الأولى وما بعدها كانت قد غرست في طبقة جديدة من الشعراء فكرة الوطنية الحديثة والروح القومية التي تؤكد على التمسك بالتراث العربي المعروف. وقد أنتجت هذه المدرسة العربية الحديثة شعراً متشبعاً بالشعور الوطني المتسامي. وكان لمفاخر الحضارة العربية ومآثر العرب التاريخية القدح المعلى في تفكير أولئك الشعراء، ونادراً ما كانوا يلتفتون إلى موارد الثقافة الأخرى أو يحاولون استخدام أساليب جديدة في تطوير أفكارهم أو تغيير المواضيع التي يحصرون تفكيرهم فيها. ومع هذا فقد كان الجمهور وما يزال يقدر هذا الشعر حق قدره ويعمل على حفظه والتغني به». ثم يقول عن الشعر العراقي خلال الحرب العالمية الثانية وما بعدها إنه دخل في طور جديد من أطواره. فإن الاتجاهات الأدبية القديمة الموجودة في النجف وبغداد لم تعد مسيطرة على لب الشعراء والكتاب الشبان. لأن الطبقات المتعلمة أخذت تتعرض بازدياد إلى الآراء والأفكار الجديدة التي جاءت إليهم من أوروبا وأمريكا بصورة مباشرة وغير مباشرة، عن طريق السيل المتدفق على البلاد من الكتب والنشرات المطبوعة في مصر ولبنان.



الفهرس

الفهرس

